Twitter: @alqareah
17.11.2014

رينيه الحايك

بيروت 2002

رواية

المركز الثقافي العربي

رينيه الحايك

بيروت 2002

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الكتاب

بيروت 2002

تأليف

رينيه الحايك

الطبعة

الأولى، 2003

عدد الصفحات: 240

القياس: 14.5 × 21.5

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

Twitter: @alqareah

إلى ابنتي مروى

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل الأول

رجـــــا

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ألم قوي في خاصرتي يوقظني. كأنّني نائم فوق حجرٍ مروّس. أسحب فردة جزمة نسائية. نمتُ فوقها ولم أنتبه. أتأمّل السقف الواطئ للحظة. أشيح بوجهي إلى طرف الفراش. كارولين قربي، تحدث شخيراً خافتاً. صونيا أيضاً نائمة عند طرف السّرير، أزاحت عنها الغطاء، كاشفةً عن جسمها كلّه. تنورتها الصوفية تجمّعت عند خصرها. الشال الذي يلفّ رقبتها دخلت خيطانه الحريريّة في فم كارولين...

صمت في الشاليه كلّه. أنزل الدرجات حافياً، حاملاً حذائي. طقطقة الأرضية الخشبيّة لا توقظ أحداً. الحرّ شديد. يخطر لي أن أبدّل من درجة التدفئة، لكنني سأخرج بعد قليل. لا أذكر متى نمت وكيف.

نيام في الطابقين يملأون الأرضيّات والكنبات. بعضهم بلا غطاء. في الطابق الأوّل، أشتمّ تعفّن الأطعمة المنثورة في كلّ مكان. أيمكن أن تفسد في ليلة؟ كميّات هائلة من المعجّنات والقناني الفارغة. الكؤوس مملوءة في معظمها. تعود إلى رأسي صورٌ متفرّقة من البارحة. لا أجد مكاناً شاغراً لأجلس وأنتعل

Twitter: @alqareah

حذائي. جواربي تتّسخ. موجات من الحموضة، تتصاعد أبخرتها من معدتي إلى فمي. أحسّ بدوّارٍ يشتدّ. أخفّف من سرعة حركاتي. ببطء شديد، أُدخل قدمي في الحذاء. أتوقّف، وأرفع رأسي عالياً بسبب الغثيان.

في المطبخ الضيّق، الفوضى أكبر بكثير. أبحث عن قنينة سفن آب. أمام البراد الصغير، الكثير من القناني، أكوام من صحون الكرتون المليئة بالأطعمة وأعقاب السجائر. أُبعد بعضها لأتمكّن من فتح البرّاد. لا أجد سوى قالبي حلوى. على الأرجح نسي الجميع أمرهما البارحة. ككلّ مرّة، نضع لائحة من الحلويات والأطعمة والمشروبات، لا نستهلك منها إلاّ ما يتعلّق بالمشروبات. بخطٍّ ذهبيّ كُتب على العلب «Mie dorée».

أشرب ماءً من الحنفية. أتجشّأ مرّاتٍ عدّة. ترتاح معدتي قليلاً. الحمام في الطابق الأرضي مقرف، المياه أيضاً تغمر أرضه، وبقايا قيء تلطّخ مرحاضه، لذلك أعاود الصعود إلى الطابق الثالث حيث العلية التي نمتُ فيها. أدخل الحمام الصغير. يبدو أنّ أحداً لم يستعمله. رائحة الأغلاق والغبار قويّة فيه. ضيّق لا يتسع إلاّ لمرحاض. سقف العلية قليل الارتفاع. أحني رأسي دون انتباه كأنني سأصطدم به. المياه التي تكرج من خزان المياه شديدة الزرقة. أحسب أنّ الصوت سيوقظ كارولين وصونيا. كارولين قد أغلقت فمها تماماً على شال صونيا. . تنقلب على ظهرها، مبعدة الغطاء. تستمرّان في النوم كالجميع. هدوء لا يتخلّله سوى أزيز قساطل التدفئة، أو أنفاس وأصوات تتهدّج بكلمات مبهمة. ثمّ تخمد فجأة. الراحة المؤقّتة في معدتي تزول. الغثيان والدوّار يقويان مجدداً.

Twitter: @alqareah

لا أجد معطفي في أيّ من الطوابق الثلاثة. أجاهد لأتذكّر مكانه. خلعته بعد عودتنا من الساحة... أين وضعته؟ أبحث بعصبيّةٍ عنه. أتلهّف للخروج من الشاليه، أحتاج إلى الهواء. أجده أخيراً وقد تدثّر به جوزيف، أسحبه عنه، فتُحدث مفاتيح سيّارتي صوتاً معدنياً قوياً. في هذه الأثناء، يتعالى رنين هاتف خليوي. أتجمّد مكاني. بعضهم ينقلب على ظهره أو جنبه، لكنّ أحداً لا يستيقظ كأنّهم أموات. أبخرة الكحول والأنفاس تشكّل غيمة. لا أنظر إلى الأرضيّة الآن، وأنا أتوجّه إلى الباب، كي لا يُثقل الدوّار رأسي. يصفعني هواء جليدي في الخارج. أزرّر معطفي الجلد الطويل، أرفع ياقته لأغطي رقبتي. ثلوجٌ في كلّ مكان. ستزعل كارولين لأنني أتركها هنا وأمضي.

أقود سيّارتي المرسيدس بحذر. كأنّها غريبةٌ عنّي بالسلاسل الحديد التي تلتفّ فوق دواليبها. أفكّر أنّه لم يكن عليَّ أن أشرب هذا الخليط من الكحول. كان عليَّ شرب نوع واحد. بدأت بشرب البيرة ونحن في طريقنا إلى فاريا. بعد الظهر، شربنا نبيذاً أبيض، وأكلنا دجاجاً مقلياً. وقبل أن تبدأ السهرة، كان السكر تغلغل في أجسادنا.

أفتّش عن علبة سجائري، لا أجدها في معطفي، أفتح صندوق لوح القيادة. أسحب علبة غولواز. أمجُّ مجّاتٍ قصيرة من السيجارة. سكاكين تقطع معدتي. أوقف السيّارة إلى جانب الطريق، أخرج منها، وأمعس السيجارة بطرف حذائي. الهواء يخفّف التشنّجات دون أن يزيلها.

حين أقف، أرى وادياً، تنبت فيه أشجار شربين شديدة

Twitter: @alqareah

الخضرة. ترتجف أطرافي من الصقيع.

أقود الآن بحذرٍ أقلّ. الشوارع شبه خالية. سأصل إلى بيتي في أقلّ من نصف ساعة. أرقام كثيرة دوّنها هاتفي الخليوي. لن أتصل بأيّ منها. لن أعيد تشغيله اليوم.

أطفئ جهاز التدفئة، أرفع صوت الموسيقى. معظم المحطّات يبثّ موسيقى كلاسيكيّة أو أغاني قديمة. أتذكّر أسطواناتي التي بقيت في الشاليه. قبل منتصف ليل البارحة، كانت موسيقى الروك تنفلت من رأسي. مرّة حاولت أن أشرح هذا الإحساس لعامر، فسألني إن كنت أهلوس. النغمات، ترتفع من قلبي، من نقطة ما في جمجمتي.

ولعي بالموسيقى يدفع رفاقي إلى الاعتقاد أنني متمرّس في العزف. صحيح أنني تنقّلت بين آلات كثيرة، لكنّني نجوتُ منها جميعاً. ربّما في السادسة من عمري، بدأت الآنسة روزينا مانوكيان تعلّمني ـ بناءً على رغبة جدّتي آناستازيا ـ العزف على البيانو. كانت صغيرة، لا أعرف كم عمرها، لكنّها أصغر من جدّتي بكثير ومن عمّتي أيضاً. أحببتُ عينيها العسليتين، ابتسامتها، يدها فوق كتفي في سنتي الأولى، كانت تقول إنني صبيّ موهوب، أتعلّم بسرعة فائقة. أتدرّب وقتاً طويلاً. إن ترضَ عنّي تقبّل وجنتي أو تقرصني قرصة حلوة كابتسامتها. لم يكن البيانو الذي تدرّبني عليه روزينا يشبه عزف جدتي في المساءات. كان مختلفاً في ذهني. بعد سنتين، تمّ إرسالي، عند معلّمة، قالت جدّتي إنّها أهمّ المدرّبات والعازفات على البيانو. فقدتُ كلّ اهتمام بهذه الآلة. لم أعد أتدرّب. شجارات تنشب بيني وبين جدّتي دونَ جدوى. استمرّ تعذيبي حتى الثالثة

Twitter: @alqareah

عشرة. جدّي أنقذني، وسجّلني كرفاقي في نادي الغيتار بعد الظهر، في مدرستي: الليسيه الفرنسيّة الكبرى. شكّلنا فريقاً موسيقيّاً، ألّفنا أغاني، شاركنا في عزف بعضها في حفلات عيد الموسيقى في المركز الثقافي الفرنسي. ثمّ توقّف كلّ ذلك فجأة. لم أعد أطيق رؤية غيتار. الآن أشتري الكثير من الإسطوانات. لكنّ ذوقي يتبدّل باستمرار. أهدي القديم منها، ولا أُبقي في مجموعتي إلاّ ما أحبّه مؤخّراً. أفتقد الآن إسطوانات Rammstein. سأترك رسالة هاتفية لكارولين لتحضرها لي. لا ربّما الأفضل أن أوكل عامر، كارولين مشتتة الذهن دائماً. لا أدري سبب إصرارها على إقامة حفلة رأس السنة في شاليه والديها. أوّل دخولي إليه، بدا لي ضيّقاً رغم طوابقه الثلاثة، فيه الكثير من الأثاث. تساءلت كيف سيتّسع لأكثر من أربعين شخصاً، خصوصاً إنّ عشرين منا على الأقل سينامون فيه.

الكنبات والأسرّة التي توزّعت فيه متنافرة، كأنّهم وضعوا في الشاليه، الأشياء القديمة فهنا كنبة مودرن، تواجهها أخرى كلاسيكيّة، حتّى الستائر تشبه ما يوضع على عجل في مكاتب عمل. قد يكون سبب إحساسي هذا، أنّني توقّعت رؤية شاليه مختلف، يُشبه الذي تملكه عمّتي...

حواجز جيش أو قوى أمن، أتوقّف عندها. أمدّ أوراق السيّارة من الشباك. أبتسم حين تعاد إليَّ. أقول شكراً وأمضي. بعضهم يتمنّى لي سنة جيّدة. أردّ بالمثل. لحظات من البارحة ترتسم الآن بصفاء في ذهني. في أوّل السهرة، كنت ضاجاً، أرقص حاملاً قنينة نبيذ في يدي، أعبّ منها جرعات كبيرة. كأنّ الوجوه الكثيرة تومض كالبرق في ذاكرتي. أشياء قليلة أتذكّرها. سكر صونيا ابنة خالة

Twitter: @alqareah

كارولين، ثمَّ انصرافها إلى بكاء موصول. لم أكترث له، فكثيراً ما تُصاب الفتيات بهذا النوع من النواح بعد شرب كأس أو اثنتين. عامر صديقي، انزوى بصاحبته الجديدة في أوّل السهرة داخل إحدى الغرف في الطابق الثاني. لم أره ثانية إلاّ بعد منتصف الليل في الساحة، يرقص مع صاحبته على أنغام تعزفها فرقة بائسة. منذ انصرافه إلى ملاحقة مونيك، أراه أقلّ. شقراء باهتة، لا أدري سبب انبهاره بها. صاحبته القديمة رلى، كانت في السهرة أيضاً.

أذكر أنّني كنتُ أقبّل كلّ فتاة أراقصها. لا ألقى عادة أيّة ممانعة. المهمّ القيام بالأمر بعفوية. قد يكون مفاجئاً لبعضهن، فيتجنّبن الرقص ثانية معي. في حين تسعى أخريات إلى مراقصتي طوال السهرة. كارولين كانت تسحبني من يدي من حين لآخر، تضمّني بقوّة، تضع رأسها على كتفي وتشدّني إليها. زعلت لما صرختُ بها قائلاً إنّها ستوقع القنينة من يدي.

تعرّفت بكارولين في بداية تشرين الأوّل. طالبة في السنة الأولى في علم الاجتماع. تعارفنا بسهولة. كنّا جالسين على درج الكولدج هول، نراقب التلاميذ يلعبون الليخا، تحادثنا، تبادلنا الأسئلة ثمَّ دعوتها لشرب شيء ما. في أقلّ من أسبوع، صرنا مقرّبين. نلتقي مساء مع الشلّة. أحياناً تنام عندي، وتخبر أخاها إنّها عند صديقة ما. أهلها استأجروا شقّة لها ولأخيها الذي يكبرها بسنتين قرب الجامعة في «جاندارك». تخبرني إنّ أخاها يفرح حين تنام خارج الشقّة، لأنه يأخذ راحته مع صاحبته في غيابها. أسألها لماذا يختار غيابها لدعوة صاحبته. تقول ضاحكة إنّ أخاها الأبله يظنّها بريئة وصغيرة، يخشى أن تُفسدها معرفة هذه الأشياء...

Twitter: @alqareah

أفكّر أنّ كارولين تبدو بالفعل صغيرة، ربّما لأنّها قصيرة ونحيلة. أو ربّما هي طريقتها في الكلام أو مفاجأتها أمام الأشياء كلّها. كأنّها تخطو أوّل خطوة في عالم الكبار. لا أدري بالضبط، هل هي ساذجة جدّاً أم عفويّة. ما همّني، فلتكن ما تشاء. المهم أنّها لا تزعجني وتضحكني أحياناً.

عجوز يقطع الطريق أمامي فجأة. أشدّ الفرامل بقوّة. يرفع عصاه صوبي، ويزمجر بضع كلمات لا أسمعها. يلتفتُ صوبي ويشيّعني بنظرات كراهية. أراه بطرف عيني، عندما أصل بمحاذاته، كأنّه يهمّ بقتلي، يتلفّظ بشتيمة قاسية. ألا يخجل في عمره؟

أكره الشتائم. لا أتمكّن من استعمالها كما يفعل رفاقي. هي موضة في الجامعة، خصوصاً للفتيات، حتى مرحباً ترافقها شتيمة. في الحانات، في المراقص، الجميع يستعملها. أحياناً امتناعي عنها يتحوّل إلى مادّة تندّر بين أصحابي. الآن أقلّ بكثير، لكن عندما كنت في الليسيه الفرنسية، رغم أنّ عامر صديقي، لم أتمكّن من مجاراته في التفوّه بها. بالفرنسية أحياناً أو الإنكليزيّة، لكنّهم جميعاً يفضّلون العربيّة، لإحداث صدمة أكبر. عامر صديقي منذ الصّف الأوّل المتوسّط. كان راسباً في هذا الصف وأكبر منّي، لكنني كنت أطول منه. توطّدت صداقتنا أثناء التدريبات عند السادسة صباحاً، على لعبة كرة القدم. لم يكن يعجب جدّتي، فإنّ دعوته إلى البيت، تنتقد طريقته في الأكل، جلوسه ومدّ قدميه على الطاولة، صوته العالي. حتّى عندما أُدخله إلى غرفتي، لديها ما تقوله بخصوص ضحكه المتهكّم، وذهابه دون شكرها. ثمّ امتنعنا عن تبادل الزيارات المنزلية. نخرج إلى السينما، إلى المطاعم، إلى المراقص ليلاً. منذ

Twitter: @alqareah

سنوات ونحن نتشارك الاهتمامات، الاختصاصات الجامعيّة والرسوب فيها. رغم اختلافه عنّي، وصخبه وجنونه، فقد بقي أقرب الرفاق. جدّي فيليب يطلق عليه منذ صغرنا تسمية Le gitan أي الغجري. بدوره عامر ما إن تعرّف بجدّيّ، حتى سخر منهما غير آبه بما قد تكون عليه ردّة فعلي. لم يفهم كيف أنّ جدّتي آناستازيا لا تنطق بأيّة كلمة عربية، سألني إن كانت فرنسية خصوصاً إنّ عينيها زرقاوان، وهي شقراء عموماً. فأجبته بالنفي. وهو لإغاظتها، يتظاهر بعدم فهمه لكلامها، فيردّد قائلاً: كلميني بالعربية، لا أفهم جيداً ما تقولينه، فيقوم جدّي بالترجمة غير متنبه للعبة عامر.

جدّتي أيضاً لم تكن تفوّت مناسبة للسخرية منه فهو برأيها لم يكتسب كلمة فرنسية واحدة من تعلّمه في الليسيه. ويأكل ويتصرّف بطريقة غير متحضّرة. لكن عندما مرضت جدّتي، وأصيبت بهذا السرطان، كان يرافقني لزيارتها في المستشفى، في بيتنا الصيفي في ضهور الشوير، وإلى بيتنا في مونو. هو من يبادر إلى سؤالي عنها ويطلب مرافقتي. وهذا أمرٌ لا أفهمه. كان منذ صغرنا يسألني باستغراب كيف أحتمل العيش مع هذين العجوزين. يقول إنّه يكاد يقتل نفسه، كلما تركه والداه مع جدّته ليسافرا في إجازة. جدته تتحكّم بموعد نومه، بالوقت الذي يقضيه متحدّثاً على الهاتف. تتدخّل في موعد عودته إلى البيت. تأمره بخلع سراويله التي لا تعجبها. تدخل إلى غرفته، تنزع الصور المعلّقة على الجدران. ترمي مجلاته المبعثرة في كلّ مكان. استمرّ ذلك حتى بلوغه الرابعة عشرة. لكنّ قضاء بضعة أيّام معها كان يجنّنه فيسألني: أين هي الجدّة التي نقرأ عنها، الطيّبة التي تشتري الهدايا لأحفادها، وتدافع

Twitter: @alqareah

عنهم وتحكي القصص؟ ماذا حصل لها؟ هل استبدلوها بمأمور سجن؟

منذ مرض جدتي، بات يكلّمها بالفرنسيّة. فتبتسم هي وتثني على تعلّمه أخيراً لهذه اللغة الجميلة، فيغمزني بطرف عينه.

في جنازتها منذ شهرين، بدا أشدّ تأثّراً مني، فقد استغربت إجهاشه بالبكاء، حتّى أن عديدين شدّوا على يده خالطين بيننا.

كاراج البناية فارغ إلاّ من سيّارة واحدة. أركن سيّارتي في مكانها المعهود. لا أنظر إلى المرايا في المدخل مخافة أن أُصدم بشكلي.

الشقة تنبعث منها روائح المطهّرات وسوائل التنظيف. أضع مفاتيحي فوق الطاولة في الصالون، تترك أصابعي بصمات فوق طبقة الغبار. في كلّ مرّة أستاء من إهمال السيريلانكية لمسح الغبار. ما سرّها؟ تنظّف كلّ شيء وبطريقة ممتازة وتترك الغبار مترسّباً فوق الطاولات والخزائن ومساند الكنبات. سأتصل بشركة تنظيف أخرى. نبّهتها مرّات عدّة إلى هذا الأمر ولا تبدو مكترثة. أحياناً تتظاهر بعدم فهمي. حتى أتيتها مرّة بقطعة قماش، ورحت أمسح الغبار أمامها. فقالت: Yes Mister I Understand you.

أفتح الحنفية الباردة، أغسل وجهي مرّات عدّة، أحسّ واهماً أنّ تقلّصات معدتي تخفّ وتيرتها. أشعل جهاز التدفئة. أضع إسطوانة Led Zeppelin. رنين الهاتف يتصاعد في الآن نفسه. أنظر إلى الرقم الذي دوّن، لا أعرفه. أنتزع الفيشة.

الساعة الآن تشير إلى الواحدة. أخلع ثيابي كلّها. أدخل إلى

Twitter: @alqareah

الحمّام. المياه الساخنة تتدفّق من الدوش قويّة وتخفّف من ألم معدتي. في المرآة، أرى شعري ينسدل فوق كتفي ناعماً أسود، تجعدات عريضة عند طرفه. سواد غامق اللون حول عينيّ... ليتني أصطحبتُ كارولين معي، أفضّل أن أضجر بصحبة شخصٍ ما على أن أضجر وحدي. لكن ماذا نفعل بصونيا ابنة خالتها؟ يجب أن نجد لها في هذه العطلة رفيقاً. لولا انشغال عامر بمونيك، لأدّى لي هذه الخدمة بطيبة خاطر. فصونيا لا بأس بشكلها. صحيح أنّها بكت اللّيلة الماضية كلّها، لكن هذا لا يعني أنّها غير جذابة. عندما عرّفتني بها كارولين، لفتني طول قامتها، ونظرتها الجريئة، فهي تنظر مباشرة إلى عينيك. شخص غيري ربّما، يعتبر الأمر دعوة صريحة إلى المصاحبة. لكنني فسّرت ذلك على أنّه مجرّد استكشاف. قد تكون كارولين ذكرت أشياء عنّي، أثارت فضولها. أضحك لتذكّري ما فعله طارق منذ سنتين. أعجبته فتاة في الـ Graphic Design كما أعجبته أخرى في الـ Public Health. ثمّ اكتشف أنّهما أختان. فصاحب الأولى لشهور، ثمّ تركها منصرفاً لملاحقة أختها في ما تبقى من السنة...

لو أخبرته عن صونيا، لنصحني بمصاحبتهما كلتيهما قائلاً: «زيادة الخير خيرٌ أيضاً».

أطلب من مطعم باغيت دجاجاً وسلطة وبطاطا مقلية وقنينة كبيرة من السفن آب. أبحث عن جاكيت الجلد البنيّة، لا أجدها في درف الخزانة، هل استعارها أحد؟ لا فأنا لا أعير لا سيّارتي، ولا شقتي ولا ثيابي. أتذكّر أنني أرسلتها إلى المصبغة. أخلع كل ثيابي، أنتعل أيضاً حذاء آخر يتناسب مع سترتي السكّرية اللون.. لن أنام. لن

Twitter: @alqareah

يطول بي الوقت وحيداً. فقد اتفقنا على السهر في برمانا، هناك مرقص جديد سنجرّبه.

يقرع الجرس، فأنتبه إلى أنّني غفوتُ جالساً.

أضع طعامي فوق طاولة الصالون. آكل ماضغاً على مهلٍ، أشربُ جرعاتٍ كبيرة من السفن آب. التجشؤ المتكرّر، يبدأ بإراحة معدتي. التلفزيون يبثّ برامج معادة. أطفئه. أعتذر بعد كلّ تجشؤ كاتماً فمي بيدي. أضحك مفكّراً أنّني حتى وحدي، لا أتمكّن من نسيان تعليمات آناستازيا جدّتي. في صغري كان لقبي Monsieur Pardon. رافقتني التسمية حتّى تعرّفي بعامر. نظراً لشعبيته بين التلاميذ، وبوصفي صديقه أحطتُ بنوع من الهيبة والحماية، فسقطت كلّ الألقاب التي التصقت بي طوال المرحلة الابتدائية.

يمرّ جوزيف بعد الخامسة. يوقظني من غفوة لذيذة. أفتح له، وعيناي نصف مغمضتين. يهرع إلى الحمام لغسل يديه. أتثاءب دون توقّف. أستلقي على الكنبة قبالة التلفزيون. يعود محمر اليدين. يجلس مسترخياً فوق الكرسي الهزّاز. أسأله أين الجماعة. يقول إنّه تركهم فوق ونزل بسيارة أجرة. أُعيد تشغيل هاتفي الخليوي. أخفّف حرارة التدفئة. أفكّر أنّه قطع عليّ نومة رائعة. أجاهد لأتذكّر الحلم. لا أجده. لم يبقَ إلاّ الشعور الذي خلّفه. شعور بالخفّة، أطفو كورقة فوق ماء أزرق، أسبح كنغمة في فضاء كالفضة، في فمي طعم سكري لا يشبهه شيء.

يبعثر سامر إسطواناتي. أعرف ما سيختار. قرقعة الإسطوانات تستمرّ لوقت طويل قبل أن يضع إسطوانة MOONSPELL. يدخل

Twitter: @alqareah

إلى الحمام ليغسل يديه. يعود حاملاً بيرة لكلّ واحد منّا.

يلوّح برأسه مع الموسيقى. يشرب بيرته بجرعات كبيرة.

أرقامٌ كثيرة دوّنها هاتفي: جدّي، عمّتي، ثلاثة أرقام لا أعرفها...

أدقّق النظر فيها، لا أعرفها، ثمّ طارق وكارولين. أدخل إلى غرفة النوم. أطلب رقمها، تردّ بعد أوّل رنّة. أسألها متى ستنزل. تخبرني إنّها هلكت وهي تتصل بي. تبدو غاضبة. تسألني ماذا أفعل. أقول: أشرب بيرة مع جوزيف. تضحك ساخرة. أسألها ما بها. «ألم يخبرك جوزيف؟ ألم يخبرك كيف هرب وتركنا عالقين بعد الحادث؟» تقول إنّ عامر كان يقود سيارتها، واصطدم عند المنعطف القوي بسيارة مرسيدس من خلف.

كانوا سبعة في سيارتها، بمن فيهم جوزيف. لكنه تركهم، واستقلّ سيارة أجرة. أمّا هم فانتظروا أربع ساعات مجيء الخبير. الرجل صاحب المرسيدس أصرّ. كأنّها لم تؤكّد له دفعها لكلّ تكاليف التصليح. كان يصرخ ويشتم. وجوزيف بدل أن يبقى انسحب كأنّ لا دخل له. حاول عامر تهدئة الرجل، لكنّ الرجل هجم عليه أبعده الناس بالقوّة. استمرّ يلعن شباب اليوم وأهلهم الذين لم يربوهم، كلما نظر إلى صندوق سيارته المبعوج ومصابيحه المحطّمة.

تقول إنّهم الآن في طريقهم إلى بيروت. أطلب منها مكالمة عامر. يخبرني إنّهم اتّفقوا على تأجيل مشروع برمانا. لا يعجبني الأمر. إلحاحي لا يبدّل شيئاً.

Twitter: @alqareah

جوزيف يشرب قنينة ثانية. كان مختلفاً عندما تعرّفت إليه في الجامعة. كان في السنة الثانية، قسم العلوم ـ كيمياء، ويحضّر نفسه للطب. رفاقي لم يحبوه. ينزعجون مني لأنني أدافع عنه. لا أخبرهم إنني أنا أيضاً أجده غريباً منذ صار طالب طب. منذ سنتين قضيت عطلة الربيع في بيت أهله في زغرتا. بلى، كان مختلفاً حينها. وإلاّ كيف تسليت برفقته. الآن، يبقى ساكتاً معظم الوقت، ينهض من حين لآخر ليغسل يديه، عادة جديدة لم ألحظها إلاّ من شهور.

أبعث رسالة خطية على الخليوي لعمتي، ثم لجدي. أتمنّى لهما سنة سعيدة. لا رغبة عندي في إجراء حديث مع أيّ منهما. لا أدري أين عمتي الآن، وفي أي بلدٍ. منذ طلاقها، لا تستقرّ في مكان واحد لأكثر من شهور قليلة. وجدي ماذا أقول له؟

أنظر بثبات إلى الكرسي، وهي تتأرجح بجوزيف إلى أمام وإلى خلف. يثقل النوم جفني. أموت ضجراً معه. يشرب الآن بيرته الثالثة. صفّ القنينتين الفارغتين أرضاً. كعب القناني سيخلّف دوائر فوق البلاط اللامع. يستمرّ في دندنته. أتركه لأحكي مع عامر ثانية. يبدو أكثر راحة. أسأله أين صاروا؟ يقول إن هناك عجقة. الطقس حلو والناس استيقظوا. حتى المقاهي تعجّ بهم. أحاول تبديل رأيه بخصوص برمانا. يقول إن الجميع أعصابهم تلفت، السهر في مكان قريب أفضل، Blue Note أو Smugglers، يعني سهرة هادئة. أسمع كارولين تهمس في السماعة بأنها ستقتلني عندما تراني. لهجتها لم تعد عصبيّة. أقفل السمّاعة وأعود إلى الصالون. القناني الثلاث في صف واحد. للحظة أظنّه سيبقى هنا، يشرب بيرة تلو أخرى. لديه قدرة هائلة على تحمّل المشروب. أحسّ بالاختناق. لكنّه لا

Twitter: @alqareah

يأتي برابعة. يسألني عن مشاريعي ليلاً. أكذب مدّعياً خروجي مع كارولين منفردين. لا يبدو أنه صدّقني.

أسمع صوت المصعد وهو ينفتح في الطابق السفلي، صوته وهو ينغلق، ثمّ البوابة الحديد. لا أسمع دعساته في الشارع.

العتمة في الخارج تبدّدها مصابيح الكهرباء. الجوّ هادئ، شبيه بالآحاد. الهواء يحرّك شجرات الحديقة بلطفٍ، فترتجف قليلاً، يردّ شعري إلى خلف.

تسبقهم أصواتهم، أعلم أنّهم وصلوا. أدخل. أتفقّد وجهي في المرآة، أثبّت خصل الشعر خلف أذني... تذوي حماستي، ما إن أسمع جرس الباب.

Twitter: @alqareah

أفرح بنجاحي. الطاقة تملأ جسمي. أفكّر بشيء مميّز أقوم به. لكنّ أوّل شيء يخطر ببالي هو زيارة جدّي. عندما رسبتُ لسنتين متتاليتين في الـ Economics ثمَّ في الـ Business، لم يقل شيئاً، طلب مني فقط ألاَّ أخبر جدّتي. يكفيها مرضها، قال.

فتاة تشبه كارولين تسير على مسافة مني. أُسرع. أسمع صوتها تتحدّث عبر الهاتف. لا ليست هي. صوتها مختلف، كذلك مشيتها. أدع المسافة تكبر بيننا. لا شيء سيفسد فرحتي اليوم، أفكّر.

أجلس على المقعد الخشب المواجه لملعب كرة القدم. يبتلّ بنطالي بنقاط مطر، لم تجفّفها الشمس. رعشة برد في جسمي. الشمس تحجبها فجأة غيوم كثيفة. الجوّ يصبح رماديّاً. ينقبض قلبي، يصغر، يصبح بحجم حبّة حمص، أفكّر بكارولين. منذ رأس السنة تبدّلت معي. لا أراها إلاَّ صدفة. لم أظنّ أنني قادر على افتقاد أحد على هذا النحو.

أقول: «أراكِ يوم السبت؟».

تردّ: «لا سأذهب عند أهلي هذا الأسبوع».

Twitter: @alqareah

أقول: «أراك الاثنين، أو الثلاثاء، ما رأيك؟».

تجيب: «ربما... لا، تذكّرت لديّ امتحان...».

الحجج كثيرة. النتيجة واحدة. لا أراها إلاّ حين تخرج مع رفاقٍ لنا إلى السينما أو إلى ملهى ليلي. أسألها إن كانت زعلانة مني. تتعجب وتُنكر الأمر ضاحكةً.

الشمس تعود. الضوء يشعّ حولي. الحركة موصولة. بعد الظهر لن يكون هناك أحد. الكلّ تقريباً يزور أهله في عطلة الأسبوع. الحركة اليوم سببها النتائج. أتخيّل جدي معبّراً عن فرحه. أختار له مواقف وعبارات لا تشبهه، أستعيرها من أفلام شاهدتها. يضحكني بعضها.

ماذا لو أتصل بكارولين؟ قبل أن يكتمل الرقم أبدّل رأيي. لا أريد أن أسمعها تقول: «أخابرك بعد قليل، أنا الآن مشغولة..».

في ظلّ الأشجار العالية، أمشي. يتضاعف هنا الإحساس بالبرد والريح. أفكّر بأكل شيء ما في الكافيتريا. أردّد لنفسي إنني سعيد، لا شيء سيفسد رغبتي في الاحتفال. مشاريع أخطّط لها. بعضها يسقط بسرعة، أو يبهت ما إن أصوغه واضحاً في رأسي.

أختار في الكافيتريا صحن تبولة، وسندويش دجاج مع كبيس خيار وكولا باردة. وجبة لا تناسب جوعي الكبير. أندم وأنا سائر نحو طاولة فارغة في أقصى اليمين. كان بإمكاني التفتيش عن طارق والذهاب معه عند Scoozi: نأكل بيتزا ونشرب نبيذاً أحمر. آكل مفكّراً بما سأفعله في بقية نهاري. لا أنتبه لرلى تبعد الكرسي لتجلس معي. تحمل كوب شاي وكتاباً.

Twitter: @alqareah

ـ هل تنتظر أحداً؟ تسألني.

ـ لا. أبداً.

تفتح كتابها، ترشف الشاي بجرعات متتالية، لا ترفع بصرها نحوي ولو مرّة، كأنني غير موجود. الحامض كثير في التبولة. البندورة قليلة. الدجاج لا بأس به، ليته كان ساخناً أكثر. أتأمّل رلى تدخّن سيجارتها، كأنّها تريد مجّها دفعة واحدة. الرماد يسقط بين صفحتي الكتاب. لا تنفضه، تقلب الصفحة، تكمل القراءة لا ترى المنفضة التي أقرّبها منها. شفتاها جافتان، تحدثان صوتاً كلما حركتهما. لونهما مائل إلى الأزرق. يدها ترتعش باستمرار. تنفث الدخان من فمها فيغشى عينيّ، أسعل ثمّ أستقيم في جلوسي، مشيحاً وجهي بعيداً عن مرماها. عددٌ كبير من الطاولات، لا يجلس إليه أحد. فَلِم تختار طاولتي، أكاد لا أعرفها. كم مرة التقينا؟ ثلاث، أربع مرّات؟ كم عبارة تبادلنا؟ حتّى علاقتها بعامر لم تدم أكثر من شهر.

ترفع رأسها. حول عينيها هالات سوداء قاتمة. تنظر إلى علبة المارلبورو الفارغة أمامها تجعكها في قبضتها، ترميها في صينية الطعام أمامي. تمدّ يدها إلى علبتي، تسحب سيجارة منها، تأخذ مجة طويلة، كأنها سجينة محرومة من التدخين تشعل أول سيجارة بعد شهور. أشعل سيجارة بدوري. أدخنها مسترقاً السمع إلى حديث يجري على طاولة قريبة.

أنهض دون توديعها. ما إن أدير ظهري حتى تناديني: - Sorry Sorry. يبدو أنّها لا تذكر اسمي. تريد بضع سجائر إن كان الأمر لا يزعجني، تقول.

Twitter: @alqareah

أترك لها العلبة وأخرج.

أتمشّى في بلس متفادياً برك الماء. أقفز كأرنب فرح. أدندن بصوت مسموع. أكرّر لحن أغنية، للنرڤانا، لم أسمعها منذ زمن.

Here we are now
entertain us
I feel stupid and contagous(*).

أتذكّر الأغاني التي أحببتها ما بين الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري. Nothing Else Matters للـ METTALICA. لماذا لم أعد أتسمّع إليها؟ لا أدري. أغنيها، أعجز عن ضبط اللحن الصحيح. كان الفرح أسهل. لا أحبّ الآن إلاّ القليل مما أسمع. من بين عشرات الأفلام، يعجبني أحدها أو لا شيء البتة. كنّا حين نخطّط للذهاب إلى مرقص، نمتلئ حماسة. نضجر الآن قبل أن نعبر الباب. ثمّ نقضي الليل متنقلين من مكان إلى آخر. نقول كان المطعم أحسن أو الملهى أفضل، لم يعد على حاله. نلقي اللوم على روّاد المكان، على الطعام، على نوع الموسيقى، على التعب.

شقتي أيضاً كانت أجمل. لما انتقلتُ إليها، لم أنم في الأيّام الأولى، أنهض من عمق أحلامي، أتجوّل في أرجائها غير مصدّق أنني وحدي، أفعل ما أشاء. أحبّ كل ركن فيها. لا شيء يضاهيها.

الآن تضيع بين آلاف الشقق الممتدة حولها.

أمرّ بمقهى. كان بيتاً قديماً جميل العمارة. أفكّر «عليّ أن أدخل إليه ذات يوم». أنظر إلى باحته، إلى بركة الماء والنافورة. البلاط مزركش بالأزرق والبرتقالي. طاولات رخامية لها النقوش نفسها،

(*) الآن نحن هنا، رفّه عنا، أشعر أنني أحمق وموبوء.

Twitter: @alqareah

تتوزع متباعدة، حولها كراسٍ من قصب أزرق. لا أحد أبداً. المكان خاوٍ. الهواء يطرق ظلّة تمتدّ فوق الباحة. يخطر لي أن أتوجّه صعوداً باتجاه الشارع الرئيسي في الحمرا. سأذهب إلى ستارباكس. سأجد رفاقي، وإن لم أجد. أتصفّح المجلاّت، آكل قطعة كاتوه، أو أشرب شوكولا ساخنة.

مطرٌ خفيف يدفعني إلى الإسراع. المطر يقوى. السيارات المارة ترشّني بالمطر الموحل. أمسح حذائي بمحرمة، لكن ماذا أفعل بأسفل بنطالي. ليتني ركبتُ سيارتي.

Twitter: @alqareah

لا يفاجأ جدّي بقدومي. يبتسم لي، كأنني هنا، أعبر من غرفة إلى أخرى. قبالة التلفزيون يشرب كأس ويسكي مخلوطة بمياه غازية. تسألني سيبالي، الخادمة، هل أرغب في شرب شيء. أطلب كوب قهوة.

أجلس قربه. يستمرّ في مشاهدة فيلم، بطله كلب شارد. القهوة الممزوجة بحبّات الهال تثير الغثيان في معدتي. أترك الكوب بعد أوّل رشفة. أخلع كنزتي. أبقى في القميص. التدفئة خانقة في البيت.

الرواق بمصابيحه النيون غارقٌ في الهدوء. أصوات التلفزيون وقرقعة الأواني في المطبخ بعيدة عنه. أشتمّ فقط روائح التوابل والبصل والثوم. عشاء سيالي. أغسل وجهي بمياه باردة. أعرج على غرفتي. أفتح خزانتي. ثياب قديمة، ما تزال معلّقة، مغلّفة كلّها بالنايلون. رائحة خزامى تفوح من رفوفها. طبقة سميكة من الغبار تعلو شرائط الموسيقى في مكتبتي. لا أحد يمسح عنها الغبار بعد وفاة جدّتي. أسحب معطفاً عن العلاقة. أجرّبه أمام المرآة. كيف لم أعد أرتديه؟ سآخذه معي. أتذكّر رسوم طارق التي أرتدي فيها معطفاً

Twitter: @alqareah

دائماً. يسميني Coat Man. في الصف يختار المقاعد الخلفية، يرسم الطلاب، الأساتذة، يضخّم الملامح البارزة في الشخص كأذنيّ عامر الكبيرتين، وأسنان نديم الناتئة أو معطفي الذي لا يفارقني. صيفاً يرسم الجميع في الشورت والقمصان الخفيفة، أمّا أنا فبالمعطف دائماً. يرسم قصصاً كاريكاتورية طريفة، عن إخوته وعائلته، عن الشلّة، عمّا يجري في الصفوف.

أجلس على سريري. أنظر إلى الصور. علّقتها جدّتي فوق مكتبي. كلّها لي في مختلف أعماري، ما عدا صورة والديّ. إنّها صورة مأخوذة من زفافهما. معظم الأشياء في غرفتي نسيتها. لا أذكر مثلاً هذه الآنية الصينية الموضوعة يمين المرآة. هذه الكنبة، لون قماشها في مخيّلتي أزرق، ليس أصفر. السجادة فوق الجدار، هل كانت هنا منذ البدء؟ أيعقل أنني لم أرها طوال سنوات؟

تدخل سيبالي، تقول إن جدّي يناديني. أحمل معطفي. سأرحل بعد أن يكلّمني. الكأس فارغة أمامه. كأنّ شيئاً ينوص في داخلي. الفرح ومضة تختفي دون أثر.

يقول إنّ شخصاً قدم إليه ليسأله عن بيت والديّ، يريد شراءه. استشار جدّي المحامي ووكالة للسمسرة. علم أن السعر جيّد. لكنّ الأمر عائد لي. يردف وهو يعقد حزام مبذله: «تعلم، البيت كان يعني لجدّتك. بعد موتها، القرار قرارك».

ـ سأفكّر بالأمر. أقول.

ـ إذا تريد بيعه، أبلغني. هناك الأثاث. هناك أشياء ربّما تريد الاحتفاظ ببعضها، أو رميها. المهمّ أن تقول لي ما نويته. لا تنسَ.

Twitter: @alqareah

يسير معي حتى باب المدخل. يده تضغط كتفي. أزيز المصعد يتسلّق الطوابق ببطء. يقول جدّي إنّه نسي شيئاً، أفتح باب المصعد منتظراً. يعطيني شيكاً من عمّتي، أضعه في جيبي دون النظر إليه. يقول:

«إنّها هدية رأس السنة، لكن لم أرك في حينها».

أضع إسطوانة لـ Pink Floyd، أرفع الصوت، أغنّي:

We are two lost souls swimming in a fish bowl year after year.

الساعة لم تتجاوز الثامنة، أنظر إلى هاتفي، لم يتصل بي أحد. أين هم؟ ماذا سأفعل وحدي؟ لن أعود إلى البيت في هذا الوقت المبكّر.

اتصل بكارولين، تعجبها فكرة الخروج. تتحمّس أكثر مني. لديها صديقة تنام عندها. لم تعرف كيف تسليها. تقترح السهر في Atlantics. أقول أنني غادرتُ شارع مونو لتوي. نتفق على أن نأكل ثمّ نسهر في Kalinka، الليلة ستعزف فرقة Kordz.

الأمطار تصبّ قوية على معدن السيارة. أسمعها مختلطة بالموسيقى. السير خفيف. أتوقّف عند مدخل البناية. أنتظر لأكثر من ثلث ساعة قبل أن تظهر كارولين وصديقتها. تسألني ما إن تجلس على المقعد قربي:

«وحدك، ليس معك أحد؟».

تقولها بعتب، ثمَّ تعرّفني بدارين، رفيقتها من أيام المدرسة. جاءت تقضي عندها نهاية الأسبوع. طالبة في جامعة اللويزة. لم أرها جيّداً بسبب الضوء الخفيف.

Twitter: @alqareah

أتصل بنديم، بعامر. لا أجد من يأتي معنا إلاّ طارق.

في المطعم أنتبه إلى أنّ كارولين قصّت شعرها. أثني على القَصّة. تردّ بلوم: «جيّد، أنّك لاحظت أخيراً».

أحسّ ثقلاً في الجو. رغم الجهود التي أبذلها. دارين لا تنطق إلاّ بكلمات قليلة محصورة بطبق السباغيتي الذي ستأكله. طارق مستلق على كرسيه. يخربش على محارم المطعم وجوهاً، ورسماتٍ كالمنمنمات. يسأل دارين سؤالاً واحداً: ماذا تفعلين في الجامعة.

تردّ: إدارة فنادق.

نسكت متأمّلين وجوهنا المرسومة على الزجاج المحاذي.

بعد النبيذ. يتبدّل الجوّ. طارق يشرح لها ما يرسم، يدلّها على النادل، علينا، على الجالسين حولنا. تنقّل دارين بصرها بين الرسوم والوجوه الحقيقية وتضحك. كارولين تخبرني عن المعدل العالي الذي حصلت عليه. عن فيلم **Moulin rouge**. شاهدته بعد الظهر مع دارين. لم يعجبها تقول أحبّت الألوان. المشاهد، الأزياء. القصة سخيفة. أسألها عن الموسيقى. تقول إنّها أحبّتها. الألحان مألوفة، الكلّ يعرفها، يسهل الانسجام معها.

في **Kalinka** نلتقي برلى، بأقارب كارولين، برفيقين كانا معي في الليسيه. أحدهما سمير يدرس في كندا. الثاني أنسى اسمه، أكتفي بالتربيت على كتفه والترحيب به. لطفٌ سببه المشروب.

عند الثانية والربع نكون تقريباً أوّل المغادرين. كارولين تشعر بالنعاس والتعب، كذلك أنا. أحسّ ببعض السكر. البرد والهواء يزيدانه قوّة. جيّد أنني لن أقود مسافة طويلة، من الكونكورد إلى

Twitter: @alqareah

جان دارك وبلس. أنسى طارق بينما أرسم الطريق في رأسي. بيته في كورنيش المزرعة. حركاتي بطيئة حذرة. أوازن مشيتي. خلف المقود، أتنبّه فجأة. تسند كارولين رأسها إلى الباب. تغفو في أقلّ من ثانية. في المرآة أرى طارق يحضن دارين بذراعيه. أخفي دهشتي متظاهراً بعدم الانتباه. أتساءل في سري، متى حصل هذا التقارب. لم ألحظ شيئاً طوال السهرة. أسمع الآن همسهما، ضحكاتهما، المخنوقة.

أتلّفت ناحية كارولين. تبدو أصغر وهي نائمة كأنها في العاشرة من عمرها.

Twitter: @alqareah

أوّل يوم عطلة. أستيقظ عند الواحدة والربع ظهراً. يدخل نور أصفر من تخاريم الستائر البيضاء. أبقى مستلقياً. لا أجد أغنية أسمعها على الراديو. أتنقّل بين الإذاعات، لا شيء. في الحمام أخطّط ليومي. لا أتحمّس لأي مشروع. بعض رفاقي في فاريا، يتزلّجون. كارولين عند أهلها في غزير.

لا تخطر ببالي كثيراً مؤخّراً. نتباعد تدريجيّاً. أشتاق إليها أحياناً.

أشتري كوب نسكافيه مقابل بوابة الجامعة. لا ألتقي إلاّ ببعض الأساتذة. مبنى النيومنز فارغ، لا صوت فيه. أستبعد أن أجد جوزيف. فلِم سيبقى في العطلة هنا. أجد باب غرفته مشرّعاً. أطلّ برأسي من الباب حذراً. أراه واقفاً على الشرفة مقابل مدرسة الآي سي. أفكّر بالعودة أدراجي. آتي إليه متأكّداً أنّه ليس هنا. أن أجده أمرٌ يربكني. يلتفت نحوي كأنّه أحسّ بوجودي، يصعب عليّ التراجع. أقف قربه.

ـ البحر جميل اليوم كما في الصيف، يقول، هل تشرب شاياً؟

Twitter: @alqareah

ـ لِم لا؟

نجلس على الشرفة رغم الهواء البارد.

أضع فنجاني على حافة الدرابزين. مذاقه حلو جداً. أتساءل كم ملعقة سكر وضع فيه.

ـ رأيت كابوساً غريباً. كنتُ في وسط المدينة. آكل عرنوس ذرة. في لحظةٍ ينقلب إلى باغيت فيها بطاطا مقلية ولحم. زيت يقطر منها، يلوّث ثيابي. المارّة يحدّقون بي، استمرّ دون إرادة مني في أكلها والباغيت تزداد طولاً.

ـ جميل أكل الباغيت. لِم هو كابوس؟ أسأله.

ـ كابوس لأنني لا آكل اللحم منذ سنتين، تذكر قصّة جنون البقر. البطاطا المقلية والباغيت والنشويات تسبّب السرطان. ألم تقرأ الخبر؟ نُشر في الصحف. تأكّدت فيما بعد أنّه صادر عن أبحاث جدية في السويد.

ـ هل تصدّق كلّ ما تسمع وتقرأ. أنا لا أفكّر بهذه الأمور.

ـ أن لا تفكر بها لا يعني أنّها غير موجودة وغير صحيحة.

ـ أنا مثل الناس. لِم أكون مختلفاً. الجميع يأكل هذه الأشياء. ما رأيك الآن أن نخرج ونأكل. جوّعني كابوسك.

أمام باب غرفته أنتظره، فيما يغسل يديه. إنها المرة الثالثة في أقلّ من أربعين دقيقة. الطبّ خبل عقله. أفكّر.

في المطعم، نلتقي برلى تجلس مع شلّة كبيرة. أتظاهر بعدم رؤيتها.

Twitter: @alqareah

ما إن تلمحنا حتى تهرع نحونا. تقبّل جوزيف، تصافحني دون كلام.

ـ تخيّل يا رجل لا تعرف اسمي، أقول لجوزيف ما إن نجلس. في الكافيتريا جلست معي، لم تكلّمني. عندما أردت الرحيل، أخذت مني علبة سجائري.

ـ لا أنتَ لا تعرفها جيّداً. فتاة حبوبة. وليست تافهة أبداً.

ـ ما همي؟ كلّ ما في الأمر أنني أجدها بلا ذوق وبلا أدب.

ـ لماذا تنفعل، الأمر لا يستحق.

تأتي مع النادل حاملة كأسها في يد، وحقيبتها وسجائرها في اليد الأخرى، يبعد لها جوزيف كرسياً لتجلس. أغضب بشدّة. أفقد إحساسي بالجوع.. تنظر نحوي يعينين فيهما حول. تسألني: «كيف حالك رجا. شكراً على علبة السجائر، في المرة السابقة. في الكافيتريا». نطلب قنينة نبيذ. نشرب ثلاثتنا. تغادر شلّة أصحابها، تلّوح لها من بعيد مودّعة. ألاحظ أنّها تشرب بسرعة. تتحدّث مع جوزيف عن رفيق لهما يدعى حمزة. القصص التي يسردانها عنه طريفة. كلّها تدور حول نسيانه. يركن سيارته مثلاً في محيط الجامعة وينسى مكانها. يشتري أغراضاً، يتركها في المتجر. لا يتذكّرها إلاّ في اليوم التالي. لا يحفظ مواعيد امتحاناته. مرّة ذهب بعد الظهر لتقديم امتحان أُجري صباحاً.

يداوم جوزيف على الذهاب إلى الحمام. لو ارتدى قفازات لسهل عليه العيش أكثر.

يداها لا تكفّان عن الحركة. مشغولتان بالسيجارة أو بالكأس،

Twitter: @alqareah

أو بالخاتم في إصبعها، تضعه ثمّ تنتزعه أو تعيد وضعه في إصبع أخرى. تحوّل المحارم إلى نتف، تحرقها بطرف السيجارة في المنفضة. المنديل الزهري الذي تربطه حول عنقها لا يخفّف من شحوب وجهها.

يتلاشى حذري منها، أراها لطيفة حقاً. تضع يدها فوق يدي كلّما أرادت إشراكي في الحديث، تقول: «إسمع إسمع..».

نسكت ما إن يغادرنا جوزيف إلى الحمام.

أطلب بفتاكاً وبطاطا مقلية وسلطة وقنينة نبيذ. هما لا يريدان الأكل يقولان. لكن رلى تروح تأكل من طبقي مستعملة شوكتي. أكبت ضحكتي. أخشى أن أعطيها شوكة أخرى، فتظنّ أنني منزعج. رغم حركتها التي لا تهدأ، تبدو لي في عالم آخر. كأنني أراها للمرّة الأولى. أعتاد الهالات السوداء حول عينيها. غمزة لاإرادية تحرّك طرف عينها اليسرى. أصابعها رفيعة جداً، العروق الزرقاء نافرة في كفيها. نتحدّث عن أفلام شاهدناها، عن نتائج الفصل، تسألني عن عمري. تقول إنني أبدو أكبر. أعلم أنها طالبة في الأدب الإنكليزي، في السنة الثالثة.

الهواء يهبّ ناحية البحر بارداً. المقهى يفرغ من روّاده تدريجياً، بعضهم يترك طاولته، يفضّل الجلوس في القاعة الزجاجية المقفلة.

الموج يلطم جدار المقهى بعنف. يرشنا برذاذه رغم بعدنا عنه. تشبك يديها. تفركهما تقول إنّها بردت كثيراً. أنظر إلى كنزة الصوف الرقيقة التي ترتديها. أناولها معطفي. تتدثر به بفرح. لا نغادر إلاّ أوّل العتمة. أوقف السيارة في مرآب البناية. فيرافقانني إلى البيت.

Twitter: @alqareah

تبدو لي صلبة أكثر احتمالاً للمشروب مني. إنها كجوزيف. أمّا أنا فيعصى عليّ دائماً معرفة متى أتوقّف. أكمل دائماً. أنسى أن فرحي سيتراجع ويخبو ما إن تبدأ آلام الصداع والغثيان والتقيؤ.

لا أدري كيف تبعثر أشرطتي وإسطواناتي بهذه السرعة. ترمي مساند ووسائد الكنبة فوق الموكيت. ترتمي فوقها. تدعونا إلى الجلوس أرضاً مثلها. رماد سجائرها منثور حول المنفضة. منديلها تفكّه وترميه غير مهتمة أين يحطّ. كذلك تفعل بحذائها وجواربها. تحرّك أصابع قدميها بمرونة كأنها راقصة باليه.

أكره الفوضى كثيراً. لكنني اليوم أنظر إلى كلّ ذلك مبتسماً.

تعود من المطبخ بصينية عليها ثلاث قناني بيرة، وجبنة بلغارية وجومبون ملفوف بورق النايلون. أفكّر كيف ستأكل دون صحون أو خبز. أضع بعض البندورة والخيار والكبيس والزيتون.

جوزيف يكتفي بالبندورة وبضع حبّات من الزيتون. أتأمّل أصابعها الرفيعة تقطع الجبنة. السكين يحدث صوتاً موقعاً وهو يضرب بالصحن، أسمع البيرة تقرقر وهي تنزل في جوفنا.

جوزيف يتأرجح فوق الكرسي الهزّاز مغنيّاً مع BRUCE SPRINGTEEN. أفكّر أنّ صوته شجيّ.

Twitter: @alqareah

أخابر جدّي. أبلغه إنني لا أريد بيع البيت. لا يعلّق على الأمر كأنني لم أقل شيئاً. يقول إنّه سيذهب إلى بيت ضهور الشوير.

ـ في طقسٍ كهذا؟ أسأله.

استغرب الأمر، إذ أذكر خلافاته مع جدّتي بشأن الجبل. نحن نصطاف. هو يبقى في بيروت. يزورنا في نهاية الأسبوع. يتحجّج بالعيادة والمرضى.

الآن سيقصد الجبل في عزّ الشتاء! أقفل السماعة. أتساءل لِم لا أبيع بيت والديّ؟ أطرح السؤال بطريقة معاكسة: لِمَ أبيعه؟ لا أعرف سبباً.

البيت من داخله لا أذكره تماماً. منذ التاسعة من عمري لم أزره. كانت جدّتي تصطحبني إليه كلّ خمسة عشر يوماً. تنتظر حين تنتهي الخادمة من تنظيفه. ثمّ تتمشّى معي بعد الظهر. لا يبعد عن بيت جدّي إلاّ بضع دقائق.

نحمل معنا كاتوه محشواً بالزبيب أو قطايف بجوز كما يحبّها والدي، تقول. تتفقّد نظافة الغرف، الثياب، الأواني والتحف، الثريات. لا شيء يفوتها حتى ظهر الخزائن. لكن أكثر ما يحيّرني

Twitter: @alqareah

هو إصرارها على فرش السجاد شتاء ثمَّ توضيبه صيفاً. لا أجرؤ على إبداء دهشتي.

قبل مغادرتنا البيت، تغطي الخادمة الأثاث بقماش أبيض. تخشى جدتي أن تبهت ألوانه، وتخشى الغبار. زيارة البيت أمر مسلمٌ به. لم يخطر لي التمرّد عليه إلاّ بعد التاسعة. تمسك جدّتي بإطارات الصور واحداً واحداً. تركّز نظاراتها فوق أنفها. تدقّق في الوجوه كأنّها ستشيخ من زيارة إلى أخرى. تحكي عن أبي، شارل. لا تذكر أمي سهيلة إلاّ في ما ندر. تقول: «أمك سهيلة». لا تسميها سالي كما يفعل الجميع. ورثت ملامح وجهي عن أمّي. جدّتي تدّعي أنني صورة طبق الأصل عن والدي. الفرق الوحيد هو لون البشرة. أنا أسمر، هو أشقر. أحياناً، آتي بدراجتي. أركبها فوق الشرفة العريضة. تصرخ بي جدّتي عندما أدوّس مصطدماً بالأحواض. مساحة الشرفة تضاهي مساحة البيت. الأحواض زرعت بالزهور المعربشة. تبدو من بعيد كحقل معلق بالفضاء. الدرابزين لا يبين من حديده شيء.

الآن، لا أثر لأي نبتة. أزيلت الأحواض بعد إصابة الشرفة بقذيفة هاون. أصرت جدّتي على إعادة بنائها كما كانت. البلاط نفسه والحديد المطروق. خلال حروب التحرير والإلغاء، امتنعنا عن زيارة البيت لفترة طويلة. ينشغل بال جدّتي كأنها تركت فيه أحبّة، لا أثاثاً مغطى بالأبيض.

حين تتساءل: ترى ماذا حلّ بالبيت؟ يبدّل جدّي الحديث. بعد عودة الهدوء وعودتنا من قبرص، استعادت جدتي موعيد زياراتها. وحدها هذه المرّة.

Twitter: @alqareah

لم تطرأ على الحي تغييرات كثيرة، أمرّ به، عندما نقصد حانة Bongos. البيوت الملاصقة والمواجهة لم تتبدّل. ما تغيّر هو الطابق أسفل بيت أهلي. بيع وتحوّل إلى مطعم. المصابيح المغروسة في حديقته من زجاج شفافٍ ملوّن. يلفت النظر من بعيد. الأعمال لم تنتهِ بعد. لا توجد لافتة باسم المطعم.

كانت صاحبة هذا البيت تناديني. أنزل عن دراجتي. أقترب منها بحذر. تناولني حلوى أو شوكولا أو سكاكر. تقول: كم كبرت. تشبه أمّك سالي تماماً.

في البيت المواجه، الناحية الأخرى من الطريق، امرأة عجوز. تتسمّر لساعات خلف زجاج نافذتها. تحملق في المارة. أقول لجدّتي إنّها تخيفني. تنصحني ألا ألتفت ناحيتهم.

منذ شهور، رأيتُ العجوز نفسها تقف في مكانها المعهود. تنظر بنفس الثبات. أشعر بالرعب القديم نفسه.

التقيت عامر مرّة واحدة بعد رأس السنة. جاء وحده دون مونيك. سألني أن نتجوّل بالسيّارة ونشرب بيرة. لم نتكلّم كثيراً. انطفأنا ونعسنا بعد أقلّ من ساعة. نتفّق على أن نتهاتف. أحسّ حاجزاً يقوم بيني وبين عامر، صديق طفولتي. أجده مختلفاً منذ فترة. هل مونيك هي السبب؟ لا أدري. علاقاته السابقة لم تؤثر بي. الآن يتبدّل في كلّ ما يفعل.

مؤخّراً، أرى طارق وجوزيف. نذهب عند Virgin نستمع إلى الإسطوانات الجديدة. أشتري بعضها. جوزيف يمتنع عن وضع سمّاعات الأذن. يقول:

Twitter: @alqareah

ـ هل تعرف عدد الذين يحشرونها فوق رؤوسهم، ويلوّثونها بالجراثيم؟ طارق يموت ضحكاً. يظنّها نكتة ساخرة من طلاب الطب. لا ينتبه لجدية جوزيف.

تزورني رلى أحياناً. أوقات زياراتها غريبة. باكراً، عند الصباح أو بعد الحادية عشرة ليلاً. كأني أتعرّف في كلّ مرة على إنسانة أخرى. أحبّ النظر إليها. إلى قميصها يرتجف ناحية قلبها. إلى غمزة عينها المتعبّة. أحبّ أن اعتبرها إرادية ومقصودة كأنّها غمزة تواطؤ بيننا. أتأمّل أصابعها الرفيعة. العرق النابض في رقبتها. كأنها قصبة، قد تقصفها أيّة هبّة ريح. قد تدخل لتجلس فوق الموكيت. تدخّن، دون أن تنطق بكلمة. في مرّة أخرى تميتني ضحكاً. تتكلّم لساعات دون توقّف. في كل ما تحكيه، لا أعرف عنها شيئاً. لا أين تسكن. هل لديها أخوة. ماذا يفعل والداها. أي المعلومات التي نتبادلها في تعرّفنا بأي شخص. ما أعرفه عنها. أكتشفه بنفسي. تحبّ القراءة. هي لم تخبرني. أعلم ذلك بسبب الكتب التي تحملها معها. تشرب في أي وقت من النهار. تسألني إن كان عندي مشروب لحظة دخولها من الباب. أنا أيضاً، لم أخبرها أي شيء عني. ليس لأنني لا أريد. بطريقة ما ترسم حدوداً يصعب عليّ تخطيها. تسيّر الحديث في الوجهة التي تريد.

لا أعرف سر تعبها الشديد. أذكر عندما أسندت رأسها إلى الكنبة العريضة. المنفضة قربها فوق الموكيت وكأس ڤودكا مع ثلج. هي على الأرض. أنا على الكنبة الصغيرة. لا أجرؤ على سؤالها أي شيء. الوقت ينقضي. أرغب فيها بشدّة. كأن جسمي سينفجر. رأسها وشعرها الطويل على مقربة مني. لو ألامسه. رقبتها المحنية

Twitter: @alqareah

تشعرني بضعفها. كأنها صغيرة. لا أدري كيف وجدت نفسي يوماً بعد آخر، أنتظرها. أطيل مكوثي في البيت.

تنتهي العطلة. لا أتغيّب عن أي من صفوفي. التقي بكارولين أحياناً. نتكلّم في أشياء بلا معنى. أنسى ما قلناه ما إن أمشي.

الصفوف تضجرني. أشعر فجأةً كأنني كبير جداً. معظم من في صفي في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة.

أشكو لطارق سأمي من قراءة مواد بلا طعم. يقول: كل الدروس بغيضة.

ـ على الأقل لديك ما تحبّه. لو كنت مكانك لتسجلت في الـ Graphic Design.

ـ قلْ ذلك لأبي، لا يصدّق أنني قد أرسب هذه السنة أيضاً في Computer Science.

ـ لِم لا تخبره بما تحبّ.

ـ ما بك يا رجا. تكلّمني كأنك كائن من الفضاء. كيف أقنعه باختصاص يظنّه مضيعة وقت. لم يسمع به بحياته. فوق ذلك يعيّرني الآن بشطارة الست أختي.

ـ اللّه رحمني، لا من يعيّرني، ولا من يختار بدلاً مني.

ـ أنت يا أخي، غير دارٍ بنعمتك.

يضيف إنه تعب من الجدل المتواصل مع أبيه. يخطر له أن يتسجّل في الجامعة اللبنانية ليرتاح من جميل والده.

الشتاء طويل هذه السنة. الأمطار الغزيرة تزداد عنفاً. تستمرّ

Twitter: @alqareah

لأيام. لم أقد سيارتي منذ أيام. لا أرغب في الذهاب إلى أي مكان.

أحياناً تداهمنا العتمة ونحن في الصفوف. ليلاً أجلس قبالة التلفزيون لساعات. أشاهد مسلسلات مضجرة، أفلاماً تافهة، كليبات أغانٍ، أو أقلّب المحطات فقط.

أفكّر برلى. أقول ليتها تطرق بابي الآن. لا يهمّ، بعد منتصف الليل، عند الفجر. المهمّ أن تأتي.

Twitter: @alqareah

أتعمّد المرور بالكافيتريا. لا أجد رلى هناك. لم أرها منذ عشرة أيّام. أزور جوزيف. أتحايل ذاكراً اسمها: «رلى أخبرتني. . . . ، رلى فعلت كذلك».

قد يقول إنه التقى بها. أو يخبر شيئاً عنها. يضيق صدري من محاولاتي العبثية. أغادره منهكاً. أعود في اليوم التالي لزيارته. لِم لا أسأله عنها مباشرة؟ أتردّد طويلاً ولا أفعل. أحلم بلقاء مختلف مع رلى. في سري أحادثها طويلاً. في الصفوف لا أسمع شيئاً. أنشغل بوضع صيغ مختلفة لأحاديثنا. سأشتري لها هدية أفكّر. لكن ماذا أشتري، قميصاً؟ أيّ أبله أنا. إسطوانة؟ ماذا لو أخترت واحدة لا تعجبها؟ لا أدري أي نوع من الموسيقى تحبّ Classic Rock أم Trip Hop أم Dark Wave أم Heavy Metal. قد لا تطيق كلّ ذلك أيضاً. أتذكّر الإسطوانات التي تسمعها عندي. معظمها من اختياري. فكيف أحرز؟ الكتاب، ربما فكرة لا بأس بها.

أقصد مكتبة أنطوان. أسأل موظفة الصندوق عن الروايات. تدلّني على الطابق السفلي. كتب كثيرة فوق الرفوف. عناوين أتوه

Twitter: @alqareah

بينها. كيف أعرف ما اختاره. أقرأ على الغلاف. أضيع أكثر. تسألني الموظّفة إن كنتُ بحاجة لمساعدة، أو إنني أبحث عن عنوان محدّد؟ أقول: «أريد شراء هدية». تريني كتباً صدرت حديثاً. تمدّها نحوي واحداً تلو الآخر. عندما تلحظ حيرتي، تشير إلى الكتب المعروضة فوق الطاولات. أتظاهر بقراءة العناوين وأسماء المؤلّفين باهتمام. كيف يعرف الناس الكتب الجيدة من غيرها؟ الإسطوانات سهل اختيارها. نسمعها. إن أعجبتنا نشتريها. الكتب هل يقرأونها ليعرفوا؟ كلّ هذا الوقت الضائع. أتذكّر الكتب المقرّرة في المدرسة. النوم بعد أوّل صفحة. القلة التي تتبرّع بسرد القصة قبل الامتحانات. لا أذكر أنني قرأت كتاباً بكامله. طبعاً باستثناء القصص المصوّرة في طفولتي.

رُلى تحبّ المشروب. على الأقلّ، هذا موضوع يسهل عليّ معرفته. أشتري لها كونياك كورڤوازيه أو نبيذ بوجوليه أو بوردو معتقاً. فيما أمشي نزولاً باتجاه بيتي، أتخلّى عن فكرة الهدية. أنشغل بخوفي من ألا أراها بعد اليوم. ماذا يحصل لي؟ أحبّها بالطبع. لم أحبّ أحداً على هذا النحو. كأن شيئاً يعصرني ليلاً نهاراً. ماذا لو لم تزرني. أهدئ نفسي مفكّراً أنّها طالبة وسوف تأتي على الأقل لتقديم الامتحانات. إن اضطررت، أسأل عامر عنها. سوف أخترع حجة ما. ماذا لو كان مثلي لا يعرف لا بيتها ولا أهلها. حتى اسمها كاملاً لا أعرفه رلى فقط. لكن جوزيف يعرف بالتأكيد.

ماذا لو كانت تحبّ أحداً. لِم لا تحكي عن نفسها أبداً.

يرن هاتفي مرّات قبل أن أسمعه. إنها عمتي. عادت من

Twitter: @alqareah

إيطاليا. تدعوني عند الثامنة والنصف للعشاء في Al Dente. اضطر للقبول. لا أجد مهرباً.

لم أرها منذ جنازة جدتي. في صغري كانت تأخذني لأنام عندها في الحازمية أو فاريا. أجد دائماً ألعاباً جديدة، وكُتباً مصوّرة بانتظاري. أطالبها بإرجاعي إلى البيت بعد أقلّ من يومين. مهما تفعل أشعر بالفراغ. أخشى التنقل من غرفة إلى أخرى. تعرّفني بأولاد أصحابها. لا آلفهم. ألعب معهم مراعاة لها. أجدهم مختلفين عن رفاقي في الليسيه. في أواخر الثمانينات، استقرت في باريس.

أرادت أن أعيش معها وأدرس هناك. تتصل بجدّتي، تقول إن المدارس في لبنان مقفلة لأجل لا يعلمه أحد. الحرب لن تنتهي. جدّتي لا تلين. تختار قبرص لنسافر إليها لا فرنسا، خلال حروب التحرير ثم الإلغاء. تريد جدّتي الابتعاد عن عمتي. سئمت إصرارها على استعارتي. لم أكن أحبّ زوج عمتي، هنري. الصغار يحسّون أكثر من غيرهم بمشاعر الآخرين نحوهم. كأنّه يرسل ذبذبات سلبية، تنفرني منه. أكره يده الرخوة تقرص خدي أو تلامس شعري. لم يكن يحبّني. يجامل عمتي فقط. لم تنجح عمتي بالإنجاب رغم العمليات. كما لم يوافقها هنري على تبني ولد. تطلّقا منذ ست سنوات. افتتحت بعدها صالة عرض قريباً من وزارة الخارجية. أقامت معارض لرسامين جدد وقدامى. بعد أقلّ من سنتين أغلقتها. تتاجر حالياً بالتحف. رغبتها في إسكاني عندها، أفسدت علاقتها بجدّتي. لكن جدّي استمرّ في تدليل عمتي كريستيل. يتصل بها حتى لو كانت في آخر الأرض، يستمع إلى مشاكلها في الزواج والطلاق والعمل. هي أيضاً تكتب له الرسائل بانتظام. جدّتي مثلي لا يصلها

Twitter: @alqareah

إلاّ بطاقات في مناسبة الأعياد. لا أفهم حتى الآن كيف يمكن لجدّتي أن تكون باردة العواطف تجاه ابنتها الوحيدة. جدي يقول إنهما متشابهتان، لذلك لا تتفقان. باستثناء الشكل، لا أجد شبهاً بينهما.

عمتي كريستيل عصبية. في حركة دائمة، تعبّر بعفوية عن أفكارها. عكس جدّتي. أهم صفة في الشخصية هي التحفظ والاتزان. أظنّ أن كره جدتي لهنري كان سبباً إضافياً لتباعدهما. تجده جدتي من أسرة وضيعة. لا تهمها ثروته ولا أملاكه. تقول عندما تغضب منه: ابن مراد صار يفهم الآن؟

هل يظنّ أن المال يشتري الأصول؟

ليت بإمكاني التهرّب من هذا الموعد. ماذا لو جاءت رلى في غيابي.

لم يدم عشاؤنا إلاّ لساعة وربع. أهدتني إسطوانة. قالت إنها أوبرا حديثة. وشالاً أزرق من تصميم أرماني. يعجبني الكشمير الناعم. سأهديه لرلى أفكّر. النبيذ يزيدني حزناً. لا أسمع عمتي تصف كوبا وإيطاليا وغيرها، انظر إلى ساعتي مراراً. أوصلها إلى بيت صديقتها في السيوفي.

أسألها عن مدّة إقامتها هنا. تقول، لا تدري. شهر أو أكثر أو أقلّ.

أقود مسرعاً. دوار في رأسي. كأنني شربت قنينتين لا كأسين. حلقي جاف. السيجارة تجرح حنجرتي اليابسة.

قبل وصولي إلى البيت، في نزلة الـ ABC، ألمح رلى برفقة أحدهم. أوقف السيّارة وسط الشارع. أنزل مخفياً اضطرابي. لا أنتبه

Twitter: @alqareah

إلى اسم رفيقها. لا أذكر أنني رأيته سابقاً. أدعوهما إلى بيتي. تقول إنّهما مشغولان، ربّما في مرة أخرى.

أقول: نشرب كأساً واحدة.

تلتفت إلى رفيقها. يقول: كما تشائين.

يطلبان Bloody Mary. تساعدني في إعدادهما (فودكا وعصير بندورة وثلج وصلصلة توباسكو وملح). معدتي خاوية تقول. لا تقبل أن أعدّ لها شيئاً. تكتفي بالزيتون والشيبس. هذه المرة الأولى التي تجلس فيها على الكنبة. يسألني رفيقها عن بدل إيجار شقتي. أخبره إنّ جدي اشتراها بعد أن باع واحدة كبيرة جداً في كاراكاس. يقول: موقع جيّد. لا بدّ إنّها غالية. أعرض عليهما كأساً ثانية. يرفضان، ثم ينهضان في الآن نفسه ويرحلان.

رؤيتها هكذا تؤلم كفراقها. أطفئ الموسيقى. أفتح التلفزيون. أريد أن أرى أناساً يتكلّمون، يتخرّكون. أريد أن أطفئ رأسي، أن أعطله. لا أقوى على الجلوس لوقت طويل. أمشي بين الغرف. أخرج إلى الشرفة. هواء بارد في الليل.

من هو؟ إلى أين تذهب برفقته؟ الساعة تجاوز الحادية عشرة. أنا أيضاً تزورني في أوقات كهذه. وماذا يعني ذلك؟ لا شيء. هل الوقت يحدّد نوع العلاقة. ما بالي أشبه الأهل. يمنعون أولادهم من العودة بعد منتصف الليل. كأنّ ثمة أشياء لا تحصل إلاّ بمواقيت متعارف عليها.

لا أقوى على البقاء في البيت. أرتدي معطفي. أتمشى دون هدف في الشوارع. أتأمّل مداخل البارات بأضوائها الحمراء. القطط

Twitter: @alqareah

تتجمع عشراتٍ حول المكبات. قريباً من حديقة الصنائع، يتمسك سكران بأسفل بنطالي.

أجفل، وانتفض مذعوراً. لم أره مستلقياً هكذا فوق الرصيف. رائحة الكحول تفوح من فمه. عند الرصيف المقابل أرى حانة. كبار في السن، يتكلّمون ويهزجون. رائحة عرق ومشاوٍ تفوح من المكان.

ليتني أضيع مثلهم وسط الضجيج والضحك.

Twitter: @alqareah

أحلم أنني في ملعب كرة قدم. مستطيل يتوزّع فيه لاعبون لا أعرفهم. أركض كأنني أطير. أقذف الكرة. أراوغ بها. يقع اللاعبون من حولي. يتساقطون ما إن اقترب. يتدحرجون بعيداً عني. الكرة جزء مني. تلتصق بقدمي. أسدّدها. أصيب المرمى. تهتزّ الشباك بقوّة. يحيطون بي، أنفذ من بينهم. أنقّل الكرة من قدم إلى أخرى. ستة أهداف، أحقّقها وحدي. أنا ملك العالم.

أحاول استرجاع الحلم. أغمض عينيّ. أرفع الغطاء فوق رأسي. لا أنام ثانية. يستمرّ شعور لذيذٌ، فقدته منذ السنة الثانوية الأولى. آخر سنة لعبتُ فيها. كرة القدم، الرياضة الوحيدة التي أحببتها. كلّمني أستاذ الرياضة لأنضمّ لفريق كرة السلّة. قال إنني طويل وسريع الحركة. تدريبات بسيطة وأصبح ماهراً. لم أقبل. بالنسبة إليَّ لعبة كرة السلّة تميت ضجراً.

كمشاهدٍ لا أتمكّن من متابعة مباراة واحدة. فكيف سأستمتع كلاعب؟ ليس فيها حوافز، ملعب صغير، ولاعبون يسجّلون الأهداف دون صعوبة. أين المتعة؟

كانت الحياة بسيطة، واضحة في رأسي. سأصبح لاعباً محترفاً.

Twitter: @alqareah

جدتي تضحك عندما أقول ذلك. لا تصدّقني. تغيظني ضحكتها. في غرفتي، أعلّق صور روماريو، بلاتيني، كلينسمان، قرب صور الفِرق والمطربين الذين أحبّهم.

الرياضة الثانية التي مارستها هي التزلّج. أقلعت عنها منذ سفر عمتي. هي من تصطحبني إلى شاليه فاريا. تتفّق مع مدرّب خصوصي لإعطائي الدروس. نقوم بالتدريبات في العطل الطويلة وأحياناً في نهايات الأسبوع. كانت تشبه المدرسة. لا أصدّق متى أنتهي منها. واجبٌ ثقيل ترغمني عليه عمّتي. تحرد جدّتي. تقول إنني سأمرض وتلتهب لوزتاي. تستشهد بالمرات التي أعود فيها من فاريا محموماً، غير قادر على الوقوف.

الحلم يشعرني بروعة نهاري. أبقى ممتلئاً به. لماذا لا أعاود اللعب. هناك مجموعة من الطلاب والخريجين يلعبون يوم السبت. رأيتهم أكثر من مرّة.

أقصد محلاً محاذياً لمحلات خوري. أشتري حذاء لكرة القدم. التخفيضات عليه خمسون بالمئة. أتذكّر الأحذية التي كنت أنتعلها. أوصي عمتي على شراء أحدث موديلاتها. ترسلها من فرنسا. يحسدني رفاقي عليها. يعلمون أنّها لن تصل إلى لبنان إلاّ بعد سنة على الأقل. بعد الظهر، نبقى في المدرسة. نتمرّن. أو نلعب ضد الصفوف الأخرى. جدّتي لا يعجبها أن أهمل دروسي. جدّي عكسها، يظنّ الرياضة مفيدة وضرورية في سني. تسأل جدّتي لِم لا أختار لعبة أفضل. الأفضل بالنسبة إليها هو التنس، كأولاد الجيران والأصحاب. قبل أن يصاب جدي بالتكلّس في رقبته، كان يلعب التنس مع صديقه جبران وزوجته عايدة.

Twitter: @alqareah

الحلم يخفّف عني أكثر مما تفعله الكؤوس التي أشربها، والرفاق الذين ألتقيهم. أنتظر عبثاً أن يستدرجني أحدهم للكلام. لست معتاداً على الكلام عن نفسي كما يفعلون. يخبرون عن أحلامهم الجنسية، عن نزواتهم، علاقاتهم بأدق التفاصيل. ربّما أنا عاجز عن المشاركة. هذا ما كانت تقوله معلماتي في الصفوف الابتدائية. يقلن لجدتي إنّهن لا يستغربن امتناعي عن المشاركة، ولا حذري أو عدم قدرتي على بناء صداقات، بما أنني وحيد ومدلّل. كلام يغضب جدتي. أنا أيضاً أعتبره ظالماً. هناك كثيرون ممن لديهم أخوة، لا يحبون مثلي ألعاب الفريق، ولا الأبحاث التي نقوم بها ضمن مجموعات.

لو يسألني أحدهم بإصرار، ما بي. ليسأل ما يريد. المهم أريد أن أحكي لأحد عن رلى. شعوري نحوها مستقل عنها. حتى لو كانت تحبّ مئة شخص وتنام مع ألف غيرهم، لا أملك أن أغيّر ذرة ممّا بي. أحبّها. حقيقة تشبه طلوع الشمس وغيابها. سواء التقيت بها أو غابت عن عيني. حبّ لا يتعب، لا يتوقّف. إن ذهبت إلى الصين وتزوّجت وأنجبت، لن يتبدّل شيء. إن امتنعت عن مكالمتي، أو أسمعتني كلاماً جارحاً مهيناً، أحبّها. لا أملك خياراً آخر. هل يملك العصفور ألا يطير؟ قدرٌ، لا أفكّر بمعاندته. هل أنفي أنّ لون عينيّ أسود؟ إذن كيف أهرب منها.

لا أعرف كيف أجدها. البارحة دخلت المكتبة لأوّل مرّة. لم أعرف كيف أبحث عن كتاب. موظّف المكتبة ساعدني. سألني عن الموضوع الذي أريده. أراني عناوين مختلفة على شاشة الكمبيوتر. اخترت أحدها عشوائياً. فتحت الكتاب. جلست على طاولة خلف

Twitter: @alqareah

أحد الأعمدة. المكان أليف. رلى تأتي إليه غالباً. ترى أية كتب قرأت؟ أحبّ أن تقع عيناي على الكلمات نفسها. أن تلامس يداي أغلفة وصفحات الكتب نفسها. تلاميذ قلائل في القاعة. عيناي تبحثان عن رلى. لا تجدانها.

بين درفتي الباب ورقة مطوية: «نحن ذاهبون لحضور فيلم «شوكولا» مساءً. إذا أردت القدوم معنا، اتصل بنا. لا تنسَ».

طارق..

أفكّر، من يقصد بنحن. الرسالة تبعث الأمل في نفسي. ماذا لو كانت رلى معهم. لكن طارق لا يعرفها. لكن إذا كان جوزيف معهم، فاحتمال أن ترافقهم رلى كبير. كيف يلتقيها جوزيف؟ أذرع الجامعة ذهاباً وإياباً، لا يحصل لي أن أراها. أتفقّد الكافيتريا كلّما استطعت، لا أجدها. أتسمّر عند مدخل مبنى الإنكليزي لا ألمحها. منذ يومين، كانت زيارتها لي مع رفيقها. يومان فقط، ما أطولهما!

أحضّر لنفسي سندويشاً من الجبنة والخسّ والبندورة. أسكب كوباً من البيرة المثلجة. آكل بينما أشاهد مسلسلاً كوميدياً. أتساءل ما المضحك. الأب يموت في ذبحة قلبية، الابن يندم لأنه لم يعترف لوالده كم يحبّه. أطفئه مفكراً بعدد الأفلام والمسلسلات التي رأيت فيها المشهد ذاته.

سأتصل بطارق. أقول إنني ذاهب معهم. لن أسأله من معنا. أقطع المخابرة إذا أحاول. لا أريد أن أفسد هدوئي.

بعد الظهر، اقترب من اللاعبين. أعمارهم تتراوح بين أواخر العشرينات وبداية الثلاثين. هم خريجون سابقون إذن. أقف جانباً.

Twitter: @alqareah

أتفرّج عليهم، يقومون بتمارين التحمية. يناديني أحدهم. يسألني اللعب معهم، عددهم قليل اليوم، يقول. يتصاعد لهاثي بعد أقل من خمس دقائق. وخز متواصل عند خاصرتي. أخفي تعبي. أكتم أنفاسي. أين ضاعت لياقتي. أركض كفيل ضخم. أجري خلف الكرة. العرق يغزو مسامي كلّها. يتصبّب من ظهري، تحت إبطي، من حاجبي. الكرة تفرّ مني. لا أتمكّن من الاحتفاظ بها لثانية. تواتيني الفرص لأستأثر بها، أتعثّر أو أتأخّر، يسبقونني إليها. أتنحى جانباً ملتقطاً أنفاسي. أنظر إليهم يستمرون في الجري، كأنهم أصغر مني. ربلتا ساقيّ تؤلمانني. كأن أحداً يشدّ وتريهما بعنف. الضغط يقوى في صدري. العرق يقطر الآن حبّات كبيرة تسقط فوق حذائي. تبلّل سروالي وقميصي، وكلّ شعري. المرّة التالية، سأكتفي بالأحلام. وأصدّق أنني خفيف. تنجذب إليّ الكرة كأنني حقل مغناطيسي.

أمرّ بطارق. يقول: «سبقونا مع نديم». لا أسأله من معنا.

رلى ليست معهم. لا أرى من الفيلم إلاّ بضعة مشاهد. جولييت بينوش تصل إلى الضيعة. بينوش تعدّ أنواعاً من الشوكولا. منظر حريق عند المرفأ. هل أنا في غيبوبة؟

ـ «هل أعجبك الفيلم؟».

أهزّ رأسي. تغيب عني تعليقاتهم وآراؤهم. لا أرافقهم إلى Bongos. أعود وحدي.

أتذكّر المرات التي ذهبت فيها إلى هذه الحانة. مكان ضيق كالتتخيتة، دخان وضجيج، موسيقى عالية، ناس يرقصون متدافعين.

Twitter: @alqareah

كنت سعيداً معهم. ما الذي يحصل لي؟ لِمَ صارت كل الأشياء عادية.

كأنني نمت واستيقظتُ في اليوم التالي بجسم وعقل شخص لا أعرفه.

Twitter: @alqareah

الحرارة عشرون. قبل يومين تدنّت حتى الرابعة عشرة. الشمس قويّة اليوم منذ الصباح. أرتدي قميصاً قطنياً بأكمام. أشعر ببداية الربيع. خصوصاً في الجامعة. أشجار تزهر. أسراب عصافير تحطّ بالمئات فوق الأشجار. أصوات زيز وحشرات تصل إلى مسامعنا في الصفوف. حشرات ملوّنة وغريبة الأشكال تسرح فوق النباتات. أتساءل أين تكون في الشتاء. هل تنام كالدببة. أم تحفر عميقاً في التراب. ماذا يحصل لأوكارها في الأمطار الغزيرة؟ كيف لا تغرق. في ضهور الشوير، كنت أراقب أوكار النمل لساعات. آتيها بحبّات سكر، أرشّها في طريقها. لا أفهم سرّ قدرتها وهي بهذا الحجم على العمل دون توقّف.

في الصف، أجد عامر، يفاجئني حضوره. يتغيّب عن صفوفنا المشتركة كلّها منذ أوّل الفصل الثاني. يسألني إن كنت مشغولاً بعد الصف. يريد إستشارتي في موضوع خاص.

أقنعه بالذهاب إلى الكافيتريا. يبدي انزعاجه متحججاً بالضجيج والزحمة. في طريقنا، يحكي عن مونيك. يتشاجر معها دائماً. عنيدة ورأسها يابس. يختلفان. تمضي أيام دون أن تتصل به. يتصل هو،

Twitter: @alqareah

لا تردّ عليه. يقول: من تظنّ نفسها؟ أنا لا أقبل أن تعاملني أيّة فتاة هكذا. يتابع حديثه معدداً الأسباب التافهة التي تؤدي إلى خلافهما في كل مرّة.

ـ الموضوع لا يستحق. ستتصالحان، روّق بالك.

ـ لا هذه المرة سنرى من فينا الأكثر عناداً. سأجعلها تبوس قدمي.

يلتفت طالبان يسيران أمامنا قد سمعا حديثنا. يلكز أحدهما الآخر. في الكافيتريا، نشرب الشاي ساكتين. ندخّن غارقين في أفكارنا. قرقعة صحون وشوك وملاعق تختلط بنقاشات وأحاديث لا رابط بينها. يتواصل صرير الكراسي تُقرَّب وتُبعد. لا يهدأ عامر على كرسيه. أفكّر بمقدار غضبه.

لا أرى رلى إلاّ بعد جلوسنا بعشر دقائق. رأسها محني لا أتبيَّن ما تفعله. يحتقن وجهي في ثوان. عيناي تزوغان. يداي في حركة لا تهدأ. أضغط السيجارة بين إصبعي. أمجّ نصفها. كيف تكون على مسافة قصيرة مني ولا أهبّ نحوها. كيف أتخلّص الآن من عامر. لا أريده أن يعلم شيئاً. الدقائق الباقية التي يقضيها متأففاً من الضجة أطول لحظات عشتها في حياتي.

القلق يجعلني غير منطقي. أخاف أن تنشغل عيناي عنها، فتخرج وأضيّعها من جديد. كأنّها نسمة أو خيال قادر على اختراق الجدران دون أثر.

ـ تعال نذهب، قلتُ لك المكان لا يُطاق.

ـ لا سأبقى قليلاً. وأطلب شيئاً آكله. أقول ذلك بصوت مخنوق.

Twitter: @alqareah

كأن المسافة التي تفصله عن الباب لن تنتهي. أنهض عن الكرسي قبل أن يخرج من الباب. أراها في الزاوية. بلى، هذه هي. شعرها يغطي جانب وجهها المحني أمامها. أقول رلى. ترفع رأسها. تتفاجأ برؤيتي. تشير ناحية الكرسي لأجلس. استمرّ بالنظر إليها. لا أجد ما أقوله. هي تقلّب الصفحات، ترسم سطوراً بالرصاص تحت مقاطع. ترفع بصرها نحوي دون أن تراني. تستغرق في شيء ما. ليتني كنت صغيراً جداً، فأتسلّل إلى رأسها. كل الأحاديث التي أتخيّلها وأصوغها تسقط حين أراها. أتردد قبل دعوتها إلى بيتي. لا ترد. تسألني بعد قليل: لديك مشروب؟

أمشي بمحاذاتها متأمّلاً مشيتها، وجهها في الضوء. كلّ بضع خطوات، توقع شيئاً من أغراضها. الحقيبة المتدلّية من كتفها صغيرة لا تتسع لشيء.

تحمل الكتاب والقداحة والقلم وعلبة المارلبورو. أحملها بدلاً منها.

تُبقي القداحة في يدها. تشعلها باستمرار. أسألها عن عدد القداحات الذي يلزمها كل يوم.

لهاثها خلال المشي قوي، كأنها تسير راكضة. أو كأن شيئاً عالقاً في قصبتها الهوائية.

تشرب ڤودكا مع ثلج. لا تسمعني عندما أكلّمها. عليّ أن أعيد الكلام مرة ومرّتين. كأني عاجز عن السير باتجاهها. يدي لا تطالها. وحيد كأنني أحادث نفسي.

نشرب ثلاثة أرباع القنينة. يدور رأسي والغرفة حولي. أرافقها

Twitter: @alqareah

إلى الباب عندما تغادر. تشكرني وترحل. قدماي لا تقويان على حملي. أرتمي فوق سريري. لا أخلع. لا ثيابي ولا حذائي.

أستيقظ والليل قد حلّ. صداع فظيع. نبضات قلبي مجنونة. آخذ حبتيّ أسبرين. تقلصات تقوى في معدتي. أتقيّأ الڤودكا والنسكافيه الذي شربته صباحاً. أشرب قنينة سڤن آب. بعد ثوان، يصيبني الغثيان، ينفلت الماء كشلال من فمي وأنفي فوق بلاط الحمام.

ما أكاد أرفع رأسي حتى تعاودني تقلّصات عنيفة. سائل أخضر يخرج بصعوبة. رائحة القيء تملأ المكان. كيف أنظف الآن وأنا في هذه الحالة. أمام المغسلة، أصاب بالدوار مجدداً، أعجز عن خفض رأسي وغسل وجهي.

أخلع ملابسي كلها. أستلقي في فراشي تحت الأغطية. أقاوم رعشة قوية من البرد. أحاول النوم. يوقظني نبض قلبي وحموضة تشعل زلعومي. مريض ووحيد. أفكّر.

يرن الهاتف مرّات عدّة. لا أرد. من سيتصل بي؟ عامر، نديم.. ثريا.. ما أبعدني عنهم. ضعيف كطفل محموم. ما بالي أزيد حالي سوءاً.

جسمي لا يطاوعني لأنهض وأمشي. أستطيع أن أمشي حتى آخر العالم. أستطيع أن أركض كالمجنون دون لحظة راحة. حتى لو ركضت الأرض، لن يختفي ألمي. ليتني أستعيد وجهي القديم.

تستمرّ آلام معدتي وصداع رأسي طوال اليوم التالي. أغيب عن صفوفي. بعد الظهر، أركب سيّارتي. أقود دون هدف. أجد نفسي

Twitter: @alqareah

في الغازية بعد صيدا. أعود أدراجي. أتأمّل البحر عن يساري طوال الطريق حتى الأوّلي.

كيف أنجو مما أنا فيه؟ أقول. أشغل كلّ وقتي. أخرج إلى المطاعم، إلى السينما والحانات. أوافق على مشاركتهم كلّ مشاريعهم. التزلّج، الرحلات الصيد. كل شيء. لا فرق.

دقائق قليلة تهمد بعدها همّتي. كيف أعيد الشخص الذي كنته إلى الحياة؟

أوقف سيّارتي عند كورنيش المنارة. أنتظر أكثر من ربع ساعة لأركنها. الطقس صحو. الناس كثر. أقف عند الدرابزين الحديد. أتفرّج على الصيادين فوق الصخور. تعلق سمكات صغيرة أو بحجم الكف في بعض الصنارات. غريب، يجلسون متقاربين، لكن الحظ لا يحالف إلاّ واحداً منهم أو اثنين على الأكثر. ربما نوعية الطعم تشكّل فرقاً.

تفوح رائحة الكعك والصعتر. أجوع لأوّل مرّة منذ يومين. أشتري كعكة محمصة. البحر أمامي هادئ. صوت أمواجه ينيم عجوزاً جالساً على كرسي خشبي صغير. قربه إبريق كبير من القهوة. هواء البحر يخلّف ملحاً في فمي. أبرد مع حلول الليل. الحرارة تهبط بسرعة. أبتعد عن الدرابزين. أجلس داخل سيارتي. أفتح الراديو. الموسيقى قوية تهزّ زجاج النوافذ، العتمة لا تزال شفافة.

Twitter: @alqareah

الفصل الثاني

فيليب

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ينفد المازوت. المدفأة الكهربائية لا تبدّد الرطوبة العالية. أحيط كتفي وساقي بغطاءي صوف. البرد أقوى مما تخيّلت. آلام الروماتيزم لن تنفعها الأدوية. في دفتر التلفون، أجد ثلاثة أرقام مكتوبة بخطّ زوجتي آناستازيا. قربها بين مزدوجين كلمة مازوت. لا أستطيع أن أتصل في مثل هذا الوقت. من يأتي الآن والساعة تشارف على التاسعة؟ الأمطار تضرب النوافذ. صوتها كنقر العصافير. أعطس بقوّة تهدّ جسمي. كأنّ المدفأة نواصة. ألتصق بها دون فائدة. أنهض بعد تردّد. أبحث في الأدراج عن جوارب. أفتحها كلّها قبل أن أعرف موضعها. أرتدي جوربين في كلّ قدم. يصعب على رجل مثلي في الثمانين أن يعتمد على نفسه. كانت آني تتولّى شؤون البيت كلّها. تساعدها خادمتان. تصطحب واحدة إلى ضهور الشوير صيفاً. تبقى «أم السعد» معي في بيروت. السائق يشتري أغراض البيت. اليوم ركبتُ سيارة تاكسي إلى ضهور الشوير. قلتُ لمصطفى سائقي إنني سأتصل به إن احتجتُه. لم أجد في البيتِ شيئاً يؤكل. البراد فارغ إلاّ من قالبي زبدة وجبن. فيه قناني عصير وسفن آب وبيرة. لا أجرؤ على أكل الجبن، عمره يجاوز الشهرين.

Twitter: @alqareah

في خزائن المطبخ الكثير من المعلبات. كيف آكلها دون خبز. لم يخطر ببالي شراء شيء قبل وصولي مساء. لست من يتولّى هذه الأمور عادة. غداً سيشتري مصطفى ما أحتاجه. سأطلب منه أن يتسوّق من بيروت كي لا يعلم الجميع أنني هنا. أودّ أن أرتاح قليلاً قبل أن تبدأ الزيارات. الوحيد الذي أحبّ مجالسته هو سليم خير بك. زميلي من أيّام الجامعة. ما تبقى من زيارات المجاملة يتعبني. كنت أقول لآني ليت لنا بيت في غير ضهور الشوير، بلدتي. الكلّ يعرفني هنا. لديّ الكثير من الأقارب. ينتظر مني كل واحد أن أردّ الزيارة. لا أحد يزورني أو يسلّم عليّ في الشارع إلاّ ولديه سؤال عن آلام الظهر، المعدة، الرأس، الفتاق لون الخروج المتغيّر، حصر البول، الإسهال. الجميع يريد مني وصفة سريعة، أي دواء يشتريه من الصيدلية، يبتلع حبة ويشفى في ربع ساعة. السبيل الوحيد للخلاص هو طلب الفحوصات. معنى ذلك الراحة لوقت ما قبل الإستشارة الثانية. يضحك صديقي سليم خير بك عندما أخبره معاناتي. يقول إنّه كان مثلي قبل أن يسكن في ضهور الشوير بشكل دائم، أي قبل عشرين سنة. العيادة تقطع عليهم الطريق. يخافون منها يقول: يحسّون أنهم أصحاء إن سألوا في البيت أو الشارع أو على التلفون. لأن المرضى فقط يذهبون إلى العيادة.

لم أفهم كيف يستقرّ في ضهور الشوير. بلدة كنت أراها قبل أقلّ من سنة مضجرة، ميتة، خصوصاً شتاء. صحيح أن عيادته في كورنيش المزرعة احترقت في الحرب، لكن أحواله المادية تسمح له بفتح عيادة أخرى في أي مكان في العاصمة.

Twitter: @alqareah

المطر يتحوّل حبات برد تطرق قرميد السطح والأباجورات كالحجارة. يدوي الرعد. تنوص الكهرباء. كأن الغرفة تنيرها شمعة. تنقطع نهائياً. عتمة داكنة لولا البروق المتلاحقة. كيف أشغّل المولّد في الظلام. ماذا لو تعثرت ووقعت. يلزمني وقت طويل من التنقل الحذر قبل الوصول إلى السرير. ليلة أرق وبرد لا تنقضي.

لا أتذكّر إلاّ صباحاً مدفأة الحطب الكبيرة في الصالون. أي جاهل أنا. لا أعرف بيتي. هل يعقل ألا أتنبه لها. تأمّلت حجارتها المنقوشة مئات المرات. لكنها في مخيلتي كتحفة وليست للاستعمال.

مصطفى يتصل بالشركة لتعبئة خزان المازوت. يأتي بالحطب من القبو. يفحص بنفسه الداخون. يملأ البراد بالخضار واللحوم والفاكهة. يوصل أم السعد بعد انتهائها من تنظيف البيت. يقوم مصطفى بما أطلبه وبما لا أطلبه. أطلق على أحد أولاده اسم رجا كحفيدي. يصطحبه معه أحياناً. في الرابعة من عمره تقريباً. تضحكني أسئلته التي لا جواب لها. يزجره والده كي لا يزعجني. أطلب منه أن يدعه فالصبي مهضوم وخفيف الدم. سيبالي تحبّه أيضاً تصطحبه إلى الدكان وتشتري له الشوكولا. يسألها كلما رآها، لماذا أنت سوداء؟ لا يكترث لوالده مصطفى حين يوبخه قائلاً: عيب عليك، سأقصف رقبتك في البيت. اليوم لم يأتِ معه، ربّما بسبب المطر والبرد.

آني أيضاً تعطيه ثياب رجا القديمة وألعابه. احتفظت بها طويلاً قبل أن تقرّر التخلّي عنها. تركت القليل منها كتذكاراتٍ لأولاد رجا. في كل الأعياد تدفع لمصطفى إكرامية لشراء هدايا للأولاد. يناديها

Twitter: @alqareah

الست Madame. يزورنا مع زوجته في أعياد الميلاد والفصح. يجلسان عند طرف الكنبة بتحفز. بعد الحلوى والقهوة ينصرفان. زيارة لا تتجاوز العشرين دقيقة. عندما مرضت آني. صارا يأتيان للسؤال عن صحتها. يبقيان في المطبخ مع سيبالي. لا يدخلان إلى الصالونات. تقول زوجته: اللّه سيعطي الست Madame الصحة وسينجيها من القطوع لأنها طيبة وكريمة.

ـ اللّه يسمع منك. أقول لها.

ألحظ أدوية آني المكومة فوق الكومودينة قرب سريرها. مسحت أم السعد عنها الغبار ثمّ أعادتها مكانها. لا أرميها.

على تلك الكنبة العريضة قبالة الواجهة الزجاجية، كانت تستلقي. تنظر إلى السماء. تقول إنّها واسعة هنا. زرقتها تفرح. في بيروت لا تراها. تراقب أسراب الحمام تحوّم وتحطّ فوق العديد من السطوح. الوسائد الكثيرة تحت رأسها ورقبتها لا تريحها. النظر لوقت طويل يتعبها. تغمض عينيها. يتعبها التنفس أيضاً. أنفاس متقطعة، تختنق مرّات قبل أن تنتظم. أعجب من تبدّل شكلها. كأنها لم تعد نفسها. وجهها المستدير يستطيل. عظام فكيها تبرز حادة. تصبح ناتئة من الأمام. لم ترد وضع شعر مستعار. تبقي نهاراً قبعة فوق رأسها. ليلاً تستعيض عنها بمنديل قطني. أنا الذي عالجت آلاف المرضى، لم أرَ، طول حياتي، وجهاً كوجهها الشمعي. كأنّ سائلاً أصغر يسيل في عروقها بدل الدم. انتظرت دائماً أن أموت قبلها بكثير. لا لكونها أصغر مني بأحد عشر عاماً. بل لأنّها لم تشكُ من مرض فعلي أو خطير. عكسي أنا المصاب بضغط دم مرتفع، بالسكري، بالروماتيزم وبأمراض أخرى ظهرت مع تقدّمي في

Twitter: @alqareah

السن كالكوليستيرول وانسداد أحد شرايين القلب. منذ سنتين فقط اشتكت من آلام رأسها القوية. أعطيتها مسكّنات ودواء للأعصاب. ظننته تعبها المعهود منذ وفاة شارل ابني وزوجته. كما إن النساء يعانين في معظمهن من أعراضٍ مماثلة.

ألأنني طبيب لم أعتقد أن المرض يصيب عائلتي أيضاً؟ ثمّ بدأت أعراض أخرى تظهر. دوار يفقدها توازنها. تقع داخل البيت وخارجه. مرّة شقّت رأسها. لزمها خمس قطب للجرح. صباحاً تجد صعوبة في النهوض. زوغان في بصرها، كأن العمى يصيبها لهنيهات. اختصاصي الرأس لم يأخذ برأيي. قال إنّ الأذن الوسطى لا تسبّب كلّ هذه الأعراض. فحوصات الأشعة أظهرت ورماً كبيراً. أعدنا الفحوصات ثلاث مرّات. النتيجة واحدة. أرسلت الفحوصات لأكثر من مستشفى في أميركا، في بلجيكا في فرنسا. الردّ نفسه ألقاه، العملية خطيرة. نسبة فشلها شبه مؤكّدة مع ورم كهذا.

يتعب قلبي، أحاول إبعاد هذه الذكريات عن رأسي. أفتح الستائر. تنكشف الواجهة. تبين منها السماء ملبّدة. الأشجار في الحديقة ساكنة. لا ريح في الخارج. الضباب يحجب سطوح الأبنية المجاورة. يطلع من الأرض يرتفع في الهواء. لا تخفّ كثافته. يصبح البيت وحيداً. لا شيء حوله كأن البلدة بأكملها تختفي.

الحرارة في البيت لذيذة، تبعث على النعاس. أحاول أن أتذكّر أدويتي إن تناولتها ظهراً بعد الأكل. لا أعرف. يلزمني ممرضة ربما، تعتني بي.

أتذكّر الممرّضات الثلاث اللواتي تعاقبن على خدمة آني والسهر عليها في مرضها.

Twitter: @alqareah

لم يدخلن جميعهن إلى قلبها. هكذا قالت. لا تريد أحداً غير أم السعد وسيبالي. في ضهور الشوير كنت أحملها بنفسي. لم تعد تقوى على الوقوف. من أين واتتني القوّة أنا العاجز عن حمل أخفّ الأغراض. صحيح أنها بوزن الريشة صارت إلاّ أنني كنت أحملها يومياً فوق الكنبة أو أعيدها إلى السرير.

أتمشّى في البيت متنقلاً بين الغرف. أفتح الستائر. أتفرّج على حرش الصنوبر من الجهة المقابلة. لا تبين إلاّ بعض أشجار الصنوبر القريبة. الضباب لا يخفّ. أعود أدراجي إلى غرفة الجلوس. أقترب من المكتبة. أضع نظاراتي. هذا جهاز الستيريو القديم. على الرفوف قربه كتب طب وموسوعات لم أفتحها منذ ثلاثين سنة. كتب بوليسية كانت لكريستيل وشارل في صغرهما. بضع ألبومات صور. كتب آني السميكة. أكداس من المجلات على الرفوف التحتية. إطارات الصور تتوزع على الناحية اليسرى من المكتبة. أولادي في طفولتهم، في تخرّجهم، مناولتهم الأولى. صور كثيرة لرجا. صورة لي ولآني. أقرّبها من عينيّ. التقطت لنا بمناسبة خطوبتنا. كم تبدو آني مختلفة. تقف جنبي. أقصر مني بقليل. أمسك بكلتا يديها. شعرها مفروق في الوسط. يتدلّى حتى كتفيها بتجاعيد عريضة متوازية. كان التجعيد موضة آنذاك. شعرها أملس بالأصل. أتأمّل وجهي. رجل الصورة لا يشبهني.

عندما ألتقي سليم خير بك، أعجب من الأخاديد في وجهه. شهور لا أراه، يكبر خلالها سنوات. كنت أحسب أنني لا أبدو عجوزاً ولا أشيخ مثله بسرعة. فأصحابي لا يتبدّلون هكذا. ثمّ انتبهت إلى أن لقائي المنتظم بهم لا يجعلني ألحظ زحف العمر إلى

Twitter: @alqareah

أجسادهم. كما لم أره يهجم نحوي، الفرق بيني وبين سليم أنه أصيب هو بالباركنسون. يرفض تناول الأدوية.

ـ أريد أن أعيش متمتعاً بكامل عقلي. لن آخذ دواء يفقدني ذاكرتي وقدرتي على التفكير. أعيش الآن داخل رأسي. فأين سأعيش إن تناولت هذه الأدوية. يقول.

لا تنفع كلماتي في إقناعه. أحدّثه عن نسب ضئيلة من الأدوية لا تؤثّر كثيراً. ولا تتسبّب بالهذيان. يجيبني هازئاً:

ـ لست مريضاً فحسب يا فيليب. أنسيت أنني طبيب أيضاً. هذا كلام نقنع به المرضى.

في جنازة آني، جلس عن يميني. ينتفض دون توقّف. أمسكت من يديه فنجان القهوة. كاد يوقعه فوق ثيابه ويحرق نفسه. لا يقبل عادة أية مساعدة. يرفض حتى مساندة هيلدا زوجته. يبوّل أحياناً في ثيابه قبل الوصول إلى الحمام أو خلال نومه. يأكل بمفرده موقعاً معظم ما يرفعه إلى فمه. لا يكترث لأحد. لا تحرجه نظرات الناس المحدّقين به أو القائلين: مسكين الدكتور سليم على هذه الآخرة.

زوجته هيلدا صديقة أيضاً لآني. كانت تأتي إلينا قبيل الظهر يومياً. تحمل شيئاً أعدته لآني. إحجام آني عن الأكل لا يمنعها من إحضار الحلويات وأطباق من الطبخ. هيلدا تكبر آني بخمس سنوات. لا تزال قوية الجسم، منتصبة القامة. تهتمّ بالحديقة، تزرعها في كل الفصول بالخضار والورود. تنكش الأرض، تتربها، توزع السماد. تصنع المربيات وربّ البندورة والمخللات. تهدينا الكثير مما تعدّه. من يعرفها سابقاً لا يصدّق أن هذه السيدة المتأنقة

Twitter: @alqareah

ستتحوّل إلى شبه فلاحة. كانت آني تحبّ الحديقة. تشتري الشتول. تعطيها هيلدا أنواعاً مميّزة من بذور الأزهار. لكن «أبو مسعود» هو من كان يهتمّ بها صيفاً شتاء. يرش أيضاً السموم كي لا تزحف نحونا الحشرات والأفاعي من الحرش المحيط ببيتنا من جهته الشمالية.

أحضر كأساً من الويسكي، أخلطه بماء من الحنفية. آخذ مجلّة من المكتبة، أتصفحها. تبدو مجلّة نسائية. أقرأ تاريخها فوق الغلاف أيّار 1978. مقابلة مع ملكة جمال سابقة. تحقيق عن العصفورية. صفحات أخرى مخصّصة لمفروشات الشرفات صيفاً، أزياء للبحر. الأبراج. رائحة ورقها تعبق في أنفي. أغلقها. لا أعرف ماذا أفعل. لم أظن أنّ الوقت سيكون منهكاً هكذا. انشغالي بآني والعيش على وقع مرضها وانتكاساته أنساني وجودي. أفكّر هازئاً من نفسي: «الآن تفضّل لنرَ ماذا ستفعل بوجودك».

فعلاً ماذا أفعل. باستثناء بعض الاتصالات الهاتفية، لم أعد أعالج أو أعاين أي مريض. كنت الطبيب الوحيد في كل الحي. أستقبل المرضى من كل الأعمار. معاينات تستمر حتى الليل. تنزعج آني من انشغالي عنها وعن تربية ولديّ. صحيح أنّها ورثت وأخواتها الثلاث أراضي في الحازمية وعقارات في الأشرفية. لكنني حصّلت ثروةً لا بأس بها من عملي. اشتريت شققاً. كان السوق العقاري آنذاك آخذاً في الارتفاع. جاءت الحرب وجمّدت الأسعار.

لم أكن من عائلة ثرية. لم أرث إلاّ قطعة الأرض التي بنيت عليها بيتي في ضهور الشوير. عمي يعقوب في البرازيل تكفّل بنفقات تعليمي. أخواتي البنات لم يتعلّمن حتى القراءة.

Twitter: @alqareah

لم تجاوز الساعة الرابعة بعد الظهر، رغم ذلك الظلام يحلّ تدريجيّاً. أحضر شمعةً وقدّاحة تحسباً لانقطاع الكهرباء. دون ضوء كيف أشغّل مولد الكهرباء.

تتصل كريستيل. تريد الاطمئنان عليّ. تخبرني أنّها تعشت مع رجا. تسألني رأيي في بيع شاليه فاريا. تريد رأس مال لتنطلق بتجارة التحف. أقول لها أن تفعل ما تراه جيداً لها.

أعلم أنّ عملها هذا سيفشل كغيره من أعمالها السابقة.

Twitter: @alqareah

عند الصباح، حوالي الثامنة يأتي رئيس البلدية سركيس أبو ناصيف لزيارتي. يقول إنه رأى البيت مضاء البارحة فيما يمرّ بسيّارته. أخيّره بين شرب الشاي أو القهوة. يقول القهوة.

الماء يغلي في الركوة. لا أجد البن لا فوق الرفوف ولا في خزائن المطبخ. من يخطر بباله أنّه سيكون في البراد. ربع ساعة والرجل وحده. أمعن النظر في الماء يكاد يتبخر وهو يغلي. لا أعرف كم عدد ملاعق البن التي عليّ وضعها. أضع أخيراً أربعاً. كان طعم القهوة مقبولاً. خصوصاً بالنسبة لمبتدئ مثلي.

أمتدح الطرقات التي عُبّدت وصارت أوسع. يقول إنّه خلال الحرب، عمل بضميره من أجل البلدة غير آبه بالضغوطات والتهديدات. الآن يستمر بالنهج نفسه. لا يعطي رخص البناء ويرفض توقيعها إن كانت دون المواصفات المطلوبة. يتأكد بنفسه من سير البناء وتنفيذه وفقاً للرخصة والخرائط المقدّمة.

لا نريد لضهور الشوير أن تصبح كتلك البلدات الأخرى. أبنية باطون متلاصقة بلا ذوق أو رقي، يقول. يعدّد المشاريع التي ينوي تنفيذها. يتشتت ذهني. لا أسمع إلاّ كلمة من هنا وكلمة من هناك.

Twitter: @alqareah

يحمل في يده سبحته، حبّاتها حمراء بلون الرمان. تكرج الحبة تلو الأخرى من بين إصبعيه في إيقاع عذب. يسأل عن الوقت الذي سأقضيه هنا. أجيب بأنني لا أعرف بالضبط. ثمّ أضيف بضعة أيام ربما.

لا مطر اليوم. لكن البرد شديد. حبّات الندى تجمّدت فوق الأغصان كاللؤلؤ المنثور. لم تطلع الشمس لتذيبها. في الربيع الماضي جلسنا كثيراً في الحديقة. في البداية كنت أحاول أن أثني آني عن ذلك. أخشى أن تتعب أو تصاب بالبرد. أجلس مرغماً في البداية غير فاهم ما الممتع في لسعة الصقيع وطنين النحل والذباب. ثمّ صرت مثلها أستنشق ملء رئتي زهر اللوز. أتأمل طويلاً شجرات الكرز والمشمش المزهرة، الأعشاب البرية النابتة في الأحواض. لم يعد لا الصمت ولا صوت الزيز أو نقيق الضفادع يزعجني. تعلّمني آني خلال مرضها ما عجزت عنه طوال حياتها. هذه السماء كانت دائماً فوق رأسي. لم ألحظ قمرها ولا جمال أن أتأمّله في ليلة صيفية صافية. قرص كبير من الفضة يسبح تحتنا في الفضاء. حتى آني لم تكن مولعة بهذه الأشياء قبل مرضها. أم إنني لم أنتبه إلى ما تحبه إلاّ حين مرضت. منذ موتها أفكر، أيمكن أن نعيش مع شخص لخمسين سنة دون أن نعرفه حقاً. ماذا أعرف عنها؟ عائلتها ذات أصول روسية. تعلّمت عند الراهبات، تتكلّم الفرنسية بطلاقة كأنها لغتها الأم. محافظة. هذه معلومات عرفتها عنها منذ أوّل مرة التقيتها عند صديقي الدكتور توفيق صليبا. كانت يومها تزور أخته. ماذا تحبّ؟ بمَ تفكر حين تكون وحدها؟

لفترة طويلة ظننت أنها على علم بعلاقتي بعايدة، زوجة جبران.

Twitter: @alqareah

أحسّ ذلك من نظراتها. من صمتها الذي كان يزيد الهوة بيننا منذ وفاة شارل. سهرات ومناسبات وزيارات كثيرة كانت تجمعنا بجبران وعايدة. أنصرف خلالها لرصد نظرات آني وحركاتها. أفكّر أنه لا بدّ سيصدر عنها ما يشي بالحقيقة. لكن لا شيء على الإطلاق. سلوك ودي لم يتبدّل يوماً. أحد عشر عاماً وأنا أنتظر اليوم الذي تفاجئني به وتفاتحني بالموضوع. لم تفعل. كنت ألتقي عايدة في بيتها. تتظاهر بالمرض أمام الخادمة. تتصل بي. أعلم أن جبران خارج البيت. حتى لو عاد، لن يفاجأ بوجودي. فأنا صديق مقرّب، وزوجته مريضة دائماً. لم تكن علاقتي بعايدة سهلة. تتنازعني باستمرار مشاعر معقدة. قطعت علاقتي بها أكثر من ست مرات. لكنني كنت أعود إليها بشغف أكبر وبرغبة لا ترتوي. تكتب لي عايدة رسائل أشبه بيوميات. تعطيني إياها لأقرأها حين تكون بعيدة عني. تتصل بعيادتي على مدار النهار. نفترق مرغمين كلما أجتمعنا. أحببت كل نقطة في جسدها. حفظته غيباً. كأنني كلما نمت معها أزداد ولعاً بها ورغبة فيها. كان يحصل أن تصبح غيورة جداً. تنغّص لقاءاتنا بأسئلتها عن آني. عمّ إذا كنت أضاجعها. وكم مرّة. وهل أستمتع. كيف أحسّ وأنا أفعل. هل أتخيلها هي أثناء ذلك.. ثمّ لِم هي التي تبادر إلى السؤال عني والاتصال بي وتدبير اللقاءات. لِم لا أكتب لها بدوري رسائل.

لِم أنا حذرٌ؟ هي الأخرى لديها زوج. تبكي بحرقة بعد نوبات غيرتها. أراضيها، لا تلين. تنقضي الساعات دون أن يهدأ قلبها. أو يستكين ألمها. كثيراً ما ينتهي لقاؤنا بخلاف. لكنها تسارع إلى الاتصال بي والاعتذار.

Twitter: @alqareah

كان يغضبها أيضاً إذا لم ألحظ ثيابها الجديدة، أو لم أنتبه لوزنها الذي انخفض، أو لتسريحة شعرها الجديدة. خلال علاقتي بها. لم أشك مرّة بصدق مشاعري. صحيح أنني في بداية علاقتي بها، لم أعرف اسماً لِما أحسّ به، إلا أنني فيما بعد، شعرت أنها المرأة التي أحبّ وسأظلّ أحبها. لم أتساءل عمّ يمكن أن يحصل لنا. إذ أتخيّل أننا سنستمر متحابين وعشيقين.

بعد موت شارل. انقطعنا عن اللقاء لأكثر من سنة. انطفأ كل شيء في داخلي. داومت هي على الاتصال بي وعلى زيارتي وحدها في عيادتي. عاملتني برقة وصبر. تقول إنها فقط تطمئن عليّ.

أذكر بكاءها حين التقينا أوّل مرّة بعد هذا الانقطاع الطويل. قبل يوم، تعشينا عندنا. في اليوم التالي، بادرت إلى الاتصال بها متخليّاً عن حذري المعهود.

مأخوذاً بشعور من الذنب، كنت أبالغ في التودّد لآني. لكنّها لم تكن تهتم إلاّ برجا. مرّة واحدة ندّت منها عبارة أشعرتني أنها تعلم كل شيء عن علاقتي بعايدة. كنت يومها أخبرها عن عملية جبران، إذ أُدخل إلى الطوارئ بعد نوبة ألم شديد. ظنّها الطبيب بداية ذبحة قلبية ثمّ اتضح أن السبب هو الحصى في الكلى. أجابت كأنها تقول أمراً عادياً جداً: «الآن عليك أيضاً ألا تُهمل صحة عايدة». صعقني قولها. لم أدر كيف أداري ارتباكي. ثمّ انتقلت للحديث عن حاجة رجا إلى مدرس خصوصي للغة العربية.

أفكّر بالوقت. أيّة قدرة إلهية تتمثّل فيه. ماذا حصل لحبي لعايدة؟ لم نختلف، لم نفترق كما يفعل حبيبان، لم يودّع أحدنا

Twitter: @alqareah

الآخر. تباعدت لقاءاتنا تدريجياً. حتى علاقتي بجبران سادها الفتور. عندما شاركتُ في جنازته منذ سبع سنوات، ذهبت مع آني إلى بيته لتقديم التعازي. كدت ألا أعرفه. البناية حتى تبدلت واجهاتها، رممت وأضيف عليها طابقان. الأثاث في الداخل لم يعد هو. صافحت عايدة كأنها امرأة غريبة. جلست بين المعزين حزيناً مفكّراً بالسنوات، تقتل فينا كلّ شيء، الشغف، الحبّ، الكراهية حتى الحزن يصغر. بدليل أنني حيّ. لم يقتلني ألمي على فقدان ابني.

أبو مسعود يطرق باب المطبخ. يقول إنه سيزيل بعض الأعشاب. لديه نقص أيضاً في كمية الأسمدة. أسأله عن المبلغ المتوجّب عليّ. يقدّم لي فاتورة مفصّلة. أحرّر شيكاً بالمبلغ. يشكرني. يناولني كيساً من الخبز المرقوق، صنعته زوجته بنفسها. أعترض على الكمية الكبيرة. عبثاً أقنعه بأن العفن سيصيبها قبل أن آكل رغيفين منها. يجيبني: «لا يا حكيم. في البراد يبقى سنة، لا يصيبه شيء. هذا خبز أم مسعود».

ربّما أبو مسعود من الفلاحين القلائل المتبقين في البلدة. من لا يعمل في بيروت، يبني بناية ويؤجّر شققها للمصطافين.

هنا تعرّف ابني شارل بزوجته سهيلة، لم تكن تصطاف في ضهور الشوير. كانت تزور صديقة لها. لا تعرف سهيلة من العربية إلاّ كلمات تلفظها بلكنة مضحكة. أفكّر أن صدفة واحدة تبدّل حياة الكثير من الناس. لو لم يلتق شارل بها، لكان الآن حيّاً. أفكارٌ كهذه لم أكن أتشاركها مع آني. أحسّ أنني لن أفعل سوى تأجيج ألمها أكثر.

Twitter: @alqareah

يطرق أبو مسعود الباب ثانية. يقول إنه وجد شتولاً جيّدة من الشربين. طلبت منه آني زرعها هذه السنة عند السياج الغربي. سعر الشتلة ما بين الخمسة عشر والعشرين دولاراً، حسب عمرها. يبقى ساكتاً بعدها.

ـ وما المطلوب مني؟ أسأله.

ـ هل أشتريها؟

أدفع له ثمنها نقداً. هل كانت آني تعتقد أنّها ستعيش لتراها تنمو عند السياج؟ لم أخفِ عنها حقيقة مرضها منذ البداية. علمتْ أنه سيقضي عليها سريعاً، وأنّ العلاج الكيميائي قد يمنحها وقتاً إضافياً وقد لا يفعل.

رأسي ثقيل كأنّ فيه دوّامة. سآكل شيئاً خفيفاً مع خبز أم مسعود. أفكّر بعدها باستغلال الصحو وزيارة سليم.

Twitter: @alqareah

أجد سليم نائماً. تصرّ هيلدا على إيقاظه. زيارتي ستفرحه تقول. أقنعها بألا تفعل. نجلس في الغرفة الشتوية. النباتات في كل مكان. تشعرني أنني وسط حديقة. بعضها عربش حتى غطّت أوراقه السقف كله. تقدّم لي فنجاناً من البابونج والعسل. أستغرب طعمه. أشرب جرعتين فقط. أكره ما لست معتاداً على مذاقه.

يأتي سليم متكئاً على عصا معدنية. مبذله مفتوح تبين منه بيجامته الفضفاضة. الارتجاج يحرّك رأسه ويديه. شفتاه أكثر ارتعاشاً مما كانتا عليه قبل شهرين. كأنه يتكلّم ولا أسمعه. أقترب منه ثمّ أنتبه إلى أنه لا يقول شيئاً. تأتيه هيلدا بفنجان من الزهورات. أراقب الدخان يتصاعد منه. ترافق عيناي يده ترتفع بالفنجان. ترتجف. أقول الآن سيحرق نفسه. يدعوني للجلوس في مكتبه. هذه طريقته للانفراد بي. تنبعث من غرفة المكتب رائحة مطهرات وكتب قديمة. الهواء الراكد فيها ثقيل. لم تُهوّأ منذ فترة. هذه الرجفة تذيب جسمه. أفكّر متأمّلاً نحوله الشديد. الخزانة قبالتي تغصّ بالأدوية. أتساءل إن لم تنته مدّة صلاحيتها. لم يعد سليم يعالج المرضى. عمر العينات المجانية وغيرها ربما أكثر من خمس سنوات. لم

Twitter: @alqareah

يُبقيها؟ ـ يخطر لي للحظة أن أكلّمه ثانية عن أدوية الباركنسون. لكن هل سأبدّل رأيه. يدعوني سليم للعشاء والمبيت عندهما. فما معنى بقائي وحيداً في بيتٍ فارغ. أدّعي أنّ كريستيل ابنتي قد تأتي مساءً وتبقى حتى اليوم التالي.

ـ ذهبتُ إلى جنازة شفيق عماد. رفيقٌ من أيام Brummana High School. أتذكره؟

ـ اسمه ليس غريباً عني، لكنني لا أذكره.

ـ كان معنا أيضاً في الجامعة الأميركية. لكنه كان ملتحقاً بفرع الزراعة.

أجاهد لأتذكّر شيئاً. الاسم أعرفه. لكن الوجه يضيع مني. يختلط بوجوه عديدة. عندما نستعيد ذكرياتنا، سليم هو القادر على رصد أبعدها. أنا أكثر نسياناً منه. كنت وسليم تلميذين داخليين في برمانا. كان له صداقات أوسع مني. نظراً لشعبيته، عُيّن عريفاً. يشرف على الصغار من التلاميذ. يوزّع عليهم مهام التنظيف والخدمة في غرفة الطعام. أنا المحظوظ أوكلت بأسهل المهام. آنذاك كانت تعج بتلاميذ من كل لبنان، معنا تلاميذ من سوريا وإنكلترا. أذكر واحداً سويسرياً وآخر دانماركياً. فيها أيضاً بنات وتلاميذ خارجيون. لكل فئة منا صفوف خاصة. عدت والتقيت ببعض رفاق المدرسة في الجامعة الأميركية. لم يكن لي من بينهم أصدقاء سوى اثنين أنيس سروجي، ونقولا شحادة. أنيس انقطعت عني أخباره منذ تخرجنا. أمّا نقولا فبقينا على اتصال متقطّع حتى وفاته في جلطة دماغية. بالطبع سليم هو الصديق الوحيد المتبقّي من أيام المدرسة. أذكر سكننا معاً في حرم الجامعة. كم كانت بيروت مختلفة. وحدها

Twitter: @alqareah

المباني القريبة من الجامعة ترتفع لطابقين أو ثلاثة. ما عداها بيوت مستقلة محاطة بحدائق فيها خضار وأشجار تين وصبار وغيرها من أشجار الفاكهة. كانت تربية الماعز والأبقار والدجاج شائعة.

من أساتذتي آنذاك الدكتور بوست الذي درسنا الجراحة والدكتور فانديك. أذكر رفيقاً لنا من آل بخعازي كان يدعونا إلى بيت أهله القريب من سينما الحمراء حالياً. لكننا بقدر ما نحبّ زيارته نتجنّبها خوفاً من الطرقات الموحشة والوعرة. هكذا تضيع علينا المرتين المسموح لنا خلالهما بالخروج كل شهر. كان الدكتور بوست يحبّ زيارة آل بخعازي. يتفحص أشجار الحديقة وبالأخصّ شجرة التوت العملاقة، قال إن عمرها يتجاوز الألفي سنة. كان، إلى جانب اهتمامه بالطب، مولعاً بالنباتات. أصدر مؤلفاً ضخماً يحوي أنواع النبات وخصائصها العلاجية.

يحكي سليم عن رامز متني يضحك قبل أن ينطق بالكلمة الثانية. تقوى عليه الرجفة. يسألني إن أذكر ولعه بتلك البولندية. وكيف كان يحوّم قريباً من مسكنها في بناية جرداق شارع السادات.

أذكر ذلك. سليم وأنا شاركنا مرّة في حفلة راقصة. تفرّجنا على البولنديات يرقصن الفالس والبولكا والمازورك. استغربنا الكلسات النيلون التي يرتدينها. لم نكن نعرفها بعد. البولنديون وصلوا إلى بيروت بأعداد كبيرة إثر الغزو الروسي لبلادهم. كيف يتذكّر سليم كلّ هذه التفاصيل وتضيع منه أحداث اليوم الفائت؟

يذكّرني بزميل لنا في الطبّ اسمه عفيف تلحوق. يسألني: «أتذكر المقلب الذي دبرته له؟» يحلو لسليم أن يعاود سرد هذه الحادثة كلّما وصل بنا الحديث إلى رفاق الماضي. ما فعله بعفيف

Twitter: @alqareah

تلحوق شاركت به. الأشجار في بيروت قديماً كانت مختلفة ضخمة، أغصانها ورافة، تتنوع ما بين تين وتوت ونخيل وبرتقال وغيرها. هذه الظلال تثير ليلاً خوف المارة. لذلك تنسج إشاعات حول بعض الأماكن المسكونة كخندق ديبو وبناية قديمة لآل رجيلي. وعن أشجار ترابض قربها الجن وتتحوّل إلى حمار أو فتاة رائعة الجمال. كنا مجتمعين نهار أحد. نسرد أخباراً عن العفاريت والجن والأشباح. هبّ عفيف تلحوق من مكانه مستنكراً خفة عقولنا. قال يجدر بنا نحن المؤمنون بالعلم أن نكون أوّل من ينبذ هذه الخرافات ويكذّبها. بالطبع لم يكن فينا واحد يؤمن بشيء مما يرويه. القصص نسردها كما سمعناها لنتسلى. تظاهر سليم بالجدية وراح يجادل عفيف مؤولاً الدين والفلسفة لإثبات وجود الأشباح والعفاريت، والشياطين التي تسكن الأجساد. ألم يخرج المسيح شيطاناً من جسد رجل. ذلك مذكور في الإنجيل هل بإمكان عفيف أن ينكر؟ وإذا كان مقتنعاً بما يقول، فليقضِ ساعة واحدة ليلاً في بناية آل جبيلي المهجورة. قبل الرهان متحدّياً سخافتنا. انتظر سليم ونقولا مجيء عفيف، وراحا يحدثان أصواتاً داخل بوق قديم. لم يطل الأمر بعفيف ليخرج كالمجنون، متعثراً في ركضه. أمّا نحن فكنا في الطريق بانتظاره. رآنا لم يتوقّف استمرّ في جريه يتلو الصلوات بصوت مخنوق. يردّد بين الحين والآخر: سامحني يا ربي. سامحني.

تدخل هيلدا حاملة صينية تفوح منها رائحة طيبة. إنه نوع من الخبز الأسمر مقطع كالحلوى، محشو بالزيتون وبالجبن الأبيض. تقول إنه طازج، أخرجته للتو من الفرن. طعمها طيّب وخفيف. آكل منها ثلاث قطع. يأكل سليم قضمة واحدة دون شهيّة. أستعدّ

Twitter: @alqareah

للخروج، أرتدي معطفي وأزرره. يدعوني سليم لتكرار الزيارة إن بقيت في ضهور الشوير.

ألفّ الشال حول رقبتي. صنين قبالتي زهري اللون عند الغروب. الجبال الصخرية حوله تتلوّن بالأزرق والبنفسجي. منظر نادراً ما أراه في مثل هذا الوقت من السنة. لم تعد البلدة تشبه ما كانت عليه. معظم البيوت كانت في الوادي. الآن زحف العمران إلى التلال.

أذكر تلةً، كنّا نقف عليها نحن الأولاد. الضباب الأبيض يحيط بالجبال والأودية، يخفي كل شيء. بحرٌ من الضباب فقط. التلة تشبه جزيرة مسوّرة بغيوم كثيفة. تختفي ضهور الشوير والقرى كلّها. لا يبقى من العالم إلاّ هذه الجزيرة.

كنتُ في صغري أعرف كل زاوية، كل شجرة هنا. بعد انتهاء العام الدراسي في الإرسالية، يتركني أبي أفعل ما أشاء. لا أساعد كرفاقي في أعمال القزّ والبناء أو الحدادة والزراعة. على أية حال لم يكن أبي لا بناء ولا مزارعاً. كان الاسكافي الوحيد في ضهور الشوير. عمل مزدهر مكّن أبي من إعالتنا. كل قرش أرسله عمي من البرازيل التي هاجر إليها عام 1918، كان من نصيبي. في بداية كل عام، يصطحبني أبي عند الخواجه ديمتري ليفصّل لي بدلتين من الجوخ الإنكليزي. لم أتولّ هذه الأمور بنفسي إلاّ حين انتقلت إلى الجامعة الأميركية في بيروت. أحاول تذكّر أبي. فلا ترتسم في رأسي إلاّ ملامح غير واضحة شبيهة بتلك الصورة التي التقطت له ونحن حوله صغار. أخذت لنا صورتان. واحدة أرسلت لعمي بناء على طلبه. لم يكن يعرفني أو يعرف أختي سلوى. سافر قبل

Twitter: @alqareah

ولادتنا. الصورة الثانية بحوزتي. وضعتها آني في ألبوم لصور عائلتينا. ألبومات آني مليئة بصور لها، لوالديها، لإخوتها في مختلف أعمارهم ومناسباتهم. عمي انقطعت أخباره عنّا سنة تخرجي. أي السنة التي مات فيها أبي. وجدته أمي ظهراً، محني الرأس فوق السندان كأنه غاف. لم يكن قد جاوز السابعة والخمسين من عمره. أمي التي كانت وحدها، بعد زواج أخواتي وسفر ثلاث منهن إلى استراليا، لم ترض مغادرة بيتها. قالت إنها غير معتادة على بيروت. عاشت في بيت صغير، كان يقوم على الأرض المجاورة لبيتي الآن. فقدت ثلاثة أرباع قدرتها السماعية على مر السنوات. رفضت كل أنواع السماعات التي اشتريتها. تقول لا تحتمل لا الضجيج ولا الصداع اللذين تسببهما. لذلك تعذّر عليها محادثتنا أو محادثة جيرانها. لا أذكرها الآن إلاّ صامتة. عندما بنيت البيت هنا. كانت تُحرج آني من سكن أمي وحدها، على بعد أمتار منا. حاولتُ عبثاً إقناعها بالسكن معنا. وعدتها بنقل أغراضها وتخصيص غرفتين لها وحدها ومستقلتين بمدخل خاص. سألتني ما حاجتها لغرفتين ولديها بيتها الخاص.

بين أمي وآني كان الحديث صعباً حتى قبل أن تفقد سمعها. كنت الصلة بينهما. آني لا تفهم معظم ما تقوله أمي بلهجتها الجبلية. حين تريد أمي الكلام عن آني. لا تذكر لا اسمها الكامل ولا آني الاسم الذي ناديها به جميعاً. تقول: امرأة ابني الإفرنجية.

ثيابي باردة كالثلج. بللتها الرطوبة. أسير ببطء محاذراً أن تزلّ قدمي. أنفاسي ترسم غيمة بيضاء أمامي.

Twitter: @alqareah

أنام لثلاث ساعات بعمق. بعدها تبدأ الأحلام المزعجة. ثمّ اليقظة التامّة. التعب يبقيني في سريري. لا أفكّر في النهوض. ماذا يمكن أن أفعل إن جلست في الصالون أو في المطبخ. الاستلقاء قد يجلب النوم ثانية. لا أخشى الأرق بل الإنهاك الذي يرافقني طوال اليوم التالي.

مرضُ آني أعطاني قدرة وطاقة لا يملكها جسمي. الآن وقد ماتت، تسترجع أعضائي تلفها وهرمها.

البارحة حلمت بآني في منزل أهلي القديم. تجلس كأمي تنقّي عدساً، قريباً من الشباك. أرى شارل ابني. لكن وجهه لا يبقى على حال واحدة. يتحوّل تارة إلى وجه كريستيل وأخرى إلى وجه رجا. يقوم بإشعال الفرن. يريد أن يساعد أمه في خبز بضعة أرغفة. الخبز مقطوع في الأفران بسبب الحرب. آني تبتسم لخاطر في رأسها. تستمرّ بتنقية كميّة هائلة من العدس. أنظر ثانية ناحية المطبخ. أرى ناراً مستعرة تعلو لتصل إلى السقف. أدخل كالمجنون. جسد ابني الذي أسحبه يتساقط نتفاً صغيرة، يتطاير رماداً بين يدي. أهرع دون تفكير إلى آني. أجدها مستمرّة في جلوسها وشرودها. النار تشتعل

Twitter: @alqareah

في طرف ثوبها. هي لا تدري. تتسلّق النار جسدها كله قبل أن تمسك بها يداي. تطلق صرخة مفزعة كأنها تطلع من حناجر عديدة. أسحبها بكلّ قوّتي. تعاندني. تريد الدخول إلى المطبخ لسحب شارل. أقاومها بعنف. أجرّها رغماً عنها. خارجاً لا يبقى منها إلا خصلة شعر تسقط في يدي.

الألم الذي يتسبّب به الكابوس يتحوّل إلى وجع جسدي. وخز في صدري. جفاف في فمي. تقلصات في معدتي. الرعب مما شاهدت يمنع عني النوم. ماذا لو عاد الكابوس. أرى أيضاً رجا صغيراً. يتأرجح عالياً في الحديقة. تدفعه جدته أعلى وأعلى. يتغيّر المكان نهائياً. يبقى رجا على أرجوحة حبلها رفيع كالخيط. جدته تواصل دفعه. لكن نحو واد عميق، يذكّر بوادي الجماجم. يتدحرج رجا عن الأرجوحة. أندفع نحو الوادي. أراه يهوي كحصاة صغيرة إلى قعر لا تصل إليه عيناي. الكابوس بالنسبة إليّ كالحقيقة. لذلك يعتكر مزاجي. فأعتكف عن الخروج ورؤية الناس.

أفكّر بالذين يصابون بسكتة قلبية وهم نيام. أليس السبب كابوساً رأوه. أجاوز كأسي الويسكي إلى أربع وخمس. لا يتبدّل شيء سوى صعوبة في فتح العينين والتخلّص من الكابوس.

أخفف عدد الأغطية من فوقي. أرمي بأحدها أرضاً. التدفئة عالية. الحرارة تشعرني بالغثيان. أستقيم في سريري. أخلع جاكيت البيجامة. أبقى في الفانيلة.

رأسي ثقيل. يتّسع لشريط لا آخر له من الصور المخيفة.

لم أتخيّل أنني قد أصبح عجوزاً إلى هذا الحد. بلى تخيّلت

Twitter: @alqareah

وجهاً تملأه التجاعيد. لكن جسدي كان قادراً على الحركة والسير والعمل. أعرف عجائز حافظوا على صحتهم. ظننتني قادراً على إبعاد الأمراض والشيخوخة. ألست طبيباً.

أكبس زر اللمبة قربي. أضع وسادة خلف ظهري. أفتح التلفزيون. شاشته الصغيرة تشع. أقلب المحطات. أعثر على برنامج وثائقي. يتحدّث عن مصورين. رجل وزوجته يعشقان البراكين. ثلاثة أعوام يرصدان أحدها. تصوير جريء وقريب لنهر اللهب والحمم. صور لحجارة تشرقط، تتوهّج بالألوان مندفعة بقوّة هائلة كأنّها ستخرج من الشاشة. ثلاثة أعوام يدرسان خلالها محيط البركان، نوع الحشرات والجرذان، لون الحجارة، أنواع النبات لتقدير موعد ثورته. وقفا عند الفوهة. آلات التصوير مسلطة إلى أسفل. في لحظة واحدة يثور البركان، يبتلعهما إلى جوفه. صور مرعبة. من تمكّن من تصويرهما يموتان هكذا. هل من كاميرا في الجوّ؟

بعد الدعاية شريط آخر يتكلّم عن ماموت وجد مطموراً في المنطقة القطبيّة. عمره آلاف السنين. المدهش أنهم وجدوا في بطنه زهور بابونج لا تزال كما هي. أفكّر أن أصغر الأشياء يبقى. نحن لا. في الخزانة شرشف حرير موشى بخيطان ذهب كان لجدة جدة آني. فرشاة أسناني، لو تركتها مئات السنين، لن تزول. زر قميصي بإمكانه هو الآخر أن يخلد.

البرنامج التالي عن عائلة غوتشي الإيطالية. أقلب المحطة. عبد الحليم حافظ في عز شبابه. يغني، حوله فتيات يبرمن الشماسي مفتوحة فوق رؤوسهن. أخبار، مسلسلات، غناء، صور متحرّكة.

Twitter: @alqareah

أي ولد سيكون ساهراً حتى هذه الساعة؟ أطفئه. يسود الصمت ثانية.

تخطر ببالي ذكرى بعيدة عن نومة حلوة في العراء. فوقنا سماء انتشرت فيها النجوم. كان عيد مار الياس. لا أذكر عمري بالضبط. قد يكون الخامسة عشرة. ككل سنة، في مثل هذا العيد، نتوجه إلى دير مار الياس الأرثوذكسي الواقع على التلة الغربية. مكان رائع يشرف على بحر لا نعرفه إلاّ عن هذا البعد الشاسع. لم نكن وحدنا. ناس وفدوا من القرى المجاورة للاحتفال. الأجراس تدق. البنادق تطلق النار. القرويون يعزفون على البوق والناي. شربت عرقاً يومها مع رفاقي. لا أذكر منهم إلاّ سليم وحبيب مرهج. تجمعنا حول جوقة الزجل. نستمع إليها مصفقين. السهر امتد حتى ساعة متأخرة. العرق أبهجنا وأرخى أجسامنا. استلقينا على العشب. لم نأبه لعراك نشب بين شخصين من ضهور الشوير وبكفيا. نغفو. نفتح أعيننا. النجوم توّج فتنوّمنا ثانية كأن فيها قوة مغناطيسية. يدغدغنا هواء ندي. استمرّ نومنا حتى طلوع الشمس. كان بإمكاني أن أغفو فوق أرض مفروشة بالحصى وفي أي مكان. يكفي أن أنقلب على جنبي. أنام. لا أحتاج لوسادة حتى.

Twitter: @alqareah

بعد ليلة أرق. تفرحني كريستيل بزيارتها. لم أتوقّعها. تبدو لي أكثر هزالاً من السابق. كانت دائماً حريصة على رشاقتها. مصطفى يوصلها. ينزل الأغراض التي اشتراها. يوضّبها في البراد والخزائن. يحمل حقيبة كريستيل إلى غرفة النوم. ستمكث هنا إذن. تعجب من أنني وحدي دون أم السعد أو سيبالي. تريد قهوة تقول. يعدّها مصطفى خفيفة. مرارتها تقلب معدتي. أرسله إلى الصيدلية لشراء أدويتي. تناديه كريستيل. تعطيه وصفة. تضع إشارة قرب الأدوية التي تريدها. أسألها إذا كانت مريضة. تلتفت ناحية مصطفى: فيما بعد أخبرك. ليس الآن.. ينشغل بالي. ألح بالسؤال. تقول: «لا شيء، مهم. أدوية أعصاب». تخلع جزمتها الجلدية، تبقى بجوارب النيلون السوداء. ترشف فنجانها على مهل. سيجارتها تحترق في المنفضة. صارت رماداً. تنسى أنها أشعلت واحدة. تشعل أخرى. تمجّ مجة واحدة. تضعها في المنفضة.

ـ استغربتُ قدومك إلى ضهور الشوير وحدك. وفي طقس كهذا، ألاّ تضجر هنا؟

ـ البرد ليس مشكلة. هناك تدفئة.

Twitter: @alqareah

ـ اشتقت لك ولرجا كثيراً، وأنا في إيطاليا. ظننت أنني هذه المرة سأبقى في لبنان. لكن ما إن أقضي يومين حتى أفكّر بالسفر ثانية.

أسألها إن كان يزعجها وجودها في لبنان. تقول إنها ترغب في الحركة. لا تطيق البقاء في مكان واحد لوقت طويل.

تبدّل ثيابها. ترفع شعرها أيضاً. أفكّر أن الأسود ليس لونه. لقد صبغته. أرى عنقها متغضناً. عند طرف عينيها تجاعيد تشبه مروحة. إبنتي أيضاً تكبر. لا تمكث على الكنبة إلاّ دقائق. تنهض ثانية، تفتح الستارة. تبدّل درجة الحرارة. تفتح التلفزيون. تقلّب المحطات. لا تشاهد شيئاً، تطفئه. بعد دقائق تفتحه ثانية. تأتي بكوب ماء من المطبخ. تخرج إلى الحديقة تعود بزهرة. تعييني حركتها. أسألها عن شاليه فاريا علّها تجلس لبعض الوقت. تجيبني فيما تقف لتسحب كتاباً من المكتبة:

ـ «لا. السمسار أفهمني أن البيع يتطلب وقتاً وصبراً. السوق جامد». يضحكها الكتاب الذي تقلّب صفحاته. العقدة بين حاجبيها تزول. يذكّرها الكتاب بطفولتها. تستغرق في تأمّل غلافه. تتصفحه. تقرأ مقاطع منه. تنهض ناحية المكتبة. تسحب منها كتاباً تلو الآخر. تحدّث نفسها. «بلى أذكره. كنت في العاشرة، قرأته في يوم واحد».

تحمل كدسة من عشرة كتب على الأقل. منذ كم سنة لم تأتِ كريستيل إلى ضهور الشوير. منذ أواخر السبعينيات، لا حتى قبل أن تتزوج، لم تعد تأتي. صارت تبقى معي في بيروت. لهذا تتنقل الآن

Twitter: @alqareah

متأملة البيت. كأنها لا تعرفه. في الجنازة، لم تتح لها فرصة تفقده. تسألني بين الحين والآخر عن عمر بعض الأشياء. السجادة الأصفهانية مثلاً لا تذكرها. الستائر المطرزة في غرفة النوم. الشراشف فوق الطاولات. اللوحات. بعض الأواني الفضيّة. أردّ عليها انني لا أعرف. لم أنتبه أبداً.

ظهراً تقترح عليّ الذهاب إلى برمانا لنأكل في برج الحمام. تحب الطعام هناك، تقول. يوصلنا مصطفى. تطلب منه أن يعود بعد ساعة ونصف. تطلب أنواعاً من السلطة. أنا آكل دجاجاً بالصلصة البيضاء وعصافير محشوة بالفريك. أشرب كأسين من النبيذ الأبيض. كريستيل لا تشرب إلاّ ماء. معدتها تؤلمها منذ البارحة، تقول. تسحب من حقيبتها مرآة مستطيلة، إطارها مرضع بحجارة جميلة، تصلح ماكياجها خلسة. تنظر حولها. تقول: «الناس غرباء. تخيّل لا أرى وجهاً مألوفاً. كنتُ عندما أدخل مطعماً، لا بدّ أن ألتقي بأحد أعرفه. حيث أذهب الآن، لا أعرف أحداً. كأنني في كوبا أو في جامايكا».

تخبرني كيف أن الصدف، في باريس، تجمعها بالكثير من معارفها.

الصحون أمامها على حالها. «لم لا تأكلين؟» أسألها.

ـ لست جائعة كثيراً.

يوصلنا مصطفى إلى البيت، يعود هو إلى بيته. كريستيل تنام بعد الظهر. أنا أخرج إلى الشرفة. الشمس تبعث فيّ بعض الدفء رغم الهواء اللاسع. أبو مسعود يعمل في الحديقة. يزرع شتول

Twitter: @alqareah

الشربين التي اشتراها. لم أظنّها ستكون كبيرة هكذا، تخيلتها شتولاً قزمة. أحبّ الشربين. لكن ممَ يشكو الصفصاف والحور والسنديان؟ آني تحبّ الصنوبر والشربين. لذلك ليس في حديقتنا إلاّ هذان النوعان. رغم أن الحرش الملاصق لبيتنا مليء بالصنوبر. الأرجوحة التي أجلس فوقها تنيمني. أحلم أنني أتسلّق شجرة عالية جداً. عيناي معلقتان بعش عصافير في أعلاها. أشد جسدي صعوداً. أدمي يديّ. ريح تهزّ الشجرة بعنف. أستيقظ قبل أن أقع. البرد جمّد جسمي. يداي زرقاوان.

تنهض كريستيل بجفنين شديدي التورم. كأنها بكت لثلاثة أيام متواصلة. تقول إن الأدوية تسبّب ذلك: تخبرني عن علاجها النفسي. عن رأي المعالج النفساني في أزمتها. لا أقول لها إنني لا أؤمن بهذه الترهات. ليس لأنني أستخفّ بالأمراض النفسية. لكنني أرى التحليل النفسي غير مجدٍ. أتخيّل المعالج النفساني جالساً على كرسيه مفكّراً بابنه، أو زوجته أو السيّارة التي تعطلت معه في الطريق. الشقة التي ينوي شراءها. لا يرى في مرضاه إلاّ أشداقاً متحركة. مهمته انتظار الوقت يمضي. كتابة وصفات مسبقاً. الأدوية نفسها. اسم المريض وحده يتغيّر. لا أقول لكريستيل ذلك. إن صدقت أن الطبيب يشفيها، فالأفضل أن تتابع زياراتها له. ما يقلقني هو الآثار الجانبية للأدوية. أقرأ التحذيرات المرفقة بها. لا تحصى.

تتفرّج كريستيل على ألبومات الصور. تمسح دموعاً تكرج فوق خديها الشاحبين. أقول لها أن تعيد الألبومات مكانها. لا تجيب. كأنها لم تسمعني. تسحب بعض الصور من غلاف النيلون. تكدسه قربها. تقول إنّها تريد أخذها. تريني واحدة. هي فيها دون العاشرة.

Twitter: @alqareah

شارل يبدو أقصر منها، رغم أنه يكبرها بسنة. كلاهما يركب دراجة. خلفهما تظهر لافتة لمحلّ بوظة. ما عاد موجوداً الآن. تمرّر إصبعاً فوق الصور، كأنها تلامس وجوهاً فعلية. هل كانت حياتها مختلفة لو أنجبت؟ لو تزوّجت رجلاً مختلفاً عن هنري.

بينما تريني صورة لنا جميعاً في مطعم. تقول إنّها تتذكّر المناسبة كأنّها حصلت البارحة. إنه عيد ميلادها الثاني عشر. لم تعرف أنّ هناك مفاجأة أخرى بانتظارها. فقد تلقت الهدايا من الجميع. هدية هنري هي الأجمل. سلسلة فضية تتدلى منها فيروزة. عليها أول حرف من اسمها محفور بالفضة. لم تعرف أن الحفلة الفعلية ستكون ليلاً. إذ سيأتي رفاقها ورفاق هنري. ويستمرّ الرقص والسهر حتى الواحدة. أوّل مرة تسمح فيها آني بذلك.

أخبرها أن هناك أشياء لوالدتها في الخزانة هنا وفي بيروت. إن تريد منها شيئاً فلتأخذه. تقول إنّ أمّها أعطتها بعضها قبل وفاتها.

ـ سأطلب من أم السعد توضيب ثيابها في صناديق. وليعطها مصطفى لمن يريد.

تترك كريستيل الألبومات مفتوحة فوق الكنبة. أجمعها وأعيدها إلى مكانها. أراها من الواجهة الزجاجية. تقف على الشرفة مكتوفة اليدين. البرد يعيدها إلى الداخل بسرعة.

أتذكّرها صغيرة دون الثالثة. تجلس في حضني ما إن أعود من العيادة. تشكو لي أمّها بكلماتها المتعثرة. تطلب مني أن أعاقبها. أسألها عن السبب. تقول إنّ أمّها كسرت المزهرية الكبيرة. بوّلت في ثيابها. عضّت شارل. لعبت بالوحل ووسّخت ثيابها. ابنتي الآن في

Twitter: @alqareah

التاسعة والأربعين. رغم ذلك تبدو لي أضعف من طفلة في الثانية. أقترح عليها زيارة سليم وهيلدا. ترمقني هازئة. كأنها تقول ماذا أفعل عند هذين العجوزين. للحظةٍ أتمنّى أن ترحل وتدعني في سلام. حركتها المتواصلة تدوخني. كأنّ عليّ فعل شيء لا أحزر ما هو. ألا يفترض بالأدوية أن ترخي أعصابها؟

تتحمّس فجأة.

ـ سأعد لنا عشاء لم تأكل أطيب منه، سأشتري ما يلزمني من السوبرماركت. سترى كم ابنتك طباخة ماهرة.

تعود من غرفة النوم مرتدية معطفاً أسود يصل إلى كاحليها. صقيع يتسلّل من الباب الذي تصفقه خلفها.

Twitter: @alqareah

أستيقظ بجسد ثقيل. جفاف فمي لا ترطبه قنينة ماء كاملة. أعلم قبل إجراء فحص السكري بماكينتي أنه ارتفع. تشير الآلة إلى معدل 240.

الطعام الذي آكله في المطعم وفي البيت غنيّ بالدسم والنشويات، هذا عدا عن المشروب وتأثيره. كريستيل لم تأكل من المعكرونة التي حضّرتها إلاّ القليل.. أجرح ذقني أثناء الحلاقة. الدم يلطخ قبة البيجامة. التعب يمنعني من الاستحمام. كريستيل لا تزال نائمة. أفتح الستائر. توجّ أشعة الشمس فوق الزجاج. تعمي عيني. الصحو والدفء يبعثان حركة في الخارج. فوق طاولة السفرة صحون وسخة وبقايا معكرونة. الدفء أفسدها. رائحة حموضة تنبعث منها. ذبابة زرقاء كبيرة تحطّ وسط الجاط. في المطبخ الفوضى أكبر. على المجلى طناجر كبيرة وصغيرة، مصفاة كبيرة، ملاعق، مدقة ثوم، قناني خل وزيت. فوق طاولة المطبخ بقع حمراء، بقايا صلصة، أكياس المعكرونة فارغة فوق الغاز. فوط المطبخ مرمية فوق المجلى، عند مسكة الباب. الخزائن كلها مشرعة. كأن عاصفة ضربت الأواني والمرطبانات بعنف. أفتح البراد لأعدّ فطوراً خفيفاً قبل تناول أدويتي. لا أجد شيئاً مكانه. أعيد إغلاقه. أحضّر كوب

Twitter: @alqareah

حليب بلا دسم. أشربه واقفاً قبالة الواجهة. أنظر إلى الخارج. إلى السراب ترسمه الشمس فوق الأشجار وعلى أرضية الشرفة. الشرفة التي كان رجا يقضي عليها معظم نهاره. يكرّج دولاباً قديماً. ينقل تراباً من الحديقة يكوّمه على الشرفة. يقطف زهراً وأغصاناً صغيرة. يغرسها في الكومة. يصنع حديقته الخاصة. يعمّر بيتاً من قصب وقش. ينهار. يعيد تعميره. الحشرات لا يخافها. يلحق بها. يحبس بعضها في علبة كبريت. ساعات يتأمّل أوكار النمل. ضربات شمس تصيبه، يمرض. يعود في اليوم التالي، يسبق طلوع الشمس. كأنّ مكروهاً سيحصل للأوكار في غيابه. تخيفه جدته. تفهمه خطورة بعض الحشرات. تحكي له عن لدغة العقرب وأم أربع وأربعين. يلعب وحده. لا يحتاج رفيقاً. يركب دراجته ذهاباً وإياباً في الحديقة يسأل أبو مسعود إن كان يريد شيئاً من السوق. يجاريه ويوصيه على أغراض. يعود. يتظاهر بتسليمها. يشكره دافعاً ثمنها. أحياناً يراقب أبو مسعود يعمل ليتعلم منه. يعطيه بزوراً ينثرها. مرشة ماء ليسقي نبتة. يدهشه مقص التشحيل. يرجوه كي يسمح له بحمله قليلاً. يده ترتدّ إلى تحت من ثقله. يشرح له التطعيم. يمسك بيده الصغيرة، يقرّبها من النبتة. يركض إلى البيت. يخبر جدته أنه حين يكبر، سيعمل كأبي مسعود. قلق آني عليه لم يردعه من التسلّل خارجاً بعيداً عن رقابتها. تصطحبه آني في زيارة. تريد تعريفه بولد من عمره. يلتصق بها رافضاً مشاركة الولد ألعابه. عبثاً تحاول. يكوّم جسمه. ينحشر فيها ممسكاً ذراعها بقوّة. لم يكن خجلاً. كان أمراً آخر لا نفهمه. والده شارل نشأ على خلافه شعبياً. له صداقات حيثما يحلّ. في المدرسة، في ضهور الشوير في الجامعة. بعد زواجه، استمرّ بيته

Twitter: @alqareah

مليئاً بالزوار والرفاق. لا يخلو منها إلاّ في ساعات النوم. أمرّ استمرت آني بانتقاده حتى مماته. أقول لها إنهما شابان. هذا طبيعي. تلقي اللوم على سهيلة. المرأة ميزان البيت تقول. لا أذكر شارل إلاّ خارج البيت منذ كان صغيراً. صيفاً لا يدخل البيت إلاّ للنوم أو الأكل أو لتبديل قميص أو بنطال تمزق أثناء اللعب. كريستيل تفعل مثله. تقلّده كأنها أخ له لا أخت. تلبس مثله رافضة بعناد لبس الفساتين. تتسلّق الأشجار. تشاركهم التخييم ورحلات الاستكشاف في الطبيعة. تبقي شعرها مقصوصاً كالصبيان. يستمرّ ذلك حتى مراهقتها. عندما يعترض شارل على التصاقها به وملازمته في مشاويره. تهدده بإفشاء أمر يخفيه عن آني. لم يتجوّل رجا في ضهور الشوير بعيداً عن البيت والحرش. عندما كبر قليلاً، صار يدعو رفيقاً له. يقومان أثناء النهار بالتخييم في الحرش. ينصبان خيمة. يأخذان سندويشات معهما. يأكلانها في الطبيعة. يعودان أوّل الليل. يرافق جدته يوم الأحد إلى الكنيسة. لم يرفض مرة عكس شارل وكريستيل اللذين منذ صغرهما يدعيان المرض صبيحة كل أحد. يمكثان في البيت مثلي. عندما مات شارل ابني، كان رجا صغيراً يخطو أول خطواته. مع الوقت نسيت أنه حفيدي. صار ابناً لي. ترتسم ابتسامتي العريضة ما إن أقترب من باب البيت. يسمع صوت المفتاح في القفل فيركض منادياً: «دو ـ دو» الوقت الذي قضيته في ملاعبته، لم أقضه مع أيّ من ولديّ. أعجب من آني كيف تشبّه رجا بأبيه. بالنسبة إليّ رجا لا يشبه إلاّ نفسه. في قرارة نفسي، كان خضوعه لجدته وقبوله لقراراتها يقلقني.

لا يعترض على طعام. تختار جدته أو عمته ثيابه. تحدّد له وقتاً للنوم، للدرس. تعيّن له أساتذه في دروس خصوصية، تستنفذ عطلته

Twitter: @alqareah

الأسبوعية. يدرس البيانو دون رغبة. يتمرّن عليه دون تذمّر. يحسن التصرف مع الزوار. ينام عند الثامنة أيام المدرسة وأيام العطل. كريستيل وشارل كانا عكسه تماماً. يطيّران عقل آني كلما جلسنا إلى الطعام. يتحدثان لائكين الطعام بأفواه مفتوحة. يتكئان بكوعيهما على الطاولة. عندما تشكوهما أغالب ضحكي. في عيني رجا السوداوين هدوء غريب. شيء فيهما يعصر قلبي. أوّل بوادر تمرد لديه أفرحتني. صرت أؤيده في كل رأي حتى لو أغضب ذلك جدته. في تربية شارل كانت متساهلة. لم تأبه لي عندما قلت لها إنها تفسده. يرسب في البكالوريا ثلاث سنوات متتالية. يحطم سيارتين جديدتين قبل بلوغه العشرين. يسافر في عزّ امتحاناته الفصلية في الجامعة. عندما أتذكّر كل ذلك. أعجب كيف استطاع أن ينهي دراسته الجامعية. كانت آني تجد كل ما يفعله مقبولاً. شعره الطويل. سالفاه اللذان يغطيان جانبي وجهه. قميصه الذي يكشف كامل صدره. لا أعرف كيف تبدّل بعد ذلك. أهو العمر؟ أهو حبه لسهيلة أم زواجه منها.

تنهض كريستيل من نومها حوالي الظهر. تجلس على الكنبة مادةً ساقيها فوق الطاولة الصغيرة. مزاجها معتكر. تطلب من مصطفى أن يوصلها إلى بيروت. أقول له أن يحضر معه من ينظف البيت. تقول كريستيل إنّ لديها مواعيد تتعلق بعملها. لا أحاول استبقاءها.

بعد الظهر آكل حساء من الخضار. حضّرته سيبالي. البيت يسترجع سكونه ومواته.

يتصل بي ميشال جرداق. يريد أن يزورني مع زوجته بعد

Twitter: @alqareah

الظهر. يأسف لموت آني. لم يعرف إلاّ منذ اسبوع. كان عند ابنه في بوسطن. سيأتيان عند الخامسة إن لم أكن مشغولاً. أفكّر أنهما لن يمكثا طويلاً. هذه زيارة تعزية.

لدى ميشال جرداق صور قديمة يعود تاريخ أقدمها إلى 1876. أقام معرضاً لها في النادي الثقافي الفرنسي في بيروت. حاولت أن أشتري منه بعضها. لم يقبل. المال لا يهمه. إنه إرث عائلي يقول.

الصور بالأسود والأبيض. معظمها لضهور الشوير، للأديرة القديمة فوق تلالها. وجوه كثيرة. من بينها صورة لعمي الذي لم أعرفه. أحببت شراءها. سخوت في عرضي. لم يلن. المجموعة لأحد أجداده. كان صاحب حانة تبيع البقالة، ومسؤولاً عن البريد، إضافة إلى مزاولته التصوير الفوتوغرافي.

غريب كيف انقطعت أخبار عمي. بعض الشويريين أخبر أنّه أفلس ومات قهراً. آخرون قالوا إنه وُجد مقتولاً في محلّه. من بين الصور التي أردت شراءها، واحدة لمدرستي الابتدائية. وأخرى لطاحونة هوائية.

لا أظنّ أن الصور المعروضة قد التقطها جده كلّها. اعتقد أنّ ميشال جمع الكثير منها من بيوت العجائز، يعرض عليهم مالاً لقاءها. كما اشترى أثاثاً قديماً، مكاوي، طرابيش، عدة حراثة قديمة، قناديل زيت، أجراناً، مسابح، أسرّة نحاسية. تاجر بها وحقّق ثروة. الآن يعيش متنقلاً بين الشوير وأميركا حيث ابنه البكر. منذ صغري وأهل الشوير يهاجرون إلى أميركا.

لا أبدّل ثيابي. أرتدي عباءة فوق البيجامة. العتمة الآن تترسّب كالثقل في الغرفة. صوت أقدام تقترب من المدخل.

Twitter: @alqareah

يطول الصحو. تتباعد الغيوم. فأرى زرقة السماء. أجلس على الشرفة أو في الحديقة. أراقب «أبو مسعود» يبقى كل يوم لساعة أو لساعتين. يسألني متردداً لماذا لا نزرع بعض الخضار في الناحية الخلفية. هناك مساحة فارغة لا بأس بها. آني لم ترد أبداً أن يزرع الخضار. أقول له أن يفعل ما يحبّ. منذ عمل لدينا، لا أعرف له عمراً. الوجه لا يتبدّل. القامة القصيرة المحنية نفسها. اليدان المعروقتان. خشونتهما تجرح عند مصافحته. عندما يعمل وحيداً، أسمعه يغني مواويل قديمة، صوت مبحوح لا أثر فيه لجمال. يهتم أبو مسعود بحدائق أخرى في الجوار.

طوال خمسة وعشرين عاماً لم أعرف عنه بمقدار ما عرفته في أيام الصحو الأخيرة. ينطلق لسانه وحده. لا أسأله، ولا أبادر لمحادثته. ابناه الكبيران استلما أرضه. خيم الخضار تدرّ عليهما ما يستر حالهما. ابنه الصغير نافع في العلم يقول. صار معلم مدرسة. بناته زوجهن جميعهن.

ـ لم يبق غيري وغير أم مسعود. أولادي يقولون كفاك تعباً. نحن نقوم بالواجب. ارتح في آخرتك. لكني لا أحبّ أن أكون ثقلاً

Twitter: @alqareah

على أحد. أنا قادر على العمل فلِم لا أعمل؟

كان رجا مثلي يراقبه. الفارق بيننا أنني متفرّج سلبي. لا يشارك في سقاية نبتة أو تشحيل أخرى. ينكش أبو مسعود قطعة مربعة لينثر فوقها بزوراً. رائحة التراب الأحمر تعبق حوله. ينساني. يراضي صنوبرة تغزوها الديدان. يسأل زهرة عن سبب اعتلالها واصفرار أوراقها. يعاتبها: ما بك يا حلوة، ألم نضع لك سماداً؟ أو قد يحادث نفسه في أمر آخر، يتعلّق بأحفاده، أو أولاده.

اخترع له أعمالاً يقوم بها. كل يوم هناك شيء جديد أريده. يفهمني أن بعض ما أطلبه لا ينبت في مكان بهذا العلو. يسعده أن يعلمني كأنه يقول: أنت طبيب على الرأس والعين. لكن هناك أموراً أفهمها أكثر منك. صار يخبرني أيضاً عن أصحاب الحدائق التي يرعاها. عن الخواجة حبيب زغيب والقمار الذي خرب بيته وزعّل زوجته منه وأولاده. عن بيت مرهج الذين يسهرون الليل وينامون النهار بطوله. لا أفهم كل ما يقوله عندما ينزع طقم أسنانه الاصطناعية. أسأله عن عمره يرمقني بنظرة مراوغة:

ـ لا أعرف. في الهوية سجلوني سنة 1918. لكن الوالدة ـ اللّه يرحمها ـ قالت أنني ولدت قبل حرب الأربعتعش لا أعرف كم. حوالي ستين سنة. ليس أكثر.

نكتة تضحكه كثيراً. يلتفت نحوي ثانية يسألني: كم تقدر عمري؟

عندما يرحل. استمرّ في جلوسي خارجاً حتى لا يعود بإمكاني احتمال برودة الهواء. أقرأ في الكتب والموسوعات الطبية. أوراقها

Twitter: @alqareah

صفراء. تعبق في أنفي رائحة عفونة. يذهلني نسياني التام لمعلومات أساسية فيها. كأنني لم أعد طبيباً.

أضجر منها بسرعة. انصرف إلى الألبومات. كل صورة مغلّفة بالنيلون، ألصقت آني تحتها ورقة. كتبت عليها بالفرنسية، المناسبة والتاريخ والأسماء من اليسار إلى اليمين. الخط مائل متناسق. تكلّمها الفرنسية أعاق تفاهمنا منذ الخطوبة. ما كنت أعرف منها إلاّ كلمات متفرّقة أسمعها حولي، وأخرى بقيت عالقة في ذاكرتي من أيام المدرسة الابتدائية. أكلّمها بالعربية تردّ بالفرنسية. مع مرور السنوات، بتّ أجيد تكلّمها. ففي بيتي لا أسمع لغة غيرها. المرضى أيضاً يستعملون هذه اللغة لوصف أعراض مرضهم.

في الصفوف الثانوية استبدل شارل وكريستيل الفرنسية بالإنكليزية. كأنها لغتهما السرية ضدّ آني.

يعتاد أبو مسعود مؤخراً على شراء أغراض أوصيه عليها. بعضها من صنع أم مسعود كلبنة الماعز المغمورة بزيت الزيتون أو الصعتر البري المخلّل والباذنجان المكدوس. ما عدا ذلك. أعيش في كسل. أقرأ الكتب البوليسية والقصص المصوّرة التي كانت لولديّ ولرجا. أجدها مسلية. لا أتوقّف عن قراءتها إلاّ مرغماً عندما يزداد الضغط في عيني. أتّبع نظاماً غذائياً مقبولاً. ينخفض معدّل السكري إلى 150. أزور سليم كلّ بضعة أيام. تستمرّ هيلدا في إعطائي مأكولات تعدّها. تقول «إنها صحية وطبيعية من أرضنا». الجوّ يزداد دفئاً. لكنني لا زلت أرتدي معطفي الشتوي كلما خرجت أو جلست في الحديقة. تكون الشمس طالعة، والبرد يقصّ العظام. «الطقس الآن غدّار» يقول أبو مسعود. أول أزهار تبرعم فوق

Twitter: @alqareah

شجرات اللوز. لا يمرّ يوم دون أن يزورني أحد. زيارات تقصر بغياب آني. لا أجيد تسلية الناس ولا استدراجهم للحديث. لكن قدومهم يحدث تنويعاً في يومي.

قريب لأبي مسعود يأتي لأعاينه. آلام قوية في بطنه كالخناجر يقول. الألم يقطع أنفاسه. لا يتمكّن من رفع جذعه. أطلب منه فحوصات للمرارة. هذه عوارضها أقول. يستبق الأمر. يسألني: «يعني، لن يمشي الحال إلاّ بمستشفى وعملية؟».

أطمئنه إلى أنّ الإلتهاب قد يكون عارضاً. هناك أدوية جيدة. الفحوصات تحسم الأمر.

في وقت متأخر. أستقبل والدين لا أعرفهما. مخطوفي اللون، يحملان طفلهما المحموم. وجهه مستدير، خداه متوردان، حرارته تجاوز الأربعين، رموشه سوداء طويلة. في شهره السابع. يبدو ضعيفاً، حتى صراخه واهن. تقول أمه إنها ما إن تضعه في سريره غافياً حتى يصرخ ويستيقظ ثانية. لا يصدّقان أن إلتهاب أذنيه يفعل به كل هذا. أؤكّد لهما أنّ ليس به شيء آخر. يشكراني. معتذرين على لباسهما. كلاهما في البيجامة والمشاية.

أحسّ أنني كطالب في الجامعة يقوم بأول معاينة وأوّل تشخيص.

الوقت يخلق لدي عادات جديدة. من بينها نبش الأدراج والخزائن. كأنني سأجد سراً ما دفيناً، يشغلني، فأنسى. أنبش الأدراج والخزائن، أقرأ البطاقات القديمة، الفواتير. قصاصات صحف، مجلات خياطة. أتفرّج على الثياب والأحذية. الشراشف،

Twitter: @alqareah

ملاءات الأسرّة. أعجب كيف لا أذكر منها شيئاً حتى ثيابي. متى كانت لي هذه السترة النبيذية اللون؟

أسفل خزانة الأولاد أجد درجاً عالقاً. أيام وأنا أحاول فتحه. أجد فيه دفتر يوميات لكريستيل. لا أفتحه بداية. أتأمّل غلافه الزهري الباهت. القلوب الموزعة عليه. أفاجأ عندما أفتحه أنها كتبت بالعربية. في كل سطر ثلاثة أخطاء على الأقل. تعرّف بداية بنفسها. تقول إنّها تحبّ أن تكون صبياً. تحكي عن أمّها التي تحبّ شارل أكثر منها. لكنني أنا أفضلها على أخيها. في صفحات أخرى تصف رحلات إلى البرية، وكيف كانت أقوى من الصبيان جميعاً. وصلت قبلهم إلى الينبوع. وتسلّقت الشجرة أسرع منهم. لم تكتب إلاّ بضع صفحات. الصفحات الأخرى فارغة. أجد أحياناً رسالة قديمة. أقرأها. مضمونها لا يدل على كاتبها. التوقيع أسفل الصفحة لا أعرفه. أعجب من الوقت الذي أقضيه متحرزاً. قد تكون رسالة وجدها أحد الخدم أو الأولاد دسّها هنا وبقيت. فلِم أشغل بها رأسي؟ أغفو أحياناً لدقائق. ثمّ أفتح عيني. أنسى أنّ آني ليست قبالتي هناك مستلقية على الكنبة العريضة. يلزمني وقت لتتيقظ حواسي. لأدرك أنّها ليست هنا. وليست على سريرها في غرفة النوم. كأنني أعلم هذه الحقيقة لأوّل مرّة.

Twitter: @alqareah

هيلدا وسليم يأتيان باكراً. لم يكن مضى على استيقاظي ربع ساعة. أسمع جرس الباب بينما أجفف الماء عن وجهي. رائحة مناقيش تفوح من صينية تحملها. في يدها الأخرى كيس خضار. رائحة النعناع أقواها. إنّها المرّة الأولى التي يخرج فيها سليم منذ فترة. يقول إنّه يتعب من القعود في البيت. جاءا بسيّارة هيلدا البيجو. سيّارة قديمة تحبّ قيادتها. لا تأبه للقرقعة التي ترافقها في مشاويرها.

مناقيش من الخبز الأسمر صغيرة، بحجم الكف. خبزتها هيلدا. سليم كعادته، لا يأكل إلاّ قطعة صغيرة. بصعوبة، يوصل المنقوشة إلى فمه. يده تروح يميناً ويساراً قبل أن تهتدي إلى فمه. بقايا سمّاق وسمسم فوق خدّه وأنفه وعند طرفي فمه. تتأمّلها هيلدا طويلاً دون أن تجرؤ على إعطائه محرمة. تقاوم رغبة في مسحها بنفسها. تسحب محرمة من العلبة، ثم تجعكها في يدها. لا تريد أن يغضب. تشيح بوجهها بعيداً. تنهض إلى المطبخ. تقول ستعدّ شيئاً ساخناً.

السماء رمادية في الخارج. لا أثر للشمس. كأنّ الوقت مساء.

Twitter: @alqareah

نشرب القهوة متأمّلين مطراً خفيفاً ينزل صامتاً. يكرج فوق أرضية الشرفة. أذكر أيّام الحرب. القعود على نور قنديل. الحرارة تذيب أجسامنا. لا كهرباء لا ماء. لا مازوت. لا شيء. صوت انفجارات يزيد من تعرّقنا وصمتنا. أحلم بمطر ينهمر فوقنا يرطّب وجوهنا وشفاهنا. يغرق المدينة والمدافع. يطمس الأصوات كلّها عدا هدير الريح.

تحكي هيلدا عن الصوم الكبير الذي سيبدأ غداً. تسألني إن كنتُ أريد مرافقتهما غداً إلى قداس «إثنين الرماد». أقول لا.

تجمع الفناجين والصحون. تردّها إلى المطبخ. يقول سليم إن الخروج يتعبه. يلزمه وقت لينزل درجات البيت، ليجلس في السيّارة. كل شيء ومهما صغر يتحوّل عنده إلى مهمّة شاقة. في أحلامه لا يتوقّف عن السير والركض.

يذكّرني بمشوار قمنا به في صيف 1940 مع خمسة من رفاقنا في مدرسة برمانا. مشينا فيه نهاراً بكامله لنصل إلى صنين. يقول إن الحلم يعاوده باستمرار. يرى وادي الشوير، البيوت القديمة، دير مارتقلا فوق السفح المقابل في كفرسلوان. ثمّ مرورنا بقرية المروج. العشب الأخضر، الجداول المنسابة من الجبل كأنها شلالات. قطعان من الخراف والماعز. غداؤنا تحت صفصافة. ثم تسلّقنا جبل المنبوخ باتجاه صنين. رؤيتنا، فوق صنين، لبيروت والبحر يحتضنها. ثمّ الاستراحة فوق صخور باردة، عطشنا نرويه بقطع ثلجٍ لم تذبها حرارة تموز. في الحلم يتسلّق الصخور. يسبقنا ولا يتعبَ، خفيف كأنه الضباب. ليس حلماً مشوّشاً يقول. حتى

Twitter: @alqareah

الحرادين يراها تسير أمامنا. تلمع الشمس فوق جلودها. يسألني إن يحصل لي الأمر نفسه. أهزّ رأسي. لا أخبره أنّ ما يُعاد خلال نومي هو الكوابيس.

أقول لهيلدا ما كان يجدر بها إتعاب نفسها في الجلي. فهي تعلم أنّ هناك من يأتي لتنظيف البيت. تبدو سعيدة لقيامها بذلك. لا تطيق الجلوس لوقت طويل. بغمزة من عينيها، يفهم سليم أنهما سينصرفان. ينهض. أحسّ أن عصاه لن تعينه حقاً. «الأرض زلقة. هل تريد أن أساعدك؟» تسأله هيلدا. تقترب منه. يشير إليها أن تبتعد. أرافقهما إلى السيارة.

نقط ماء تلمع فوق وجوهنا كالندى لا كالمطر.

صوت التلفزيون أتركه عالياً. يصلني حيثما أكون. سيارات كثيرة تعبر. أسمع انزلاق الدواليب فوق الاسفلت الرطب. أجراس الكنيسة تقرع منذ الصباح. أتخيّل آني خارجة من غرفة نومها. حقيبة يدها تتدلى عند ساعدها. ترتدي تايوراً أسود. على رأسها منديل من الدانتيلا. في عنقها عقد. هديتي لها يوم ولادة شارل. ترمقني عاتبة على قلّة إيماني وامتناعي عن الصلاة. عطرها يملأ الغرفة. لا يُذكّر إلاّ بها. بقيت وفيةً له رغم فوات موضته. العطور التي يهدونها إياها في مناسبات مختلفة. توزعها.

كل دقيقة تمرّ تحمل لي ذكرى منها. لا ينفعني هجراني لبيتنا في بيروت. أفكّر بالورم الكبير في دماغها. كيف نما ليصبح بهذا الحجم. يوم مات شارل، بدأ الورم ذرة صغيرة كنقطة غبار. كم مرّة سألت: «لِمَ لم يقل شارل إنه ذاهب إلى بريح؟ لو قال لمنعته. كنت

Twitter: @alqareah

وقفت في دربه. هناك تاكسيات. ألف سائق. مبلغ من المال ويذهب بدلاً منه. أليس عمله توصيل الناس؟

كم عذبنا كلينا أن نرجع الزمن دائماً إلى هذه اللحظة. يدخل شارل أولاً. سهيلة خلفه تحمل رجا نائماً بين ذراعيها. مربيته سعدى، تضع أغراض رجا أرضاً. تتناوله من أمه على مهل. تدخله ليكمل نومه بعيداً عن ضجة الأصوات. الوقت كان باكراً. كلانا في ثياب النوم. نجلس إلى طاولة في المطبخ. نشرب القهوة. تسند سهيلة رأسها إلى الجدار. تبقى واقفة لا تجلس. أخالها مريضة. يقول شارل إنهما سيقومان بمشوار صغير عند صديقهم في الجميزة. تستغرب آني: «في مثل هذه الساعة المبكّرة؟» يجيب بنعم قاطعة. لا يذكر تبريراً أو توضيحاً لسبب الزيارة. يضيف أنه سيترك رجا عندنا مع مربيته بدلاً من إبقائهما وحدهما في البيت. لم نودعهما. لم نرافقهما إلى الباب. أذكر سهيلة في ثوب مطرز عند أكمامه. شارل في قميص مخطط بالأبيض والأسود. بكى رجا بعد خروجهما. لم يسكت. لم يأكل قنينة الحليب. طلبت آني أن أراه قبل ذهابي إلى العيادة. حرارته كانت تسعاً وثلاثين درجة. أضراسه الخلفية قد شقت اللثة.

يناديا جدو وتيتا ما إن يتعلّم الكلام. لا ماما وبابا. كما ينصحنا أصحابنا وأقاربنا. قالوا كي لا يحسّ بالنقص.. في الصفوف الابتدائية بدأ الأولاد يعايرونه بيتمه «ما عندك لا ماما ولا بابا» يكررون عليه كلّما نشب شجار بينهم. لا ينفع كلام جدّته ولا طمأنتها له بأن والده وأمه في مكان رائع. في السماء قرب المسيح. تستفيض في وصف جمال السماء. يسألها إن كان فيها ملعب

Twitter: @alqareah

ودراجة وسوبرمان. تقول بلى. يسألها ثانية بعد أن يتأمّل السماء مراراً، لِـمَ لا يرى والديه؟ لم يكن رجا مستسلماً لأذية الأولاد كلياً. يردّ عليهم. يقول:

«والدك وأمك سيموتان وأنت أيضاً ستموت».

تستدعينا المعلّمة المسؤولة عن صفه. تحكي عن عدائيته وقسوته. إنه لا يفعل سوى الدفاع عن نفسه، أقول. تجيبني بلؤم، وقد أختفت الابتسامة عن وجهها: «تناسيت أن مخيلة الأولاد بلا حدود».

كأنّ ناراً تشتعل في داخلي: هل تقصدين أن ما يقوله رجا كذب، فيما الأولاد الآخرون صادقون مئة في المئة؟. ثمَّ ما الذي يضطره إلى هذا الكذب؟

تقول إنه وحيد ومفسود. لم أعد بعدها أرافق آني على أي من الاجتماعات. أردت أن أسجله في مدرسة أخرى. لم توافقني: المدارس الجيدة قليلة. حتى مدرسة شارل لم تعد تتمتع بالسمعة القديمة الطيبة. لم ترد آني لرجا أن ينشأ دون رابط بوالديه. تأخذه معها، رغم معارضتي، إلى بيت أهله. تريه صورته بينهما وهو صغير. صورته بينما ترضعه أمه. صورته لحظة ولادته عارياً، والده يرفعه بين يديه ويقبله. صورته بينهما في البيت، عند الأصدقاء بين جديه لأمه. قبل بلوغه الثامنة، كان يطرح أسئلة كثيرة. تحتار آني في الإجابة عنها. «لِم لم يأخذني أبي وأمي معهما؟ ألا يحبانني؟» ثمَّ فجأة امتنع عن ذكر أي شيء يتعلّق بهما. حتى زيارة البيت كل خمسة عشر يوماً، تقوم آني بها وحدها.

Twitter: @alqareah

لا أدري لماذا لا يتذكّر سليم إلاّ لحظات عذبة من طفولتنا. من مغامراتنا المدرسية أو الجامعية. حتى أحلامه تمتلئ بالخفة. رغم مرضه يضحك ملء قلبه. أنا ماذا أفعل؟ أستعيد صوراً واحدة. تتكرّر في نومي وصحوتي إلى ما لا نهاية. مرج أخضر وولد يضع أفخاخاً للعصافير. ينام قرب جدول. يحلم ببيت هادئ دافئ يعود إليه كلّ مساء.

Twitter: @alqareah

يأتي مصطفى كلّ اثنين. أطلب منه أن يستغني عن شراء بعض الأغراض. أكتشف أنني لا أحتاج معظمها. أنواع الجبنة، آكل منها واحداً. اللبنة المعلّبة لا أحبّها. أفضّل المغموسة بالزيت. اللحوم تملأ الثلاجة. لا أدري ماذا أفعل بها. اللحوم الباردة، تبقى ملفوفة بالورق. أعطي أبا مسعود المرتديلا الطلياني والجومبون والسلامي. يتأمّلها طويلاً. يتردّد في سؤالي عنها. أقول إنها مارتديلا. يسأل لِم هي ليست في علبة. تنظيف البيت لا يستغرق أكثر من ساعتين. تقوم به سيبالي وأم السعد مداورة.

يتبدّل طعامي تدريجياً. خلال الصوم تأتيني هيلدا بخبيزة مقلية بالثوم والزيت، بهندباء برية. رائحة عجّة الشمار تُعيد صورة أمي راجعة من التسليق في الحقول. تطلع من ثيابها رائحة صعتر وبابونج. منذ أكثر من خمسين سنة لم أذق هذه الأطعمة. تخبز هيلدا فطائر أحبّها. تحشوها بالسلق والبصل والسماق، أو البقلة. كالسابق تمرّ قبل الظهر. كنت وآني نهمل ما تحضره لنا. لا نأكل منه شيئاً. مستوى السكري ينخفض إلى 120. أتمشّى في الحديقة. أدور فيها مرات. الهواء رغم برودته لم يعد يقطع الأنفاس. شعري

Twitter: @alqareah

يطول. يشبه نبتة عليق بيضاء. في المرآة لا أعرفني.

تتصل بي كريستيل. تسأل متى أعود إلى البيت. كأنّ ضهور الشوير بالنسبة إليها هي العراء. تريد أن تسافر بعد عشرة أيام تخبرني. إن تجد وقتاً ستنام عندي ليلة. رجا يتّصل بي أيضاً. شيء في صوته يقلقني.

سُمّي رجا على اسم جدّه لأمّه. أمرٌ لم يسرّ آني. أنا عكسها أحببت الاسم. قلت لها إنّ سهيلة وحيدة والديها. فما المانع من أن تسمي إبنها كجدّه؟ ثم سيكون لها أولاد آخرون، يطلقون عليهم أسماء تعجبها.

لا يعرف رجا عن ملكيته لأراضٍ وبيت في بريح. أعرف أنّ البيت نجا من الهدم والتدمير. لكن ماذا حلّ بداخله؟ لا أدري. المنطقة بكاملها لا أمرّ بها منذ عشرين سنة. حتى الأعراس والمآتم لا أشارك فيها إن كان لها علاقة بالشوف.

والدا سهيلة استقرا في بريح منذ 1981. يعودان من أفريقيا بعد بيعهما معامل النسيج والبلاستيك التي يملكانها. يريدان البقاء في لبنان قريباً من سهيلة. ما يحصلانه من مال يكفيهما ويفيض عنهما وعن أحفادهما يقولان. أحببت بيتهما. ليس واسعاً جداً. يشبه إلى حد ما البيوت القديمة. الحجارة التي لُبّس بها البيت، مأخوذة من الطبيعة دون صقل. غير متناسقة في أحجامها.

في مشوارنا الأوّل، شارل يقود بنا، أبقى ساكتاً طوال الطريق مأخوذاً بأشجار الحور والأرز والشربين. أشجار صنوبر تتجمع كغابات صغيرة عند حواف الطريق. ترتفع جذوعها النحيلة عالية

Twitter: @alqareah

جداً، كأنّها باقات. يكلّمنا شارل كأننا سوّاح أجانب. يسمي القُرى التي نمرّ بها: دير القمر، كفرحيم، بتدين، كفرنبرخ. يخفف سرعته، ويدلّنا ناحية الوادي، إلى كعبه. يقول: هذه الموشة، وتلك بريح. خضار وينابيع يرافقنا خريرها حتى نصل إلى بيت حمويه. المروج المحيطة بالبيت تمتدّ على مساحات شاسعة. يحكي أبو سهيلة عن إخضرار أفريقيا محدّقاً بالحقول المحيطة به على مدّ البصر. رجل مسلٍ لا ينتهي من حكاية حتى يسوق أخرى. يقول إن زنوج أفريقيا لا يعرفون أحداً من الأجانب باسمه الحقيقي. يطلقون على كل واحد اسم حيوان. زوجته السيدة حجلة، إبنته السيدة غزالة وهو السيد ثعلب. الغريب إنه كلما طالت جلستنا أجد شبهاً غريباً لهم بأسمائهم الأفريقية. يحكي عن معتقدات قبائلهم. عن إيمانهم أن اللّه ذو مخيلة شاسعة ومفاجئة. يستطيع أن يقلب هدوء حياتهم إلى فيضانات أو جفاف أو أوبئة تودي بحياة معظمهم. هم لا ينتحبون مثلنا، يقبلون ببساطة. فمن طبيعة اللّه أن يقوم بأمور غير متوقّعة.

أمعن النظر بسهيلة بعينيها المشروحتين وعنقها الطويل. أضحك ما إن يناديها شارل: سيدة غزالة. تعلّمت سهيلة في مدرسة فرنسية. لم تزر لبنان إلاّ مرتين سابقاً. يصرّ شارل عليها أن تتكلّم العربية. ما تكاد تتلفّظ بجملة حتى نموت ضحكاً. خليط من كلمات جبلية وأخرى فرنسية.

تعرّف شارل عليها في ضهور الشوير. كانت تقضي يومين عند رفيقة لها تعرفها من أفريقيا. حفيدي رجا يشبه أمّه كثيراً. لهما الملامح الرقيقة نفسها. طباعه لا تشبه أحداً. أستعيد ذلك النهار

Twitter: @alqareah

البعيد. شارل مسحور بكل حركة تقوم بها سهيلة. يضمّ حماته بعفوية لم يتعلّمها طوال عمره. أراه وسطهم ابناً لهم. أنتبه إلى الفرق الشاسع بين علاقته بسهيلة وعلاقاته بالأخريات.

لم تصدّقه آني عندما أخبرنا بعزمه على الزواج. تسرّ لي إنّ هذه الخطوبة وإن تمّت، لن تطول. أوّل مرة أرى فيها سهيلة، في بيتنا مع شارل، أجدها مختلفة. أتساءل ما الذي يعيبها لتنفر منها آني هكذا؟ طوال السنوات وهي تحمّل سهيلة مسؤولية ما حدث.

ثم ألم تشترِ سهيلة كل أثاث بيتهما دون استشارة آني؟ أذكر غضبها، كلماتها، الغيرة التي تتآكلها. أشفق عليها. أحاول تهدئتها فلا أفعل سوى زيادة غضبها وإتهامها لي أنني أقف في صفّ سهيلة، ضدّها.

هذا التأزم يبدأ بالزوال عندما تحبل سهيلة. تطمئن آني إلى أنها ليست كأمّها التي أمضت عشر سنوات لتنجبها. ثمَّ لتجهض بعدها كل طفل نما في رحمها. تستمع سهيلة إلى نصائح آني. تستشيرها في أشياء كثيرة. تقول إنها تجهل بيروت وعادات أهلها. آني تقرّر ما سيأكله الضيوف على العشاء، وأي مشروبات ستقدّم لهم. هدايا الزواج والإنجاب التي يُستحسن شراؤها دون غيرها. شارل أيضاً يعتاد على المرور بوالدته بعد عمله. يفعل ذلك قبل ذهابه إلى بيته. أراها تستعيد طمأنينتها وهدوءها.

تتكلّم عن سهيلة بودّ لم أعهده منها. لا أذكر على أية حال سوى أنّ سهلية فتاة قريبة من القلب. لا تجد صعوبة في التعامل مع الناس. كأنها ليست وحيدة والديها. لم تكد تنجب رجا حتى بدأت

Twitter: @alqareah

تحلم بإنجاب فتاة. شارل يريد أن ينتظر سنتين على الأقل. توافق رغماً عنها. تقول إنّها تحلم بعائلة كبيرة جداً. تريد إنجاب كل أولادها قبل بلوغها الثلاثين. لا زلنا شباباً، يقول شارل.

أبو مسعود ينثر بذوراً في المشتل. يغطيها بالنايلون. يقول: «الدفء سيسرّع في نموّها. أوّل الصيف سيكون لدينا أحسن شتول بندورة».

أتساءل ما حاجتي بشتول البندورة والباذنجان والخضار التي يزرعها أبو مسعود. كأن الصيف بعيد عني سنوات لا شهرين.

أتأمّل الشربينات الصغيرة. كم تذكّرني بآني. هل اعتقدت فعلاً أنّ العمر سيطول بها لتراها؟

Twitter: @alqareah

الفصل الثالث

رلى

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ليس صوت مكنسة كهربائية ولا مجفّفاً للشعر. أفتح عيني. ذبابة تحوّم حول حبل اللمبة. الحبل أسود. اللمبة مغطاة بطبقة كثيفة من الغبار. قبالتي طاولة. عليها أربع كؤوس وقنينة فارغة. أعقاب سجائر تطفو في كوب مليء بالماء.

أنا على كنبة مفتوحة. من باب الغرفة الموارب، أرى ستارة برتقالية، تحجب الشمس عن الشرفة. يؤلمني رأسي ما إن أرفعه. لا أذكر أين أنا. خلفي سرير. ينام فيه شخص متدثّر بلحاف. لا يبين منه إلاّ شعره المحلوق كلياً. كأنه أصلع. أبحث حولي عن حقيبتي. أراها في الزاوية فوق براد صغير. أرفع يدي بثقل. كلّ حركة تتطلب وقتاً طويلاً. حنجرتي جافة كأنّها متفسّخة. أنهض. ثيابي مجعوكة تماماً. لا أجد حذائي. أمشي حافية باتجاه الحمام. أدخل إلى مكان كالرواق الضيق. فيه مجلى وغاز بثلاثة رؤوس. بقايا تفل وطعام متحجّرة فوقه. لا يُعرف له لون. أفكّر أين يمكن أن يكون الحمام. الغرفة صغيرة. الأثاث قليل، فكيف لا أجد باب الحمام؟ أصل إليه أخيراً، عند يمين باب المدخل. أحشر جسمي فيه مواربة. أذكره بلى. لا قفل لبابه. ضيق مساحته يُذكّر بصندوق. على الجدار

Twitter: @alqareah

المقابل لباب الحمام مرآة مكسور طرفها، معلّقة بمسمار. قدماي الحافيتان تتسخان. لونهما يسود، يعلق بأسفلهما شعر، كتل غبار وتراب. البلاط أغبر داكن. أبحث عن حذائي. تحت الكنبة. تحت السرير. لا شيء. أخفض رأسي فيقوى الغثيان. أحسّ أنّ بإمكاني ترك رأسي ينفلت مني. يرتطم بالأرض. يبقى فوقها ساكناً أخيراً. ينقطع الدوار. الجينز يترك علامات كالحفر الحمراء عند خصري. تحكني وتلسعني. لماذا لم أفتح سحاب بنطالي أثناء النوم؟

ينقلب على جنبه الثاني. يصرخ صرخة واحدة. ويسكت. أنفاسي تتلاحق. أعاود الجلوس فوق الكنبة. كل شيء يصبح أبيض. كأنّ جمراً يحترق ببطء داخل عيني. أذكر الآن قدومنا إلى هنا. الصعود حتى الطابق الثامن. وليد أتى بنا. أين حذائي؟ رائحة أنفاسي كريهة. أشتمّها دون أن أفتح فمي. الشمس الآن فوق وجهه النائم. يحرّك يده. يكشّها. كأنه يطرد ذبابة. كيف أخرج حافية؟ مساحة صغيرة كيف تضيع فيها الأشياء. أجد حذائي عند زاوية الشرفة قرب كرسي خشبي بثلاث قوائم. بالقائمة المكسورة يسند باب الشرفة. لا أدري لِـم لا يحكم إغلاقه. فالطقس بارد.

الأدراج التي أنزلها تزيد من الدوار. من الشقق التي أمرّ بها تطلع أصوات مختلفة. مكنسة كهربائية، صفير طنجرة ضغط، أغان. صوت امرأة تنادي بائعاً جوّالاً في الشارع تسأله ثمن ربطة السلق.

الدرجات ضيّقة. أتعثر، أتمسك بالدرابزين. تتسخ يداي. أمسحهما ببنطال الجنيز. أحسّ أن لهاثي لقوته سيدفع السكان إلى فتح أبوابهم واستطلاع ما يجري. لا أجرؤ على الاستراحة فوق

Twitter: @alqareah

الدرجات. عليها بقع غامقة اللون. أمام الأبواب أكياس نفايات تنزّ سائلاً يكرج أحياناً ليصل إلى الطابق الأسفل. أستند إلى الجدران. قدماي ترتعشان تحتي. أنزل كسلحفاة عجوز. أجاهد لأذكر موقع هذه الشقة. أي شارع هو. أفتح حقيبتي. أتفقّد مالي. خمسة آلاف وخمسمئة ليرة. نعمة. المبلغ أكثر من كاف لإيصالي إلى البيت. أطمئن بعض الشيء. العتمة لا تشف. كأنّها مترسّبة هنا منذ ألف سنة. الضوء لا يصلها من الكوى الضيقة في الأعلى. حتى عندما أقترب من الطوابق السفلى تستمرّ عتمة الدرج. ألتقي بامرأة بدينة. تحمل أكياس خضار. تراني فتضعها أرضاً. تتأمّلني بفضول وأنا أنزل. أتخيّل غرابة منظري. شعري دون تسريح. وجهي لم أغسله. ثياب علكها النوم.

في الخارج يبهرني الضوء. كأنني سأسقط فاقدة الوعي. أستند إلى جدار دكان. أشتري منه قنينة ماء صغيرة بخمسمئة ليرة. في حقيبتي علبة أسبرين وأربع حبات لكزوتانيل. آخذ حبّة منها. أكرع بعدها ثلاثة أرباع القنينة. الجفاف في زلعومي لا يزول. كل ثانية تمرّ سيارة أجرة. أنتظر واحدة فارغة من الركاب. أقول: «ساقية الجنزير، راكبان» أجلس على المقعد الخلفي. أضغط على قلبي بيدي. علّني أخفف خفقانه السريع. يدي ترتدّ من قوّة صرباته. يسترق السائق نظرات نحوي في مرآته. يقول شيئاً ما. لا أسمعه. لا أسأله. يقطع الأمل من محادثتي. يفتح الراديو. يقلب الإبرة حتى يجد نشرة أخبار. جسمي يرتخي مرهقاً. كأنني أسير وسط مستنقع موحل. أتخبّط بين وحوله ولا تنزاح لي قدم من موضعها. عرق يسيل خلف أذني، على طول ظهري. تلتصق قميصي بي. الهواء

Twitter: @alqareah

بارد جداً. العرق يكرج، ينقط مني فوق مقعد السيارة. البرودة لا تنفد إلى داخل مسامي.

المصعد فارغ. يخيفني وجهي في المرآة. عيناي ثقبان غائران. شعري مشعث، في أذنيّ حلقة واحدة. الثانية ضاعت. ثنايا كثيرة تحت عيني حالكة اللون.

لا أجد أحداً في البيت. حذائي الرياضي يصفر فوق بلاط المدخل، يختنق فوق السجاد. حتى السيريلانكية غادرت. تأتي كل صباح تنظّف لساعتين أو ثلاث ثمّ تذهب للعمل في بيت آخر. أفتح باب غرفتي. أجلس عند طرف السرير. شرشف بلون الشمّام فرشته أمي فوق سريري. مطرّز بخيطان زرقاء وسكرية اللون. تحبّ أمي تغيير ديكور الغرف. خصوصاً ملاءات الأسرّة، الشراشف، الستائر، وجوه الكنبات والوسائد. غالباً ما أدخل غرفتي لأجدها غريبة عني. غرف رفيقاتي في المدرسة؛ أراها كما عهدتها في طفولتنا، باستثناء الصور واللوحات، لا ألحظ تبدّلاً فيها.

لا أكاد آلف شيئاً حتى يتبدّل. لا أنتعل خفين لأكثر من شهر، تبدّلها أمي وأشياء أخرى غيرها، المناشف، روبات الحمام، إطارات الصور، جرار الزرع. كأن مسافة تبعدني عن أغراضي.

أخلع ثيابي كلّها. أضعها في الغسيل. أقدامي تترك علامات سوداء فوق البلاط اللامع. أستلقي في الحوض. الماء فاتر، أزيد من سخونته. أتكئ برأسي الثقيل عند طرفه. لا قوّة عندي لأغسل رأسي أو لأفرك جسمي. بقعة زرقاء كبيرة فوق ساقي. تؤلمني ما إن أضغط إصبعاً فوقها. من الشارع يتعالى صوت مكبس يحفر

Twitter: @alqareah

الإسفلت. كأنّه ينغرز عميقاً في قلبي. جسمي لا يحتمل رأسي. أؤرجحه يميناً ويساراً.

أحلم أنني في بيت واسع معتم ورطب. إنه بيتنا أفكّر. لكن لِم الكهرباء مقطوعة عنه. أنزل الدرج لأدخل غرفة الكهرباء وأرفع زر الساعة. الباب يحدث صريراً ثمّ ينغلق خلفي. لا أرى شيئاً على الإطلاق. أتلمّس الجدران. أكبس الأزرار كلّها. لا ضوء. يتغيّر المكان. أصبح في غرفة الغسيل. عارية تماماً. كل ثيابي متسخة. أبحث عن شيء أرتديه. ألمح قميص نوم لي داخل الغسالة. أفتح بابها. أمدّ يدي لأخذه. قوّة تسحبني بعنف إلى الداخل. ينغلق باب الغسّالة. تدور بي وتدور. الماء يغمرني. يصل إلى فمي وأنفي. أدفع الباب بقدمي، برأسي، بيدي. لا ينفتح. أشهق فيما الماء يدخل في فمي، أشرق به، يندفع من منخاري كالحنفية. لا أجد هواء. أفكّر أنني الآن أختنق. أفتح عيني. الماء يلامس فمي. بارد كالثلج. قشعريرة البرد تستمرّ حتى وأنا مغمورة بأغطية صوفية في سريري. معدتي تحدث قرقعة قوية بسبب خوائها. رغم الجوع، فكرة الأكل تقززني. كلّ هذا التعب لا ينيمني. أنظر إلى مكتبتي في أقصى الغرفة. ألعب لعبتي القديمة. لربّما أغفو أثناءها. من بعيد لا أرى إلاّ ألوان الأغلفة. أحاول أن أحزر عنوان الكتاب واسم مؤلّفه. أبدأ من الرف الخامس، من اليمين إلى اليسار. ذاكرتي تخونني. أفشل في الاختبار بعد الكتاب الرابع.

صوت جرس الباب يقرع خمس مرّات. ثم يتبعه طرق قوي على الباب. أحدّق بقوّة لأرى عقربي الساعة البعيدة. كم الساعة؟ لا بدّ إنها بعد العاشرة. فأمي تذهب إلى محلّها عند العاشرة أو قبلها

Twitter: @alqareah

بقليل. كما لم تتجاوز الثانية والنصف لأنّ أختي لورا لم تعد من المدرسة بعد. أتساءل دائماً كيف خطر لأمي أن تسمينا اسمين متشابهين. المسكينة جدتي تخطئ مرّات عديدة قبل أن تنجح في لفظ اسم إحدانا. فأنا لَرا بدل رُلى. أمّا لورا فتناديها رورا.

الطرق على الباب يتوقّف. أي يوم نحن؟ أمرٌ آخر لا أحزره.

Twitter: @alqareah

أسمع المفتاح في القفل. حذاء أمي يطرق البلاط. خزانة تنفتح. صوت حنفية. خزان الماء في الحمام. ينتفض جسمي تحت الأغطية. أجفل كأنني أسقط من مكان مرتفع. أسير في أرض واسعة بيضاء تماماً. السماء بيضاء أيضاً فوقي. الكون كتلة ثلجية. أسمع صوت بحر. أمواج تهدر غير بعيدة عني. أمشي باتجاه الصوت. السماء تنخفض كلّما تقدّمت. لذلك أحني رأسي ثم كتفيّ. أرى فسحة زرقاء في البعيد. أتقدّم من البحر أكثر. لكن الثلوج أسرع مني تغمره كلّما خطوت خطوة إلى الأمام. لا يبقى منه إلاّ قطعة صغيرة جداً. دائرة بحجم الحوض. لذلك أركض بكل قوتي. الأبيض يطمسه. أحسّ أنني محشورة في مكان ضيق.

المكان يصبح مظلماً. لسبب أجهله أعجز عن تحريك جسدي. أعلم فقط أنني مسجونة داخل جمجمتي. أضربها بكل قوتي.

تدخل أمي إلى غرفتي. تقول إنها عرفت بمجيئي من الفوضى في الحمام. تعاتبني. تقول إنني شابة. رغم ذلك لا أجيد ترتيب شيء. تتأمّلني. تجسّ رأسي. منظري يخيفها. نحولي سببه أكل المطاعم تقول. تسألني: «أين نمتِ البارحة؟».

Twitter: @alqareah

ـ عند ريتا في الأشرفية.

تخرج إلى المطبخ. أفتح حقيبتي. أبتلع قرصاً آخر من المهدئ دون ماء. يترك طعماً كريهاً في فمي. أسمع صوت لورا. ركضها نحو غرفتها. حقيبتها التي تسقطها أرضاً. تقفز إلى سريري. يداها الصغيرتان تغمران رأسي. تقبّلني. تقول إنه يوم الجمعة. تشير بإصبعيها الاثنتين إلى يومي العطلة. تريد مني أن آخذها مشواراً. تكرّر كأني لم أسمع.

ـ في سبت ومبارح الأحد وبعدين بعدين مدرسة.

أصحّح لها: «بكرا السبت وبعد بكرا الأحد».

يدها الصغيرة تعبث بالأوراق والكتب فوق مكتبي. تفتح أحدها. تقول إنّ كتبي ليست جميلة. ليس فيها صور. أتذكّر الـ Papers التي وعدت بكتابتها. ما كان موضوعها. نسيته. أرفع جسمي كأنني أنتشله من واد. أقلّب الأوراق. أجدهما. الموضوع الأوّل سأكتبه لطالب فلسفة عن ماكيافلي مقابل سبعين دولاراً. الثاني عن روبرت فروست لقاء خمسين دولاراً. أفكّر بكتابة أحدهما ليلاً. أمي لن تعطيني مالاً. تقول إن مصروفي أكبر من مصروف البيت. تفتح لورا حقيبة يدي. أسحبها منها بسرعة. أضعها على رف عال في خزانتي. تأخذ قلماً أحمر سائلاً عن مكتبي تسألني إن كنت أسمح لها بالكتابة به. ترسم على ورقة بيضاء، فتاة رفيعة. رأسها أكبر من جسمها.

تقول: هذه أختي رلى. تناولني القلم. تطلب أن أرسم لها. أخربش الرسمات الوحيدة التي أجيدها. شجرة وبيت له داخون وطريق مزروع بورود.

Twitter: @alqareah

أثناء الغداء. تتكلّم لورا دون لحظة راحة واحدة. تحكي عن تلميذ في صفها، دفعها من خلف وأوقعها، شدته من شعره حتى بكى. تصف معلّمة الإنكليزية تقول: حلوة تشبه باربي.

تلتفت أمي إلى صحني الذي لا ينقص تقريباً. تقول: «كلي ستبرد الفاصوليا».

تأكلان المهلبية. صوت اللوز يهرس بين أضراسهما. أسمعه مدوياً داخل رأسي. أمّي تسأل لورا عمّ درسته. تقول حرف السين مثل ساعة، وسامي وسندويش وسبي. تصحّح لها أمي: صبيّ لا سبي.

بعد الظهر، تذهب أمّي إلى محلّها للأشغال الحرفية واليدوية. تترك أختي معي. تفرح لورا تقول: رلى ستأخذني على الكورنيش لألعب على الزلاجات.

ـ في هذا البرد. تسأل أمي.

لا تدعني لورا أتكلّم. تضمني، تقبلني: بلى رلى سنذهب أليس كذلك؟ تخشى أن يؤثّر كلام أمي على مشوارها.

لا أدري كيف سأصطحبها. ماذا لو سهوت عنها هناك. لكن لا أحبّ أن أخذلها. تركض إلى غرفتها. تحضر قبعتها الفولاذية، وأشياء بلاستيكية تلفّها حول ركبتيها ومرفقيها. «لا تضعيها الآن». لا ترد.

عيناها صافيتان تشعّان. أبيضهما يميل إلى الأزرق. أشدّ يدها الدقيقة في قبضتي. ترفع رأسها نحوي ونحن سائرتان. تبتسم لي. يرقص قلبي. هل كنتُ أشبهها؟ صوري مختلفة. ثمّ أنا بيضاء. هي سمراء يلمع جلدها كسمكة تحت الشمس. لا تتوقّف عن الأسئلة

Twitter: @alqareah

طوال الطريق تفتش في اللافتات عن أحرف تعرفها. تتهجّأها بصوت عالٍ. تخبرني إنّها حكت مع بابا في السعودية. وإذا كانت شاطرة في المدرسة، سيشتري لها دراجة أكبر. يتعبني كيس الزلاجات. كأنه يثقل مع الوقت والمسافة. أجلس على المقعد الحجري. أحدّد لها مساحة معيّنة. عليها قطعها ذهاباً وإياباً. تريد أن تبتعد أكثر. أصمّ أذني عن توسلاتها. أشعل سيجارة. عيناي معلّقتان بقدمي لورا. «لا تسرعي. لا تقتربي من الدرابزين» أكرّر. تنظر نحوي بعتب. أسكت. أقرّر ألاّ أزعجها. ينغلق جفناي رغماً عني. أحسّ أن حدقتي تصغران. نظري يزوغ كأني أرى من خلف ستارة سميكة. العداؤون والمتنزهون خيالات تتحرّك كأنّها على سطح القمر. أهبّ واقفة. أين لورا؟

ـ «ما بك، لم أبتعد». تسألني فيما يدي تعصر ذراعها. في السيّارة، تخبر لورا أمي عن سرعتها اليوم وقدرتها على السير بزلاجة واحدة. تلتفت نحوي لأؤكّد كلامها. «صحيح. صحيح». أردّد حتّى بعد أن تتوقّف عن الكلام. تظنّ أنني ألاعبها. تضحك ملء قلبها. تقلّدني قائلة: صحيح.. صحيح. تصرخ أمي بها أن تسكت.

يزورنا خالي وزوجته. أتظاهر بالنوم. تلكزني أمي مرتين دون فائدة. لحسن الحظ، زيارتهما لا تطول. أنهض بعدها، أرتدي ثيابي. أقول لأمي إنني ذاهبة عند نسرين. قد أتأخّر. لم تعد أمي تكثر من الأسئلة أو تعترض كالسابق. تتظاهر بعدم سماعي أو تبرم شفتيها امتعاضاً. لورا تحيط رقبتي بذراعيها. تقول إنها ستنام قربي الليلة. آخذ من أمي عشرين ألفاً. تقول إنّها لن تعطيني أي مبلغ آخر حتى نهاية الشهر.

Twitter: @alqareah

أتصل بوليد. يرنّ الهاتف ستّ مرّات قبل أن يجيب. أخبره إنني مقطوعة. ليس معي إلاّ عشرون ألفاً. يقول لديه بعض السجائر. هكذا يسمّي الحشيش على التلفون. سأشتري قنينتي ڤودكا أقول.

أدخل ألى سوبرماركت أبو خليل. أشتري القنينتين وعلبة مارلبورو.

السير خفيف. أمشي بسرعة. البرد لا يخفّ. أطرافي شبه متجمدة. جواربي الصوفية لا تمنع الرطوبة من التسلل إلى داخلي. جاكيت الصوف لا تفعل شيئاً لهذا الصقيع. الناس حولي في ثياب ربيعية.

لا أوقف سيارة أجرة. أستمرّ في المشي. الطريق إلى القنطاري غير بعيدة.

أفرح عندما أجد المصعد شغالاً. غالباً ما يكون معطلاً. أكبس على الزر الرابع. هناك شابان عند وليد لم أرهما من قبل. يعرّفني بهما. لا يعلق أسماهما بذاكرتي. الفتاة والشابان الآخران التقيت بهم في سهرات سابقة. أضع قنينتي الڤودكا قرب قناني النبيذ على الطاولة. نجلس أرضاً فوق بساط. الكنبة لا تتسع لنا كلّنا. الڤودكا المخلوطة بالماء تنزل حارقة في الجرعات الأولى. أعتادها بعد ذلك. وليد يلفّ سجائر الحشيشة. تمرّ علينا مداورة. لكلّ واحد مجة طويلة. في الغرفة سحابة بيضاء، رائحتها طيبة. الموسيقى التي يختارون سماعها، تفسد استرخائي. أشرب. ازداد صحواً وبرداً. الفتاة تتكئ برأسها على كتف من يجاورها. ينفرج فمها قليلاً. أفكّر

Twitter: @alqareah

أنها نائمة حقاً. ما اسمها؟ ما اسمها؟ كيف نسيته. منذ قليل ناديتها به. يخبرون نكاتاً. لا أسمعها. لكنني أضحك مثلهم. أسمع «أبو العبد..» ثمّ أتوه كأنني أدخل في غيبوبة.

أجد لورا نائمة في سريري. لا أتمكّن من خلع ثيابي أو حذائي. أتمدّد بها. أنفاس لورا دافئة تدغدغ وجهي.

الفجر يتسرّب من خلال الستارة، أزرق كالحبر.

Twitter: @alqareah

تسألني أمي لماذا لا أحمل هاتفاً خليوياً. تقول إنّ ذلك يطمئنها عليّ. أم أنني أفضّل أن أدعها هكذا محرومة من النوم. من حين لآخر، لا بدّ لها أن تعترض على خروجي الدائم وسهري أو نومي خارج البيت. أهدتني في عيد ميلادي خليوياً. لم أحمله. أقول «أكره الهاتف العادي فكيف بالخليوي». لا تستطيع أمّي أن تكذّبني. إذ لا أردّ على الهاتف حتى لو رنّ مرّات. إن اتصل أحدٌ بي. تنتهي المكالمة سريعاً. أبي يتلفن من السعودية مرتين كلّ أسبوع. يكلّم لورا وأمي. أنا لا. يعتاد على ذلك بعد أن يزعل مني ويغضب مرّات دون فائدة.

تطلب أمي أن أختار ما أريد من القمصان التي أحضرتها من محلّها.

أقول إن ذوقها جميل. فلتترك لي ما تجده مناسباً. جوابي لا يعجبها. تسحب لورا من يدها. تخرجان. لورا تقضي أيام العطل وفترات بعد الظهر مع أمّي في المحل. سابقاً كنّا نبقى معاً.

أقرأ ما كتبته عن ماكياڤلي. أعيد القراءة. يبدو لي غير مترابط. أو ربما عقلي شارد، يعجز على التركيز. لا يهمّ. اليوم سيكون

Twitter: @alqareah

بحوزتي سبعون دولاراً. في ما سبق كنتُ أكتب في أيّ موضوع دون جهد. أحتاج مالاً فأجد طلاّباً كثيرين مستعدين للدفع من خمسين إلى مئة دولار للحصول على موضوعهم. الآن لا أقوى على العمل لوقت طويل. أي جهد يهدّ جسمي.

أكره أن أعلق في هذه الدوامة. ما معي لا يكفيني ليوم. ماذا عن اليوم التالي. لماذا أفكّر باليوم التالي. المهم الآن. كيف أحصل على ثلاثين دولاراً إضافة إلى السبعين. أتذكّر المبالغ التي كنت آخذها خلسة من صندوق المحل. أتبرع لأحلّ مكان أمي صباحاً أو بعد الظهر. أحصل على ما أريد. عندما تكتشف خللاً في الحسابات. تطرد الموظفة. هكذا حصل أيضاً عندما أخذت مالاً من محفظتها. طردت البنغلادشية في اليوم التالي. الآن تقفل على حقيبتها. أمّا المحل فلم أعد أعرض عليها الحلول مكانها. حتى الحلى التي لي. تودعها المخبأ السري في خزانة غرفتها. تعلم أنني لا ألبس لا العقود ولا الأساور أو الخواتم الذهبية التي يشتري أبي معظمها. ليس بإمكاني فجأة أن أطلب منها شيئاً كهذا.

القرطان تصدّق أنني أضعتهما. ليس بإمكاني استعمال الكذبة مرتين. لِـمَ لا أكتب عن فروست. يصيبني المرض لمجرّد التفكير بذلك. أي حلّ آخر أملك؟

لا أنتبه للوقت الذي أقضيه في نسخ معلومات من المرجع، إلاّ حين أسمع الباب يُفتح. فجأة أنتبه إلى أنه يوم السبت. كيف أنسى أمراً كهذا. أجمع الأوراق. أخرج غير مهتمة باعتراض أمي. «على الأقل كلي معنا ثمّ اخرجي». أفكّر أنني ربما أجدهما. الجميع يغادر الـ Dorms في عطلة الأسبوع.

Twitter: @alqareah

أتمدّد فوق المقعد. حقيبتي تحت رأسي. الموضوعان مطويان في داخلها. الهواء يجمّد الدم النازف من منخاري. لا أحد في المباني تقريباً. تتحرّك الأغصان فوقي كمروحة. ترشّني بنقاط مطر. لا أعرف متى أمطرت. ربما وأنا منشغلة بفروست. أفكّر برواية قرأتها. فتاة وشاب يقرّران أن يركبا باصاً. عندما يتوقّف يستقلان آخر. هكذا إلى ما لا نهاية. يغفوان فيه. لا حياة لهما خارجه. أحسّ أنني متكئة على زجاج نافذة الباص. ارتجاجاته تنيمني. أفتح عيني. خيالات الأشجار كالأشباح في العتمة. ضوء شحيح ينير وجوه النائمين بهناء، منذ متى لم أقرأ كتاباً بكامله؟ حتى المقاطع التي أحبّها، أنسى موضعها في الكتب. الحريق يستمرّ في أنفي. لا ينفعه المرهم الذي أعطاني وليد إياه. أمي تقول إن عليّ مداواة هذا الرشح المزمن. وأن أدفئ نفسي أكثر. أشعل سيجارة. الحشيشة تعوّدني هذه المجّات الطويلة. أنسى أنها سيجارة عادية. أرمي عقب السيجارة دون أن أطفئه. دعسات تقترب مني. أغمض عيني. لورا على الأرجوحة الأفعوانية. تضحك. تلوّح لي بيدها، تدور الأرجوحة أسرع وأسرع. يصيح الأولاد كلهم صيحة حماس. لا خوف. الناس حولي يراقبون أولادهم، أو يشترون تذاكر للعبة أخرى. أحسّ بعطش قوي. أستدير لأشتري قنينة ماء باردة. أكرعها، لا أرتوي. عطشي يزيد. أعود أدراجي. المكان يعتم بسرعة. يخلو من الناس فجأة. لورا وحدها فوق. الأرجوحة تزيد من دورانها السريع. تنفلت لورا عن مقعدها. يعلق طرف ثوبها. القماش يتمزّق رويداً. عيناها فاغرتان من الرعب. أحملق ثانية. لا أجدها. مزق ثوبها عالقة بالمقعد. أفتح عيني. إنه كابوس أقول،

Twitter: @alqareah

لورا فوق الدراجة. أنا أيضاً. نتسابق في وسط المدينة. تكرج درّاجة لورا. الطريق ينحدر كالوادي. في أسفله بحر هادر. أدوّس. أدوّس. لا ألحق بلورا. «إضغطي المكابح» أصرخ. أفتح عيني. الماء يبلّل وجهي. الرذاذ يُرطب ثيابي. أبقى تحت المطر وقتاً. أحاول أن أستعيد توازني. أبتلع حبّة لكزوتانيل. أحسّ أنني سأخرّ أرضاً إن وقفت على قدميّ.

لا أذكر أين التقيت بجوزيف. أجلس الآن قبالته، في مقهى في شارع المكحول. يقول: «إشربي الشاي سيدفئك».

أفكّر منذ متى لم يفعل أحد شيئاً لطيفاً من أجلي. يقول إنني أعاني من فقر دم أكيد. أنظر حولي. ليس المكان مقهى. إنه مطعم. لوائح الطعام موزّعة على الطاولات الفارغة. يقترب النادل حاملاً قلماً وورقة. يسأل إن كنّا جاهزين. يتظاهر جوزيف بقراءة اللائحة. يقول: بعد قليل. نضحك. نقرّر الخروج قبل أن يحشرنا النادل ثانية. يرفض جوزيف أن نتقاسم فاتورة الشاي. المطر يتوقف ما إن نصل قرب مكتبة مالك. يقول إنه ذاهب ليدرس في غرفته. أنا أكمل سيري ببطء. أنزل في برك ماء. لا أنتبه. أفكّر بالذهاب عند وليد. لربّما وُفّق بنصف غرام أو بغرام. لكن ما الذي يدفعه إلى تقاسمه معي. لا أحد يعرف أحداً عندما يتعلّق الأمر بالكوكايين. قد يعطيني مجّة حشيشة، كأس مشروب لا أكثر.

لكثرة ما أنسى أحسّ أنني أفقد ذاكرتي تدريجيّاً. إن أفقدها هل أنسى فعلاً كل ذلك؟ أبدّل سيري. أمشي باتجاه مصرف لبنان. أقول: عندما أصل هناك، أقرّر إن كنت سأمرّ بوليد أم لا.

أقف أمام بيتزا هات. أجلس عند طرف البركة. لا أدري أين

Twitter: @alqareah

أذهب. أسرع في السير باتجاه الكونكورد. أمام محل زارا للثياب، تقف مجموعة من الشبان. إنهم في مثل عمري تقريباً. يضحكني أن أظنّ ذلك. لو لمحني أحدهم، لأعتقد أنني في أول الثلاثينات على الأقل. الكثير غيرهم يقفون أمام مدخل السينما في الأسفل. الفيلم لم يبدأ بعد.

أين أذهب؟ هل أركض كما في تلك الرواية، دون توقّف حتى يبتعلني المحيط؟

تسخّن أمي العشاء. معكرونة بالفطر والفليفلة والحرّ والبندورة. تجلس قبالتي. تأكل جزراً مغمساً بالحامض والملح. تستعيض به عن العشاء. تنتبه لوزنها. منذ ست سنوات أي منذ إنجاب لورا، زاد وزنها. تقول هناك خمسة كيلوغرامات لا تزول حتى لو صامت. تخبرني إن أبي سيأتي إلى لبنان خلال الأسبوع القادم.

لا أتمكّن من النوم. أخرج إلى الشرفة. أدخن سيجارة، بيجامتي ينفخها الهواء البارد. أبدو كالبالون. في صمت الليل، أسمع أمواج البحر. أتكئ على الدرابزين. في الشارع رجل يصطدم بسيارة أخرى بينما يركن سيارته. يزعق جرس الإنذار عالياً.

أتذكّر لحظات قديمة. في الثانية عشرة من عمري. على الكومودينة ثلاثة كتب لم أقرأها لآغاتا كريستي. اشتراها لي خالي: عشرة عبيد صغار، خمسة خنازير صغيرة، جريمة في النيل. تنام أمي. أشعل المصباح قرب سريري. أقرأ حتى يتسرّب الفجر إلى غرفتي. عيناي تؤلمانني. أغمضهما. يرتعش الجفنان. تظنني مريضة عندما توقظني. لا أذهب إلى المدرسة. نهار آخر. أقرأ فيه دون توقّف.

Twitter: @alqareah

إنها المرّة الثانية التي نأتي فيها إلى غرفة سعد في رأس النبع. كان هو مَنْ نمتُ عنده منذ أيّام. يقول وليد إنني غفوت. لم تنجح محاولاتهم في إيقاظي. فبقيت. يطلب منا سعد خفض أصواتنا. يخشى حشرية الجيران. خصوصاً إنّ صاحب الملك يسكن في أحد الطوابق.

نتجمّع حول الطاولة. صمت يحلّ علينا. عيوننا تراقب يدي سعد. نقطة شحيحة فوق حبّة سكر. ننتظر دورنا. إنّها المرّة الأولى التي أجرّب فيها ألـ L.S.D. وليد جرّب أيضاً الفينسيكليدين والأمفتامين إضافة إلى الكوكايين. تعرّفت على وليد من خلال جهاد. كان يدرس حينها الصيدلة في L.A.U. لا زال أهله يظنونه طالباً. يزورهم في حاصبيا في فترات متباعدة. يتحجّج بالدرس. هم مزارعون. يتاجرون بالزيت والزيتون. والداه غير متعلّمين. يخبرني إنّ كل أقاربه يأتون للسلام عليه، في كلّ مرة يعود فيها من بيروت.

أحياناً أجده في حالة من الهذيان المستمرّ. يحكي عن كرهه لنفسه. يعدّد كل فعل نذل قام به. ألا يصرف أموالاً من المفترض أن تكون أقساطاً جامعية؟ أيّام تمر لا ينام خلالها. أحياناً يخيّل إليه أنّ

Twitter: @alqareah

شخصاً ما يتبعه أينما يسير. لا بدّ أنّه وديع أبو عجرم. بلى إنّه ينوي قتله أو فضحه أمام أهله وأقاربه. ألا يكرهه منذ كانا صغيرين؛ مراتٍ ينظر إليّ بغرابة حين يفتح الباب. يسألني من أرسلني. ماذا أريد منه. أو يرفع كميه. يريني البقع الحمراء فوق جلده. من نقل إليّ هذه العدوى؟ يسأل.

اعتاد على هذه الحالات التي كما تأتي تختفي. أقول له أخرج إلى الشمس. ألا ترى لونك؟ جلدك يتآكل من قلّة النور والهواء. خروجه من البيت لا يحصل إلاّ اضطراريّاً. عيناه لا تهدآن في محجريهما. أكتشف مؤخّراً أنّه يخفي سكين مطبخ صغيراً في جيب بنطاله. لا يطمئن دون ذلك. يطلب مني أن أمشي أمامه أو عن يساره، حسب الخطر.

أحسّ أنّه الأقرب إليّ. صحيح أنّه لا يستمع إلى ما أقوله. وينسى على الأرجح وجهي إن غبت أسبوعاً. لكن شيئاً فيه، ربّما ضعفه أو حكاية والديه العجوزين، تقرّبني منه. ثمّ إن لم يكن مذعوراً، يتحوّل إلى شخص وديع. حاول أن يُسكِن معه شخصاً آخر، ليوفّر نصف بدل الإيجار. لكنه ارتاب بشأن الساكن الجديد بعد يومين فقط. طلب منه المغادرة وإبلاغ وديع أبو عجرم أن حيله لا تنطلي عليه.

أمرّ به كثيراً. في كل الأوقات. مع أنه يستجوبني قبل أن يفتح لي الباب. كما أنه الوحيد فينا الذي يملك سكناً مستقلاً.

مؤخّراً نشتري من سعد ما نريد. إذا سهر معنا، يشاركنا المشروب والحشيشة فقط. الأصناف الأخرى يتاجر بها. يقول

Twitter: @alqareah

تحسين، ما إن تمضي ربع ساعة، إنّ علينا الخروج دون ضجة. لا يريد سعد أن يصبح مشبوهاً بين جيرانه. إذا أردنا منه شيئاً يقابلنا عند وليد. ثمّ إنه سيبدّل مسكنه وينتقل إلى شقة أخرى.

أحسّ أنّ بإمكاني الطيران. بقفزة واحدة قد أنزل عشر درجات. يسأل تحسين هامساً: «أين نذهب برأيكم؟» لا أحد يريد السهر في شقة وليد.

يركب تحسين وصاحبته الصغيرة سوزان سيّارة جهاد: جيب شيروكي. أجرّ وليد من يده لنركب مع علي وصاحبته عبير.

يتسابق علي وجهاد طوال الطريق. يسير علي بشكل متعرّج ليسدّ الطريق. السرعة تقلب معدتي. يرتطم رأسي بسقف السيارة عندما يدوس المكابح فجأة. عبير تتكئ إلى شباك السيارة. دموعها تكرج غزيرة فوق وجهها، لا يبدو أن علي ينتبه لما يحصل قربه. تأتي عبير معه دائماً. أظنّ أنها تكبره بسنوات. أو هكذا يبدو عليها. كأنّها في أوائل الثلاثين. عادة تدخّن الحشيشة وتشرب كثيراً. إنّها المرة الأولى التي أراها تجرّب شيئاً مختلفاً. علي عكسها يزعم أنّه جرّب كلّ شيء. لكنه يفضّل الحبوب. «خفيفة، نظيفة». يقول. يعمل سائقاً خصوصياً عند عجوز أرملة. سيّارة الفورد التي يقودها هي ملكها. عندما تقصّر السيّارة في بلوغ السرعة التي يريد، يلعن العجوز وسيارتها. درس علي في الجامعة اللبنانية. رسب في كلية العلوم ثم في علم الاجتماع. في السهرات يخبرنا عن الأرملة. يقلّد بطأها في الكلام والمشي. يقول إنّها حين تريد وضع أحمر الشفاه، تبحث عن شفتيها. لا تجدهما. لذلك ترسم خطين عريضين

Twitter: @alqareah

أحمرين كيفما كان. يُخبر أيضاً عن ابنتها الأربعينية التي تنظر إليه نظرات غير بريئة. حين تلكزه عبير في خاصرته. يقول إن سجيناً أمضى أربعين سنة في الحبس، لا تهفه نفسه عليها. لكنها ابنة كريمة. لا تطلب خدمة إلاّ وتدفع مقابلها بسخاء. عكس العجوز البخيلة. تدّقق بسعر كل غرضٍ يشتريه لها. تؤنّبه إن اشترى أوقية ونصف من اللحم بدلاً من أوقية. «لم أطلب كلّ هذا اللحم» تقول. حين تقدّم له حلوى أو شيئاً ما، يفهم أن مدة الصلاحية انتهت منذ زمن. تريد أن يأكلها بدلاً من أن ترميها. يقول «لو أطعمتها لكلب، يموت فوراً في أرضه».

يضحك، فتبرز أكثر أسنانه الأمامية. جهاد لم يتمكّن من تجاوزه. وليد يضع يده في جيبه. أفكّر أنه يضغط على السكين يهمس لي: «ألم أقل لك. إنهم يطاردونني». ينزل رأسه، يتقوقع خلف مقعد عبير. في BO18 لا يسمحون لنا بالدخول. يقترح جهاد أن نذهب إلى Acide في سن الفيل. يترجّل علي من السيّارة. لا ينتبه إلى عبير تستمرّ في بكائها. ترفع قدميها. تطويهما فوق المقعد. يتعالى نحيبها. يرتجّ صدرها بقوّة. وليد لا يريد أن يخرج من السيّارة. أقول له إن لا أحد يلحق بنا. علي استطاع أن يضلّلهم. أجرّه من يده. عبير تضرب زجاج النافذة بمقدم رأسها. أرى علي عائداً باتجاهها. يفتح الباب. يحملها كأنّها ريشة. يوقفها على قدميها. يصفعها. شابان يقتربان. الفتاتان معهما تبقيان على مسافة. يسألان عمّا يحصل. يشتمهما علي. لا دخل لكم. يرفع قبضته في وجههما. يسرعان في الابتعاد. دخل تحسين وسوزان وجهاد قبلنا. عليّ يسبّ: «لا تفعلين سوى إفساد المزاج. النكد هوايتك هذه

Twitter: @alqareah

الأيام. من يجبرك على مرافقتي حيثما أذهب؟» يحتقنّ وجهه. تتوقّف عبير عن البكاء. كأنّ شيئاً لم يكن. لم أعرف عملها إلاّ صدفة. دخلتُ محلاً لبيع العباءات الشرقية في مار إلياس. أرادت أمي أن تتأكّد من سعر بعضها. زبونة أخبرتها أنّ هذا المحل يبيعها نفسها بسعر أبخس. رأيتها هناك. تظاهرنا أننا لا نعرف بعضنا. لا أدري لماذا.

على الحلبة يقترب جهاد مني. يريد أن يرقص معي. أدفعه بكلّ قوتي. يرتدّ إلى خلف. يسقط على الراقصين. تعلو أصواتهم معترضة على قلّة الذوق. إحداهن تعود مكانها وهي تعرج. تحسين يرقص مع سوزان. كم عمرها؟ سبعة عشر عاماً. إنّها طفلة أفكّر. هكذا هو تحسين دائماً. يفضّل صاحباته أصغر منه بعشر سنوات على الأقل. يحملها. تصرخ ضاحكة. يضعها فوق الطاولة لترقص.

وليد يجلس إلى الطاولة في الزاوية. يشعل كأس سامبوكا. يكرعه. أشتري كأس T.G.V تكيلا وجين وڤودكا، أشربه جالسة قرب وليد. يرفض أن يغادر مكانه ليرقص. يقول إن عليه أن يراقب جيداً. لا أحد يعلم ما قد يحصل. رأسي يومض مع الأنوار. جهاد يتحرّش بفتاة طويلة. ترتدي بلوزة بلا أكمام مكشوفة البطن. من عبوسها، أعلم أنّها تسمعه ما لا يرضيه. لا أصدّق أنني أحببته كالمجنونة ذات يوم. يثقل جسدي فوق الكرسي. أفقد الرغبة في الرقص أو الحركة. وليد يرفض أن يشتري لي كأساً أخرى. لا يريد أن يقوم من مكانه. سيجارتي تحرق إصبعي. أرميها فوق الطاولة. يضعها وليد في المنفضة. لا تكفّ عيناه الحمراوان عن مراقبة الباب. أتساءل هل أبدو مثله؟

Twitter: @alqareah

نخرج معاً. نجلس فوق سيارة علي. نرتجف كلانا من البرد. نجد أحد أبواب السيارة مفتوحاً. نغفو على المقعد الخلفي.

حين يعود علي وعبير، تكون العتمة قد خفّت.

Twitter: @alqareah

أحاول أن أفتح عيني. أغطس في النوم، في اللحظة نفسها. لا أدري منذ متى أنا نائمة. أحسّ بلورا تدخل غرفتي. تجلس فوق سريري. تناديني. لا أردّ. لكنّها تحكي كأنني أسمعها. أمّي تهزّني. تسألني إن كنت مريضة. كيف يُمكن أن أنام لأكثر من أربع وعشرين ساعة. لا أرفع رأسي عن الوسادة، إلاّ حين أسمعها تقول: «صحتك لا تعجبني. سآخذ موعداً من الدكتور».

أفكّر أنني مريضة فعلاً. كلّ هذا النوم وقلبي يخفق كالمجنون. الطريق إلى الحمام بعيد. أتكئ على الجدران قبل أن أصل إليه. لولا أمي، أعود للنوم ثانية. أرتدي ثيابي المرمية فوق الكرسي. رائحة التبغ تفوح منها قوية. تقول أمي إنّها لا تفهمني، إمّا نائمة، إمّا خارج البيت. ماذا سيقول أبي عندما يأتي. هكذا هي لا تتشدّد إلاّ حين يقترب موعد وصول أبي. تخشى أن يردّد كعادته أنني فتاة مفسودة. لم يعلّمني أحد الأدب. مجرّد التفكير بقدومه يقتلني.

ـ «على الأقلّ ارتدي معطفاً، ألا تسمعين الأمطار» تقول.

أدخل إلى دكان. اتصل بوليد. خطّه مشغول. طوال الطريق،

Twitter: @alqareah

أحاول الاتصال به. الخطّ يبقى مشغولاً. المظلّة التي أحملها، ترفع الريح قضبانها الحديد إلى أعلى. أقف في مدخل بناية. أحاول أن أصلحها. إثنان من قضبانها ينكسران. رغم ذلك أبقيها فوق رأسي. ثمّ أرميها على بعد خطوات. أضعها عند حافة الرصيف. أقف في مدخل بناية أخرى. يقترب مني الناطور. يسألني:

ـ من تريدين؟

أقول: «لا أحد. أحتمي من المطر فقط».

يقول إن ثيابي تنقط ماء وستوسّخ المدخل. أنظر إلى الرخام ذي المربعات السوداء والبيضاء. أتمنّى لو كان حذائي موحلاً لألطخه. في الشارع أحسّ أن غضبي يكبر كلّما خطوت خطوة إضافية. بإمكاني قتل الناطور في هذه اللحظة. أتخيّل كلاماً جارحاً مهيناً. أرد به عليه. أعذّله في مخيلتي ليكون أقسى وأقسى في كلّ مرّة. رغم البرد، غضبي يرفع حرارتي.

خط وليد لا يزال مشغولاً. ليس من عادته أن يطيل الكلام مع أحد. سأدخل إلى مكتبة الجامعة. أستعير الكتب التي تلزمني. ستدفع لي الطالبة في علم النفس ثمانين دولاراً. الموضوع عن الأساطير اليونانية. العمل يخفّ في الآونة الأخيرة. ربّما لأنني صرت أكتفي بنسخ المعلومات كيفما اتفق. أو لأنّ الفصل الثاني بدأ لتوه.

الأمر الوحيد المميّز في عودة أبي هو أنّه يعطيني في كلّ مرّة مبلغاً كبيراً. يقول: «اشتري لنفسك ثياباً. لم أتمكّن من شراء هدية لك. تعرفين ضيق وقتي».

Twitter: @alqareah

في المكتبة أخلع معطفي الذي أثقله المطر. أفرده فوق الكرسي ليجفّ. لا أذكر أنني استعرت الكتب التي يطالبونني بردّها وبدفع غرامة التأخّر.

أمام بوابة الجامع ألمح رجا في سيّارته. أناديه. لا يسمعني. أركض خلف السيّارة. أطرق معدن صندوقها. لا ينتبه أيضاً. من فترة لم أره. منذ أعرفه، أحسّ وجهه إليفاً. يذكّرني بجاد. هكذا حين أنظر إليه أعود إلى أجمل فترة في حياتي. كنتُ في الصف الثاني المتوسّط عندما تسجّل جاد في مدرستي. لكن في الفرع الفرنسي. في بداية السنة خسرت صداقتي بهبة، رفيقتي منذ الصف الثالث الابتدائي. عادت من العطلة الصيفية مختلفة. صارت تلازم غيدا. تتهامسان في حضوري. أو تقول إحداهما للأخرى: «سأخبرك في ما بعد». أكتشف أنهما تقومان بمشاوير لا تخبرانني عنها. هل السبب أنني عدتُ من العطلة بجسم صغير؟ عكسها. لم تعد هبة تزورني أو تتصل بي. كأنني غير موجودة. لم أخبر أمّي شيئاً. تحاول استدراجي. تسألني عن هبة. أجيبها ببرودة. أحكي عمّا فعلناه. كأنّ شيئاً لم يتغيّر. أختلق أعذاراً تتعلّق بالدروس لأبرّر عدم تبادلنا للزيارات كالسابق. صرت أكتب فروض البيت في الفرص. أو أذهب إلى المكتبة. أقرأ طوال الوقت. حتى في الصف، خصوصاً في ساعات التاريخ والجغرافيا.

لم أتعرّف بجاد إلاّ بعد أكثر من شهر على قدومه. كان يجلس على حافة حجرية غير بعيد عني. يتابع مثلي مشادة بين تلميذين أعلى منا صفاً. ثمّ راحا يتضاربان ويتدافعان. عندما يتسارع الجميع لإبعادهما قبل وصول الناظر، نبتعد كلانا. يقول إنّ أكثر ما يكرهه

Twitter: @alqareah

أن يجعله أحدهم شاهداً أمام الناظر. أقول: أنا كذلك. نبقى معاً حتى آخر الفرصة. لا أذكر عمّا تكلّمنا. لكننا هكذا صرنا نجتمع في كل الفرص كأننا على موعد. أحياناً ينضمّ إلينا رفيق له في صفّه. كان جاد يحدّثني عن الموسيقى التي يسمعها. يسجّل لي الأغاني التي نحبّها. أو تعلّمت أن أسمعها وأحبّها. ويعيرني مجلاّت عن الفِرق الموسيقية. فيها كلمات الأغاني التي نفضلها. اشترينا معاً زلاجات. كنا نتمرّن على شرفة منزلنا. أمي تفرح عندما تجد أن لديّ صديقاً. فهمتْ أن علاقتي بهبة قد انتهت.

كنا نذهب أيضاً إلى بيته. يكون مع أخيه الذي يصغره بعامين. والدته تتأخّر في عملها في السفارة. لم أعلم حينها ماذا تعني سفارة. ظننتها تعمل مضيفة، وسفارة تعني بالنسبة إليّ السفر. كان أخوه يشاركنا اللعب. عندما تصعب عليه مجاراتنا. يحرد ويزعل. فيترك له جاد حرية اختيار اللعبة التي يحبّها. لعبة الحزازير كانت المفضّلة عندي. نذكر مداورة كلمتين من الأغنية، على الآخر أن يعرفها. عند الخامسة أو قبلها. تزمّر أمي، فأنزل. لم أرَ والدته إلاّ مرّات قليلة. امرأة طويلة. عريضة الكتفين. تتكلّم بالفرنسية. عبثاً يفهمها جاد أنني أتعلّم الإنكليزية. ولا أفهم ما تقوله. تستمّر كأنّها لم تسمع. حضورها كان يربكني. ربّما لأنني معتادة على اللعب في بيتها خلال غيابها. كان بيت جاد في شارع جاندارك. في كلّ مرة أمرّ بالشارع، أنظر إلى بيته في الطابق الثالث. الستائر لم تعد مقلّمة بالأبيض والأخضر. صارت كستنائية اللون. أحياناً ألمح صبيين صغيرين من خلال الدرابزين يتطاولان على رؤوس أصابعهما للتفرّج على الشارع. في آخر السنة الدراسية. تطلّق والداه. انتقل مع أخيه

Twitter: @alqareah

للعيش مع والدهما في دبي. لا زلتُ أحتفظ بالبطاقة التي أرسلها إليّ. صورة لحديقة عامة في دبي. على قفاها كتب أنه تسجّل في مدرسة ماسينيون الفرنسية. ليس لديه رفاق فيها بعد. يفتقد لبنان كثيراً ومدرسته فيها. إذا سمح له والده قضاء عطلة الميلاد ورأس السنة في لبنان، سيزورني. لقد سجّل لي أغاني جميلة. عندما أتعب أو أشعر أنني وحيدة. أفكّر بجاد. لماذا لم أكتب له. لا أدري أبداً. رجا يذكّرني به. هل حبّه للموسيقى هو السبب؟ أم طريقته في الكلام. كأنّ الكلمات تطلع من أعماق جرة.

المقاهي شبه فارغة. الجالسون فيها يتأمّلون المارة القلائل. البائع عند كشك المجلاّت والجرائد يغطي رأسه بكيس نيلون أزرق. العرق يسيل من بصيلات شعري حتى. تزعجني نوبات التعرّق، يتبعها دائماً برد شديد. يجفّ حلقي. أنظر إلى محل العصير على الناحية الأخرى. أقطع الطريق. أشتري قنينة ماء كبيرة. ينظر إليّ البائع أعبّ أكثر من نصفها. اتصل من عنده بوليد. الخط مشغول. أستند إلى جدار الكنيسة. أبتلع حبتي مهدئ. أتذكّر الوعد الذي قطعته على نفسي منذ يومين. هل سأتمكّن من تنفيذه؟.

في السيّارة التي تتوقّف عند الإشارة. أرى نسرين، أسرع كي لا تراني. كانت صديقة لي في السنة الثالثة الثانوية، وفي سنتي الجامعية الأولى. ثمّ تباعدنا. رفاقي لا يعجبونها. أحسّ كأن ألف سنة تفصلني عنها.

التعب يشلّ قدمي. هل أوقف سيارة أجرة وأذهب عن وليد؟ أم أعود إلى البيت؟ الشارع، بأسفلته الرطب، يذكّرني بأحد أحلامي، حيث أمشي في شوارع أعلم أنّها بيروت. لكنني لا أجد محلاً أو

Twitter: @alqareah

مقهى أو بناية أعرفها. كلّها غريبة. الوجوه خلف الشرفات جامدة كأنّها داخل صور فوتوغرافية. المباني بلا مداخل وكذلك المحلات. المقاهي لا شيء فيها سوى ركام من الأخشاب والكراسي المخلّعة. الإسفلت يختفي. الطرق موحشة، تمتلئ بالحصى. أبحث عن بيتي طويلاً. كل شيء يعتم. أدبّ على أربع حتى أصل. لا أجد من بيتي إلاّ جداراً واحداً ليس من باطون حتى. أحجار مرصوفة فوق بعضها. الريح كلّما هبّت تسقط بضعة حجارة منه.

Twitter: @alqareah

توقظني لورا. تضع يدها فوق رأسي. تنادي، رلى... رلى حتى أفتح عيني. أرى صورة سنوبي فوق جاكيت البيجامة. خصلات من شعرها تغطي جبهتها. عيناها فرحتان. تقول: «رلى. اليوم سيأتي بابا».

أردّ بغضب: «أتعلمين كم الساعة الآن؟».

ـ «دعيني أنام. أبوك يا مجنونة لن يأتي إلاّ الخامسة بعد الظهر. هناك بعد إثنتا عشرة ساعة على الأقل».

لا تتزحزح من مكانها. تتسلّق سريري. تحشر جسمها تحت الغطاء قربي. تضع ورقة كبيرة تحملها فوق اللحاف: «انظري الرسمة. سأعطيها لبابا. هي هي جميلة؟».

ـ «إما تنامين ساكتة، أو تذهبين إلى غرفتك».

أرفع اللحاف فوق رأسي. تتقلّب قربي. لا تستطيع أن تغفو. هكذا دائماً عندما يصيبها الحماس. تغمر خاصرتي. أحسّ بأنفاسها فوق رقبتي. ترفع رأسها عن المخدّة. تحنيه لتنظر إلى وجهي. تتأكّد أنني نائمة.

Twitter: @alqareah

أعجب من تعلّقها بأبي. لو أحصي السنوات التي قضتها كلٌّ منا قريبة منه. لكنتُ أنا من يعرفه أكثر. حتى السادسة من عمري عشنا في السعودية. نعود ثلاثتنا، أمي أبي وأنا، إلى لبنان كل سنة لقضاء شهر الإجازة. ثمّ نسافر مجدداً.

لا أذكر من السنوات الخمس الأولى إلاّ أشياء متفرّقة. رحلة بالسيّارة عبر الصحراء. المعلّمة الإنكليزية التي أحببتها كثيراً. سراً، كنت أفضلّها على أمي. ليلاً أحلم بها في بيتنا. تنيمني، تطعمني، تدلّلني، تغمرني بذراعيها.

كان أبي حينها يعمل في شركة. لم يكن قد أسّس شركته الخاصة لتركيب وصيانة المصاعد. يبيت خارج البيت عندما يأتي الأمير إلى القصر. يخافون أن يتعطّل أحد المصاعد ليلاً. أمي كرهت العيش في السعودية. في البدء تتسلى بصنع الحلويات والمأكولات الهندية والإيطالية. تتبادل وصفاتها مع الجارات. ثمّ تعلّمت من المجلاّت الخياطة والتطريز.. تصنع أواني من قصب. ترسم على الصحون والجرار. أذكر رائحة الهال. ترتبط بذهني بزيارة جارتيها. إحداهما لبنانية. الثانية مصرية. كنت ألعب مع ابنتيها. صارت لهجتي خليطاً من المصرية والخليجيّة واللبنانية.

لم أكتشف ذلك إلاّ عندما سجلتني أمّي في لبنان. كنت في الصف التمهيدي. أحكي فلا تفهم لا المعلّمة ولا الأولاد. أحياناً تكبت ضحكتها. أو تطلب مني إعادة الكلمة على مهل. حين أتذكّر أبي، لا أستطيع معرفة أسباب واضحة جعلته غريباً عني منذ صغري. لذلك أعجب من عاطفة لورا تجاهه، أحسدها.

Twitter: @alqareah

بعد العاشرة من عمري توقّفنا عن السفر إلى السعودية. أمي لا تستطيع أن تترك محلّها أو تغيب عنه لفترة طويلة. دفعت تكاليف إيجاره وثمن البضاعة من إرثها. كأنّ ذلك منحها قوّة. لم يعد أبي قادراً على التذمّر. أو القول مثلاً: «لم أفتح لك المحل لتجعليه حجة». السفر إلى السعودية كلّ صيف كالدخول إلى السجن بالنسبة إليّ. عكس التلاميذ، أتمنّى أن تستمرّ السنة الدراسية دون أن تتخلّلها أية عطلة. أمي أيضاً كانت تطيل تحضيرات السفر. تنتهي المدرسة. تقول لأبي إن عليها شراء أغراض ما. أو تختلق حجة كالحفلات المدرسية التي عليّ حضورها. أو المخيّم الكشفي الذي سأشارك فيه. في أواخر آب، نعود إلى لبنان. عليّ كتابة فروض العطلة، التحضّر لدخول المدرسة، شراء الكتب والدفاتر. أحسّ أنّ أمي كانت تتعب نفسها في إيجاد هذه الأعذار. لم أرَ أبي يفرح أو يحزن أكثر من العادة، سواء في استقبالنا أو توديعنا. حتى الأعذار ما كان يسمعها. لم يكن مسرفاً في شيء لا الحزن، لا الغضب لا الأكل. يجلسني في حضنه ما إن أصل. يقبّلني ثم ينساني. لا نجد ما نقوله لبعضنا. أحاول محادثته. أخبره عن لبنان، عن رفاقي، ألعابي التي حصلت عليها في عيد مولدي. لكنه لا يسمع.

أمي أكثر تعقلاً. لا تحاول استدراجه إلى حديث. لا تتكلّم إلاّ إن طرح عليها سؤالاً، أو بادر إلى الكلام. عموماً ما كانا يتشاجران أو يتصايحان إلاّ في ما ندر.

مع لورا يبدو مختلفاً. لا يضجر من ملاعبتها. يحملها على ظهره يكون لها حصاناً أو حماراً. يدبّ على أربع. يركض خلفها من غرفة إلى أخرى. يتركها تخربش على وجهه بأحمر الشفاه وقلم

Twitter: @alqareah

الكحل. يتبادلان الأدوار، يصبح طفلها. هي الأم التي تؤنّب، تشدّ الأذن وتعاقب.

أراه. لا أحسّ بشيء نحوه. أفكّر ماذا لو مات. لن أتمكّن من ذرف دمعة واحدة عليه. ربّما أتألّم فقط من أجل لورا. لأنّها ستفتقده. كان أبي يعاني من ضعف. لذلك لم يرزقا بعدي إلاّ بلورا، أي بعد خمسة عشر عاماً. كانت جدتي لأبي تنصح أمي بإجراء فحوصات. تذكر لها أسماء أطباء معروفين. تقول إنّ هذه المشاكل باتت تُحلّ. فلِمَ الاكتفاء بابنة وحيدة؟ أحاديث جدتي، كانت ترعبني. أتساءل هل أمي مريضة؟ هل ستموت؟ ما حاجتها إذن للأطباء والفحوصات؟ لكن عندما تنصّتُ على أمي تشكو لجدتي، فهمتُ أنّ الأمر لا يتعلّق لا بحياتها.. ولا بي. قالت: «يخطر لي أن أقول لحماتي المشكلة من ابنك. ليس مني. لكن أعود وأقول يا بنت تعقلي. بلا مشاكل».

خالي الذي يصغر أمي، هو الشخص الذي تعلّقت به في طفولتي. ينام عندنا. أصحابه يزورونه في بيتنا. يصطحبني في مشاوير. يأخذني إلى السينما، أو المكتبة ليشتري لي مجلاّت وكتباً. يشاهد معي أفلام الكرتون. لم تكن أمي صبورة في تدريسي. يتعالى صراخها حادّاً ما إن ارتكب خطأ واحداً.

لذلك أشرف خالي على تعليمي في كلّ الصفوف الابتدائية. كان مثالي الأعلى في كل شيء. أراه أجمل رجل. أي شيء يفعله أو يقوله يضحكني.

بعد خطوبته تبدّل كلّ ذلك. ربّما حينها بدافع الغيرة. الآن

Twitter: @alqareah

أتهرّب منه حتى لو جاء دون زوجته. أتظاهر بالنوم أو باضطراري للخروج. أحسّ أنّ كلّ الذين أعرفهم يفقدون الجزء الجميل في شخصياتهم بينما يكبرون. الشخص الوحيد الذي لم تتبدّل صورته هو جاد.

حتى لورا ستخسر شيئاً ما. لورا الصغيرة التي كنت أهرع حال وصولي من المدرسة إلى حملها. أنا من يُعدّ قنينة الحليب لها. من يطعمها. بعد بلوغها السنة، صارت لا تقبل أن تستحمّ إلاّ معي. كلماتها الأولى أنا علّمتها إياها. بينما انشغلت رفيقاتي في مواعيدهن الغرامية الأولى. انصرفت أنا إليها.

رفيقاتي يبتعدن ما إن يبدأ حديثي عنها. كأنني أم مضجرة بالنسبة إليهن، أم لا حديث عندها سوى أولادها.

أنفاسها منتظمة. يدها فوق شعري. ليتها تبقى صغيرة وجميلة هكذا. أتمسّك بدرفة الباب كي لا أقع. أسمع حركة أمي في المطبخ. هي كلورا، استيقظت باكراً، لا أظنّها فعلت بسبب الحماس.

أحياناً أرى شعر أبي قد زاد البياض فيه. كرشه الذي ترهّل. عيناه وقد غارتا أكثر في وجهه المتعب. أحسّ بوخز في قلبي، حتى أنا ابنته لا أحبّه. أرتبك من وجوده. لا لأنني أخافه أو أحترمه. بل لأنّه غريب تماماً. غريب يجلس معنا إلى الطعام. يلاعب أختي. ينام في سرير أمي. يعطيني مالاً. يدفع أقساطي. غريبٌ يضمّني إليه. يقبّل رأسي. أخفي النفور الجسماني منه. أحسّ كأنني سأدفعه بعيداً عني إن طال عناقه لي. إذا صادف موعد إجازته مع عطلتي،

Twitter: @alqareah

أستيقظ ظهراً. أنام أوّل الليل. خلال السنتين الأخيرتين. أبقى خارج البيت معظم الوقت. لا أتعب نفسي في ذكر أيّة حجة. فلتقل أمي ما يحلو لها. عندما يرتفع صوته، أو يسأل أين كنتُ حتى هذه الساعة المتأخرة. أتظاهر أنّ الكلام لا يعنيني. أدخل غرفتي. أغلق الباب خلفي. خلافاته مع أمي بسببي تصير أمراً معتاداً في الآونة الأخيرة. يلقي اللوم عليها بسبب سوء تربيتي. هي تتهمه بالتشدّد مردّدة إننا لسنا هنا في السعودية.

Twitter: @alqareah

السماء رمادية. لا أثر للشمس. كأنّ الوقت غروب، لا التاسعة صباحاً. يذكّرني بكسوف الشمس. الجوّ نفسه. أمي أغلقت يومها الأبواب. أسدلت الستائر. جلست تتابع كلّ شيء عبر شاشة التلفزيون. كأنّ نظرة واحدة إلى الخارج ستعمينا. تضمّ لورا الجالسة على حضنها. تريدنا كلتينا قربها، تقول. ما إن أتسلّل إلى الحمام أو إلى غرفة أخرى تناديني. رغم ذلك خرجتُ إلى الشرفة. لم أرد أن أفوّت عليّ رؤية قرص الشمس يتلوّن ثم يختفي تدريجيّاً. وتحلّ عتمةٌ في عزّ النهار.

أقف قرب باتيسري سُقراط. أبتلع حبة مهدئ. أتأمّل قوالب الكاتوه في الواجهة. أشتري قطعة بالشوكولا. منذ متى لم أحسّ بمثل هذه الشهية؟ أدخل من البوابة. في صالون نيومنز، أجد جوزيف جالساً على الكنبة الجلدية. يحدّق في التلفزيون المطفأ قبالته. أجلس قربه. أمدّ نحوه ما تبقى من الكاتوه. يرفع يده شاكراً. أنا أيضاً ينطفئ جوعي. أراقب صورتينا المنعكستين فوق الشاشة. جوزيف يواصل شروده. أيمكن أن يكون تحت تأثير قرص مخدّر؟ بالطبع لا. وإلاّ كنت التقيتُ به خلال إحدى سهراتنا. أعرف

Twitter: @alqareah

جوزيف منذ سنتي الأولى. كان لدينا صف مشترك: الشعر الميتافيزيقي الإنكليزي. كان طالب كيمياء حينها. رغم ذلك تفوّق علينا جميعنا. لم يكن يوحي بتميّز. لا أذكر أنّه شارك في مناقشة. نكاد لا نلحظه. هيئة عادية. قامة مربوعة. ملامح مألوفة. يضع نظارات.

الفارق بين علامتينا كان كبيراً. علامته تسعون. علامتي ثمانون، الثانية بعده، المعلّمة أيضاً فوجئت مثلنا. اضطرت أن تسأل من يكون فينا جوزيف معوض. كان تفوّقي في الدراسة يهمّني. خصوصاً أن معدّلاتي خلال السنة الأولى هي الأعلى. خيّل إليّ أنني أعرف بوضوح ماذا أريد. أنال الماجيستير. ثم أسافر إلى أميركا لمتابعة دراسة الدكتوراه. هذا بالطبع قبل أن أعرف جهاد.

بعد نتائج الامتحان. أبادر للتعرّف بجوزيف. أردت أن أعلم أية كتب قرأ لينال علامة كهذه. خصوصاً أنني قرأت المراجع المهمة. دوّنت ملاحظات. راجعتها جيداً. اكتشف أنه يقرأ إضافة للشعر والرواية، التاريخ، السِير الذاتية لعلماء ورجال سياسة وأدباء. كيف يتّسع وقته لكل ذلك؟ كيف يتحضّر في الآن نفسه لامتحان الدخول إلى كلية الطب؟

هكذا صرنا نتبادل الكتب. نحكي عنها. نتمشّى في الشوارع القريبة من الجامعة. أو نجلس عند الـ Green Oval. المكان يشبه بحيرة برتقالية وقت الغروب، يقول. في السنة الثانية. نكتفي بالصدف كي تجمعنا. أنا أيضاً، انشغل بأشياء أخرى.

ألتفت ناحيته. أنظر إلى جاكيت الجلد السوداء، إلى تشققاتها

Twitter: @alqareah

الكثيرة. إنها الجاكيت نفسها. لكن الشقوق زادت. أحسّ بالحرارة تصعد من نقطة عميقة، كالجمرة. يطلع اللهيب إلى وجهي وأذنيّ وعينيّ. رجفة البرد تعاودني.

أنهض بثقل. أضغط نافورة البرّاد في الزاوية. أفتح فمي واسعاً. الماء يبلّل كنزتي. نقاط العرق تتجمّع فوق شفتي. تسيل من جفوني وحاجبي وشعري. أنفاسي تتلاحق. أرتمي على الكنبة. أقول: «أنا متعبة».

يعود من غرفته حاملاً قرصين وكوب ماء بلاستيكياً. يقول: «سآخذك إلى المستوصف. قومي». يشدّني من ذراعي.

ـ هذا ليس إلاّ عارض رشح. أقول. سيزول سريعاً.

يتبدّل وجهه. كأنه يقلق فعلاً. عليّ أن أحتفظ بأقراص إضافية، أفكّر. مفعولها يقصر تدريجيّاً. أراه يستمرّ في التحديق بي. أشير له أن يجلس. يتناول جريدة عن الطاولة. يقلّب صفحاتها. أحسّ دبيب نملٍ داخل جمجمتي. يواصل زحفه إلى رقبتي، إلى أصابعي. أتذكّر جهاد. تعرّفتُ عليه بعد جوزيف. كانت هناك مسرحية تُعرض عند الـ Green Oval. جمعٌ كبير من الطلاب احتشد هناك. كنتُ برفقة نسرين عندما التقينا به. سلّمتْ عليه، عرّفته بي. بقي معنا. المسرحية، شخصياتها قرود وحيوانات. يقول جهاد بعد أحد المشاهد: واللّه لا يجوز إهانة القرود بهذه الطريقة. أو يسألني ساخراً: أنت تظنين أنّ القصة بسيطة؟ تعليقاته تميتني ضحكاً، تستمرّ حتى آخر العرض. تغادر نسرين. نمشي معاً كأننا نعرف بعضنا. حتى الآن أجهل سبب انجذابي السريع إليه. أثناء حديثه، يضع يده

Twitter: @alqareah

فوق كتفي أو فوق ذراعي بطريقة عفوية. لا يدري كم يربكني. يأخذ سيجارتي، يمجّ منها مجّة، يعيدها إليّ. لم أرد أن أبدو كفتاة خجولة، بلا أية تجربة. لذلك لم أتصل بأمي لأُعلمها بتأخري. آنذاك، كانت معتادة أن تعرف مواعيد ذهابي وعودتي بدقة. لكن كيف سأفعل ذلك؟ أتجنّب أن أرفع رأسي. أخشى أن يفضحني إحمرار وجهي حتى الاختناق. أستمرّ في السير محدّقة بحذائي. أعلم أنّه طالب في الـ L.A.U في إدارة الأعمال. يقول: دروس مملة بالإجمال. يفكّر بتغيير الاختصاص. لا يحبّ معرفة الحياة من الكتب. يفضّل أن يختبرها بنفسه. يقول ليلتها أفكاراً كثيرة تسحرني. لن أعرف إلاّ في ما بعد أنه يكرّرها. كأنه لا يعرف غيرها. حفظها ربّما من أحد المسلسلات.

أسير قربه. كأنني مسلوبة الإرادة. ندخل إلى مطعم Flying Pizza. لا أجرؤ على رفض كأس النبيذ. كيف أفضح سذاجتي أمامه. هل أقول إنني لم أذق إلاّ البيرة وفي مناسبات قليلة. أبتلع كأسي في جرعتين. أستسيغ طعمه. يصفر إعجاباً. يقول إنّه يحبّ الفتاة الجريئة. لا أنتبه للسكر الذي يصيبني إلاّ حين نقف لنخرج. حرصي على التماسك والتوازن، يتطلّب مني جهداً مجنوناً. هكذا أستيقظ في اليوم التالي فتاة أخرى. أفقد كل اهتمام بالصفوف، بالامتحانات النهائية التي يقترب موعدها.

أقضي معظم وقتي في L.A.U. في الكافيتريا، على أدراج الجامعة أو في حديقتها. أجلس مع رفاقٍ لي من أيام المدرسة. لم أوجّه إليهم سابقاً كلمة واحدة. خمسة أيام طويلة. لا ألمحه فيها. أراه أخيراً برفقة فتاة. يسلّم عليّ سلاماً عابراً. مرحباً متبوعة برفعة

Twitter: @alqareah

يد. كأنّ شيئاً لم يكن. أمشي في الشارع كمن ينازع الموت. أحاول أن أستعيد تعقلي. دموعي تنزل على وجهي. أمسحها غير آبهة بالناس. لست سوى فتاة حكى معها ذات ليلة ثمّ انصرف كلّ منهما إلى حياته. لكن الأمل يخدعني. أفكّر أن الفتاة التي رأيته يطوّق خصرها، صديقة ما. انتهاء السنة لا يضع حدّاً لمحاولات لقائه. ألتصق بنسرين. أليست هي من عرّفتني به؟ أقوم بأشياء غريبة عن طبيعتي. أقضي ساعات معها لتتسوّق. أحضر حفلات مملّة. لا أفعل فيها إلاّ مراقبة الباب. هكذا يمضي الصيف. لا ألتقي به. أقول لو أعرف بيته. لتسكعت أمام بابه حتى ألتقي به. لا يهمّ الساعات التي أقضيها هناك.

لا أخبر نسرين. لا أسألها عنه. اعتدت أن أحتفظ دائماً بأسراري.

لن ألتقي به مجدّداً إلاّ في تشرين الثاني. خمسة شهور طويلة من العذاب. أخسر خلالها الكثير من وزني. أصبح هشة. تبكيني كلّ قصيدة أقرأها. في كلّ رواية أجد ملمحاً له، أو وصفاً يشبهني. مع مرور الشهور الأخيرة، تنكسر الاندفاعة القديمة في داخلي. أفقد الأمل في لقائه. كأنّه نقطة ماء تبخّرت. كيف أبحث عنه في فضاء لا متناهٍ. أسترجع كل تفصيل في لقائنا. أحسّ موضع يده يلسعني. أحياناً أتحسس كتفي أو ذراعي كأنّ يده خلّفت أثراً محفوراً بعمق. السيجارة التي أشعلها، تكرر صورته يلامس بشفتيه موضع شفتيّ فوق السيجارة.

أمشي مع جوزيف إلى الكافيتريا. أتعثّر مرّات. الدوار يجعل ما

Twitter: @alqareah

حولي كأنّه سراب. في الكافيتريا، يشتري لي جوزيف سندويش دجاج. يقول: «كلي. سيفيدك الطعام».

بينما ألوك اللقمة الأولى. موجات من الصراخ تتدافع في قلبي. أخشى أن تفلت من حنجرتي رغماً عني. أسند رأسي الثقيل بيدي. أحدّق بيد جوزيف ترفع كوب الشاي. أهي ترتجف أم أنّ العالم حولي يهتزّ؟

Twitter: @alqareah

أقرع مرّات. أنصت. لا حركة. لا شيء. أستدير لأرحل. ينشقّ الباب. يطلّ وليد برأسه. يقول: «أدخلي بسرعة». يغلق واضعاً السلسلة الحديدية. أسأله عن سرّ هاتفه المشغول دائماً. يقول إنه مقطوع بسبب فاتورة متأخّرة، المنفضة أمامي مليئة بأعقاب السجائر. قربها كوب جفّ الشاي في قعره. ذبابة تلعق نقطة ماء فوق الملعقة الصغيرة. العتمة تزداد في الغرفة. وليد لا يشعل اللمبة. يلتفت ناحية الستارة المعدنية كأنّه يتوقّع ظهوراً مباغتاً من صوبها. مع حلول العتمة يرغمني على خفض صوتي أكثر فأكثر. يتحوّل كلامنا همساً. أسأله الذهاب معي عند سعد: أريد أن أشتري. . . » يقاطعني. فيما صوت دعسات تقترب من الباب. طرقة خفيفة. تتبعها ثانية قوية. ثم ثالثة أخفّ من الأولى. يشقّ الباب مبقياً السلسلة. إنّه سعد. يتذمّر من العتمة.

ـ ما بك؟ هذا ليس بشغل. لا داعي لهذه الاحتياطات. مرّةً عليّ طرق الباب بطريقة معيّنة. والآن تطلب مني قول كلمة سرّ. ما هي؟ كيف تتوقّع مني حفظها ..Tomisi.

ـ Takamakuso. يهمس وليد.

Twitter: @alqareah

ـ بربك. كن عاقلاً. ماذا لو نسيتها؟ تريد أن تبيع. أو أن نلعب بوليس وحرامية؟

ـ أنتَ لا تعرف وديع بوعجرم.

ـ من هذا الأخو الش..؟

يفتحان الباب الجرار الفاصل بين الغرفتين. يضيء سعد نوراً خفيفاً. ربّما شمعة. أرى ظليهما يستطيلان على زجاج الباب الجرّار.

يدخل سعد ويخرج كأنّه لم يرني. الطنين في رأسي يبطئ حركتي. الغرفة تنحني كلّها ناحية اليسار. أحرّك رأسي يميناً فتميل إلى الناحية الأخرى. يأتي وليد بشمعة. يضعها فوق الطاولة في الزاوية. يخبرني إنّ بإمكاني أن أشتري منه، من الآن وصاعداً. سيتكفّل بالبيع في الجامعة. جهاد سيساعده. أسحب من الكيس القنينة التي اشتريتها. ڤودكا بطعم الحامض. الكأسان اللتان يأتي بهما من المطبخ متسختان. بصمات الأصابع، موضع الشفاه، واضحة فوقها. لون زجاجها معتم. أقول إن العتمة تبرّدني. فَلِمَ لا يضيء اللمبة. يكرع كأسه. يدخّن سيجارتي. أتركها له. أشعل أخرى. أصابع يدي صفراء، بلون الحامض. يقول إنه اليوم تذكّر مكاناً. يحبّ لو يذهب إليه. كان يقصده ليدرس في الصفوف الثانوية. خلوة مهجورة من حجر العقد. يجلس عند شباكها. يسند رأسه إلى الجدار متأمّلاً الجلول العريضة. صوت الماء يجري في القناة. قرصة برد خفيفة يحملها إليه الوادي. أصوات الساكنين في القاطع الثاني. الهواء يقلب صفحات الكتاب بين يديه. ينعس. تسهو

Twitter: @alqareah

عينه. برودة تنسلّ إلى جسمه من حجارة الخلوة. كأنّها خزّنت في جوفها كل النسائم منذ مئتي سنة.

فيما يتكلّم أرى جرذاً كبيراً بحجم هرٍّ. ينهش قماشة الكنبة وأسفنجها. آخر يقضم ثياب وليد. يصبح عارياً تماماً إلاّ من حذائه. فوق جسمي تسرح عشرات منها. تقضم أطراف أصابعي. لا أحرّك ساكناً. جسمي يأبى أن ينهض. أن ينفض عنه تلك الجرذان الجائعة. ديدان تخرج من عيني. تتدلّى منهما كالحبال. كأنّ لا نهاية لطولها. تغرز أسنانها أكثر. تهرس عظامي. الصوت يقوى. أغمض عيني. أفتحهما. تعود الغرفة إلى حالها. عندما يأتي جهاد، نكون قد شربنا نصف القنينة. يجلس فوق البساط أرضاً. يعبّ جرعتين من القنينة. يقول إنه ذاهب بعد قليل إلى سهرة «غير شِكل». خمسة أكياس صغيرة يدسّها في الجيب الداخلي للجاكيت. يعدّ وليد الدولارات ثلاث مرّات. كلّها من فئة العشرين دولاراً. لا يقبل سعد ورقة المئة ولا الخمسين. فئة العشرين أو أقلّ. ينظر جهاد باتجاهي. «أتأتين معي؟» لا أردّ. منذ زمنٍ نتبادل هذا النوع من المزاح.

«أتأتين معي؟» منذ سنتين، فعلت المستحيل لأسمع هذه الجملة. إلتقينا في تشرين الثاني. في يوم خريفي. كنت تجاوزت الإشارة مقابل مبنى الطائفة الدرزية وأمشي باتجاه الأوتوستراد. قرب محل Paind'or رأيته ماشياً. يداه في جيوبه. مسرعاً في سيره. لأنّ الهواء بارد. لا يرتدي إلاّ قميصاً بكمين قصيرين. فوجئت بسلامه الحار كأننا أعزّ الأصدقاء. أخبرني في ما بعد أنّه أحسّ بعاطفتي نحوه. «الأعمى يراها في عينيك». لم نفترق إلاّ بعد ستّ ساعات. لم أنم ليلتها. لم أقرأ. لم أكلّم أحداً. لم أسمع موسيقى. لم أخرج

Twitter: @alqareah

إلى الشرفة. مكثت في العتمة. جالسة في سريري. أنتظر انقضاء الوقت، لتحلّ العاشرة صباحاً.

بعد أسبوع، استعار غرفة صاحبه. الآن حين أمرّ بتلك الغرف في كاراكاس وقريطم والوردية وجاندارك. أتذكّر تسلّلنا إليها. خروجنا منها مفترقين. كي لا تعرف صاحبة الملك. أو كي لا يشتكي الجيران من كثرة الداخلين والخارجين من الشقة. جهاد يسكن في نزلة الحص مع أهله. يحاول مراراً أخذي إلى بيته حين يغيبون عنه. لكنني أرفض. لم نعد نفترق تقريباً. كرّت أسماء الرفيقات اللواتي أدعي المبيت عندهن. خلال إحدى سهراتنا أجرّب الكوكايين لأوّل مرّة.

أذكر جهاد يتفحّصني. لا يريد أن يفوّت لحظة. المرّة الأولى هي الأجمل يقول. عندما أحاول ذكر سبب واحد لتدهور علاقتنا. لا أجد. فقط أعرف أنني بعد سبعة أشهر تبدّلت. أتغيّب عن المواعيد. تنفرّني حركات يده، طريقة كلامه، نبرة صوته، نكاته. لا أطيق أن يلمسني. لم يعد يجمعنا إلاّ تلك السهرات. الأشياء تموت من تلقائها بيننا. بعد أقلّ من شهر، أخرج برفقة أيمن زميلي في الصف. علاقة تدوم لأسبوعين. يكتب لي خلالها رسائل غرامية طويلة. لم أعرف كيف أتصرّف برفقة شخص يحمرّ قبل أن يمسك يدي. لا يقابلني إلاّ ويحمل لي وردةً أو هدية ما. يخشى عليّ من السجائر التي أدخنها، من الثياب الرقيقة التي أرتديها في عزّ الشتاء. من إهمالي لأكلي. أشعر أنني أختنق. عامر كان عكسه تماماً. كأنه لا يراني. لست موهوبة في العلاقات. كلّها قصيرة. تبدأ مسلية. تنتهي بالضجر. وحدي أكون في حال أفضل. لا أبذل أي مجهود

Twitter: @alqareah

لأكون أجمل أو لأكون مثيرة للاهتمام.

تذوب قطعة السكر ببطء في فمي. لساني يصبح جافاً ومحموماً. تتشابك قدماي وأنا أسير إلى المطبخ. أشرب كوبين من الماء. يستلقي وليد فوق الكنبة. من ثيابه تفوح رائحة عرق وتبغ. يخلع حذاءه. يرميه بعيداً. يرتطم بالباب الجرّار. يهتزّ بقوّة. يهبّ مذعوراً. يهمس: «ألم تسمعي؟» أذكّره بحذائه الذي رماه لتوه. يقول إنه لا يفهم كيف أكون أحياناً بهذه السذاجة. يلتصق بالباب بعد أن يطفئ اللمبة.

العتمة تختفي. أحسّ أنني عالقة في مكان. لا أراه. عيناي لا تنفتحان. أتلمّس ما حولي. مادة لزجة تعلق بيدي. أضع يداً فوق عينيّ. تعلقان بأصابعي، تسيلان كالشمع. مادة دبقة تتدفّق من جسمي. تعيق سيري. جسمي يصير لزجاً. أفقد أعضائي. لكنني لا زلت موجودة أفكّر. هذه المادة اللزجة التي تلطّخ أرضية الغرفة هي أنا. رائحة أدوية ونفايات متعفنة تتصاعد من جسمي السائل. يعود ضوء اللمبة. يستلقي وليد مجدّداً فوق الكنبة.

فراشة ليل تحوم حول حبل اللمبة. جناحاها المرقطان يكبران. تفردهما. يذرّان ريحاً ورملاً. الرمل يقطع أنفاسي. أفتح فمي. الرمل تحت أضراسي. زوبعة تطمر أسفل جسمي. أجاهد لأسحبه. حرارة عالية كأنّ رأسي داخل فرن حام. الرمل يغمر الآن جذعي كلّه. أحرّك يديّ عبثاً. لا تنفلتان من الرمل. الحرارة ترتفع أكثر. نهر من الرمل يجري في فمي المفتوح.

Twitter: @alqareah

على الأرصفة التي أمرّ بها ألتقي عمالاً سوريين وموزعي صحف. يوم ربيعي. السماء صافية. باستثناء غيمات قليلة. إذا حالفني الحظ أصل قبل أن يستيقظ أحد في البيت. لكن التعب يؤخّرني. يُثقل خطواتي. أسير نزولاً باتجاه الجامعة. صوت المكانس يختلط بدعساتي. كلب يتجه صوبي. ينظر إليّ مباشرة. أخاف. لا أركض، ألتصق بحديد المحل. لهاثي أعلى من ضجة السيارات. يمرّ بمحاذاتي. يتسمّر قربي. ينظر إليّ ثانية. لعابه يسيل من فمه خيطاً يصل إلى الأرض. ذبابتان كبيرتان تحوّمان حول عينيه. يكمل سيره صعوداً. لا أمشي إلاّ بعد أن يتوارى عن ناظري. أتذكّر جملة قرأتها: «ما يعوّض عن شدّة ألمنا أننا فيما بعد نموت كالكلاب.» أفكّر أنني مثله.

عند الإشارات، لا رجال درك. ربّما لم يبدأ دوامهم. في الجامعة لا أصادف إلاّ عدائين عجائز. الوقت مبكرٌ إذن. لن أذهب إلى البيت.

نقاط الندى كبيرة فوق الأعشاب. لم ألحظ قدوم الربيع قبل اليوم. تمنيت دائماً أن يكون لي بيت هنا. أو على الأقلّ غرفة في

Twitter: @alqareah

المسكن الجامعي. صفوفي لا أحضرها منذ شهر. نجاحي في الفصل الأوّل فاجأني. لم أتوقّعه. معدلي تدنّى عشرين علامة. رغم ذلك نجحت. لا يسألني أهلي عن علاماتي أو نجاحي. بالنسبة إليهم الأمر مؤكّد. الهواء يؤلم منخاريّ. أتحسّسه لأرى إن لم ينتفخ ويتضاعف حجمه. الأدوية التي يعطيني إيّاها وليد لا تنفعني. قلّة النوم تجوّفني من داخلي. كأنّ جسمي قشرة رقيقة. داخلها فارغ تماماً. بينما جمجمتي تثقل. أسند رأسي بيدي. أو ألقيه فوق خشب المقعد. هكذا يحصل لي عندما أجلس. أفقد القدرة على السير. كأن شلّلاً يعطّل قدمي. لساني الجاف يُحدث صوتاً معدنياً كلما اصطدم بسقف حلقي. كأنّ دماغي يرتجّ. بلى. أرى صورة تلك التجويفات. تسيل منها مادة بيضاء. العروق الحمراء تنتفخ. تكبر. تزحف التلافيف. تملأ رأسي. تخرج من فمي، من عيني. تمسك بحنجرتي. تلتفّ حولها. تعصرها. الهواء لا ينفذ إليّ.

قال وليد إنّه لا ينام. جسمه مليء بالقذارة. كلّ الأوساخ تعلق ببدنه. منذ فترة يفقد رائحته. لا أثر لها. يشتمّ مشطه. فرشاة أسنانه، ليفة الحمام، ملاءات السرير، ثيابه كلّها. لا يجد رائحته.. يحصل له أيضاً، أن يضيّع صوته لأكثر من يومين. يخاف أن يضيع منه نهائياً. يفتح فمه. يطلع صوت لا يعرفه. يخشى أن ينام في سريره. ماذا يحصل في ما لو استغرق في النوم. لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث خلال ذلك. يستلقي على الكنبة. لا يشعر على أية حال بنعاس. يقول: «انتبهي يا رلى. انتبهي لليل. فيه تضيع أشياء ولا تعود».

أفكّر بالوقت. يغيّر ويميت كلّ شيء. ما نفعله وليد وأنا هو

Twitter: @alqareah

البحث دائماً عن شعور قديم. نعاود القيام بالأشياء بالدقة والترتيب نفسهما. النتيجة تكون مغايرة تماماً. مهما أفعل الآن. لا أستعيد ذلك الإحساس الأوّل.

كانت سهرة كغيرها. أذهب إليها مع جهاد لنشرب ونرقص. لم أعلم أنّها ستكون مميّزة. وسوف أستعيد تفاصيلها طوال هذا الوقت. أنتبه لحظة دخولي، أن عدد الموجودين لا يتجاوز الستة. ربّما السبب ضيق شقة سميح. رغم أن الساعة لم تتجاوز التاسعة فإنني أجدهم سكارى تماماً. أتساءل متى تمكّنوا من شرب هذه الكميّات. السهرة لا تزال في أوّلها. ينادي سميح جهاد. يكلّمه بصوت خافت قريباً من باب الشرفة. أراه يضحكُ يتوجّه ناحيتي. يريد أن يريني شيئاً مميّزاً، يقول. لم أكن جاهلة إلى حدّ لا أعرف فيه الكوكايين. يضع كومة صغيرة منه فوق يده. حباته البيضاء تلمع كالبلور. عند الطرف الثاني من الطاولة، يضع سميح كومة أكبر فوق الخشب البني اللامع. يستنشقان بمنخار واحد. كومة ثانية في المنخار الثاني. تختفي بالسرعة نفسها. يلحس جهاد يده. سميح يلحس الطاولة. بقعة رطبة ترتسم فوقها. يسألني ماداً الكيس إن أود أن أجرّب. لِـمَ لا. أفكّر. لن يكون مختلفاً عن المشروب. «الصعوبة في طريقة الاستنشاق إلى الداخل فقط. لا تخرجي أي نفس من أنفك. يقول. شهيق بلا زفير». يتجمّعون حولي. رؤوسهم تنحني فوقي. النفس الذي يخرج رغماً عني، يطيّر نصف الكمية. يلاحقها جهاد بلسانه. يلحسها كلّها. في المرّة الثانية أنجح. بداية أظنّ أنّ الكوكايين لم يؤثّر بي. أحسّ رائحة أدوية تعلق بأنفي، كأنني داخل صيدلية أو مستشفى. منخاراي ينفتحان كأنّ بإمكاني شفط هواء الغرفة بكامله.

Twitter: @alqareah

البودرة تدغدغ زلعومي. تسيل ببطء في داخلي. لعابي يصبح مرّاً. يصعب عليّ ابتلاعه. أنظر إلى جهاد. عيناه تتسعان. تصبحان رطبتين كأن النداوة سوف تفيض منهما. لونهما يصير غامقاً. الأخضر يتحوّل إلى بنيّ لامع.

لا أشعر بتأثير الكوكايين إلاّ حين تبرد لثتي وحنجرتي كأنني فوق الثلج في أعالي الأرز، أتنفّس منذ ساعات بفم مفتوح. عكس لعابي الذي يشعل ناراً فوق لساني. أسناني مجمدة كأنني حشرتُ رأسي داخل ثلاجة. الكلام لا يطلع من خلالها. يحيط جهاد كتفي بذراعه. يقرّب كأساً من فمي. أبعد رأسي. أسناني المصرورة تأبى أن تنفرج ولو قليلاً. ينحني فوق كتفي. يقبّل رقبتي. إحساس غريب بالخفة. الكلام كلّه يبدو طريفاً. أتفه تعليق أسمعه، أجده ذكياً. الصوت الذي يطلع من حنجرتي، الضحكة التي ترن. أحبّهما. ليس بإمكان شيء أن يحزنني. الطاقة في جسمي لا أعرف كيف أصرّفها. أريد أن أنهض لأرقص مع جهاد. عضلاتي كلّها تتصلّب. أطرافي يصيبها تنمل. أخشى أن أحرّك يداً أو قدماً فتميد الأرض أو ينهار سقف. أو تهوي الكنبة بي. يقرّب جهاد وجهه مني، يمسكني بكلتا يدي لأشاركهم الرقص. كأنني شخص مجمّد، أمشي فوق الثلج أو فوق ماء المحيط بخطوات شديدة الحذر. يرقصون هم أيضاً ببطء. حتى الدخان يتصاعد من السجائر متمهلاً. يقسو لساني في فمي. أشرب. طعم الماء كالدواء. أعود باتجاه الكنبة. لا أصل. سلسلة من الخطوات كأن لا نهاية لها. عيناي ترفان كأنّهما تتوقّعان لكمة مؤلمة. أعشق هذه الحياة. المفاهيم والأفكار تتشكل في رأسي بوضوح وذكاء. بعد الخطوات البطيئة تصبح حركتي سريعة

Twitter: @alqareah

ومجنونة. أحاول إقناعهم بأن نخرج في الليل. نكمل السهر في مكان آخر. لا يوافقون.

تنتهي السهرة فجراً. في سيّارة جهاد يتوقّف كل شيء بثقل. الهواء الذي أتنفّسه يركد ويمتلئ بالغبار. أحسّ برغبة مجنونة في استرجاع تلك اللحظات الخفيفة. الحزن يسكتني. إنه حزنٌ مختلف. لا أستجيب لدعابات جهاد. أتأمل لافتات القماش تصفقها الريح. السيّارة تقطع شوارعَ فارغة إلاّ من بعض القطط. التفت ناحية جهاد. أسأله إن كان لديه القليل بعد. لا يردّ عليّ. شفتاه المطبقتان تتحرّكان كأنّهما تمصّان قطعة سكر.

Twitter: @alqareah

لا أحد في البيت. خرجوا لزيارة جدّتي. أبي لا يكلّمني. أمي تسألني إن كنت سأتأخّر الليلة. أقول: سأنام عند لبنى. لا تسألني من تكون. ينبغي أن أدعوها لتتعرّف بأبي. تقول ذلك كأنها هي تعرفها. تنظر إلى أبي بطرف عينها. يحدّق بعلاّقة المفاتيح. يستمرّ في تجاهله لي. يتظاهر بعدم سماع حديثنا. يدعوهما للإسراع. ينتظرهما تحت في السيّارة، يقول.

تهمس أمي بعتب، بينما تغلق الباب خلفها: «أليس بإمكانك النوم في البيت على الأقلّ؟ يومان ويسافر أبوك». لا أردّ. لورا تشدّني من قميصي. تدور بثوب من الصوف الناعم. إنّه بلون سمكة السلمون. تسأل إن كان يعجبني. أحاول أن أنحني لأقبّلها. تدور الأرض تحتي. المصعد يهبط بهما الطوابق. يسحبني إلى بئر. أستلقي فوق سجادة المدخل. يداي تحت رأسي. السقف يطبق فوق قدميّ. أحاول سحبهما من تحت الباطون والحديد. تنهار سقوف وطوابق أخرى. أسمع عظام رجليّ تنسحق.

بيجامتها مرمية فوق كرسي مكتبها. أتأمّل الخفين الصغيرين تحت السرير. كأنّهما لدمية. كل شيء في غرفة لورا يشبهها. أمسك

Twitter: @alqareah

قجتها. بيت بقرميد أحمر وداخون. المفتاح أجده في علبة داخل درج الكومودينة. يتكّ في القفل. ينفتح الباب. أوراق نقدية مطوية بعناية. أعدّها. ثلاثمئة وعشرون ألف ليرة. أضيفها للأربعمئة دولار. أمّي أعطتني إيّاها. إنّها من أبي. عمله في فترة ركود. يعتذر لأنه لم يستطع إعطائي مبلغاً أكبر. أتصل بوليد. الخط مشغول. أعاود طلب الرقم مرّات دون فائدة.

عند الثامنة أخرج قبل عودتهم. أركب سيّارة أجرة. سأصل قبل علي والشلّة بكثير، أفكّر.

وليد يزيد على تدبيراته الأمنية قفلاً معقّداً للباب. أسمع تكاته المعدنية كأنّها لن تنتهي. علي المصري يسأله إن كان يحرس ذهب الخزينة اللبنانية. نكتة لا تضحك وليد.

أشتري منه ستة غرامات. نوضّبها في إثني عشر كيساً. أحبّها كثيرة، أقول. يده ترتجف. أخاف أن يوقّع شيئاً منها. معدن الميزان يوج تحت الضوء. أضع أقراص الـ P.C.P في علبة أسبرين داخل جيب حقيبتي. أوزّع الأكياس داخل جيوب الجاكيت. أفرد ورقة ملساء فوق الطاولة. الحبات تصبح كبيرة كأنها ماسات. بعد الشمّة الأولى، أحسّ بدوّار كالإعصار. أخرج لساني كله. ألعق يدي وأصابعي. من المرحاض تنبعث الرائحة أقوى في كل مرّة. ألحس الأكياس التي فرغت.

يأتون تباعاً. كأنّ أيّاماً مضت لا ساعات. يقترح جهاد أن نجرّب نادي Strange Fruit عند ستاركو.

الوقت مبكر، يقول تحسين، إننا في كامل وعينا وصحونا.

Twitter: @alqareah

يشير علي برأسه ناحيتي: «انظر هذه منطفئة منذ أوّل السهرة». جمرة سيجارتي تسقط فوق ساق عبير. تقفز جافلة: «ما بك، حرقتني».

يطلب وليد أن نخفض أصواتنا. يضع علي شريطاً في المسجل. ثمّ يشتمّ وليد على هذه الأقراص اللعينة «ماذا أعطوك لتبيع، أقراص Panadol؟».

ـ ما دخل وليد، إذا صرت كالتمساح. لا يؤثّر بك شيء. يقول جهاد. الكؤوس الموضوعة أمامنا على الأرض تختلط ببعضها، لا نعود نعرف كأسنا، نشرب خليطاً من الڤودكا والويسكي والنبيذ. يسخر علي من الويسكي التي أشتراها جهاد: «أهذه ويسكي أم زيت للقلي؟ ما هذه الطعمة؟ بشرفك بكم اشتريتها؟».

الغرفة تسبح في عيني كأنها طافية فوق الماء. الكأس تتمدّد. الضوء يصبح أزرق. وجوههم تتسع. تتحوّل إلى مربعات. تنهض عبير. الجلوس أرضاً يتعبها تقول. تقرّب الكرسي منا. تجلس عليه. تؤرجح قدميها. فتحرّك تلك العروق عند صدغي. أحرّك يدي لأوقفها. لا أستطيع. صوت السحاب كشفرة السكين تجرح القلب. القرص ساخن يلسع لساني. لا أستطيع ضرب صدري ليمشي فيه الهواء. أصواتهم تمغط كشريط قديم أفسده الوقت والشمس. أسمع: «تاو، يي، تسا، ماو..».

تتعثّر سوزان بينما تنهض عن الأرض. يرتطم ذقنها بطرف الطاولة. نقاط الدم تسقط ببطء فوق قميصها الأبيض. المحرمة التي تضغط بها على الجرح تصبح سوداء. دمها أسود كالثفل.

وليد يقشّر حبة مانغا. تنزلق من يده. تسقط بيننا. رذاذها الرخو

Twitter: @alqareah

يلطّخ يدي. لُزُوجتها تبقع أحذيتنا. عيني بحجم البيضة. أتحسّسها بأصابعي. أخاف أن تسقط من وجهي كالثمرة الناضجة.

علي يلتقط لنا صوراً. اقتربي من وليد أكثر يقول. ينثر الصور الفورية فوق الطاولة. ثمّ يقرّبها منا. ابنة الأرملة أهدته إياها. منذ عشرة أيّام يوصل أولادها إلى المدرسة بدلاً من السائق القديم. يشير إلى ماركة الكاميرا المهمة. يقرّبها من أعيننا لنتأكّد.

أنا في الغوّاصة. من كوة زجاجية أرى البحر الأسود والعتمة الحالكة. الموج يضرب الأبواب. تهتزّ الغواصة. لماذا أنا وحدي؟ أين ذهب وليد والجميع؟ الأمواج تتدفّق إلى داخلها. صوتها كالانفجار. أتشظّى إلى ذرات صغيرة داخلها. الغواصة تهوي بي. تستمرّ في الانحدار. لا تصل. البحر بلا قاع.

يصفعني جهاد عدّة مرّات «ماذا فعلتْ هذه؟ انظروا إليها».

يمدّدني أرضاً. يسأل وليد عما أخذته. يقلب وليد شفته. صوتي كقطعة زبدة تذوب وتذوب: «ليس بي شيء يا أخوت، إرفعني». كأنّ الجملة لن تنتهي أبداً.

يعود علي من الحمام ممسكاً بطنه. يمسح فمه بكم قميصه. عند طرف حذائه وأعلى القميص آثار سائل أصفر.

ـ الساعة صارت أكثر من واحدة. متى تريدون حضرتكم أن نذهب؟ يسأل جهاد.

ـ رأسي لا زال ثقيلاً. لننتظر قليلاً. الليل لا يزال في أوّله. يجيب تحسين. يقترب وليد مني. يحاول رفعي من ذراعي. أقول: «لا. أريد أن أبقى».

Twitter: @alqareah

أسمع التكّات اللامتناهية في القفل. معدتي تتقلّص. لا أقوى على رفع رأسي. قيء حامض يتدفّق كالنهر من فمي. شعري يسبح فوقه. لا أقدر أن أبتلع لعابي. يسيل بلا انتهاء. يكرج فوق ذقني ورقبتي. أتذكّر الكلب. مادة لزجة تتسحب من أنفي ببطء. أريد أن أنام فقط.

أسير ليلاً. يطلع هواء خفيف. يقوى. يصفق أبواباً ونوافذ بعنف. تتطاير من الشرفات دمى، غسالات، برادات، أسرّة، فرشاة شعر. أتنقل بحذر بينها، صور لي وللورا. أدوسها دون انتباه. فجأة تتساقط أمطار غزيرة. كل نقطة تنزل فوق جسدي تفتح ثغرة فيه أو جرحاً. ألفّ الثياب حول جسمي. تتفسّخ وتتمزّق بين أصابعي. تصير خيطاناً ترتفع بعيداً. أصبح عارية. جلدي جروح تنزّ قيحاً. رائحة كريهة تنبعث من كلّ جسدي. كأنّها خليط بول وقيء وجوارب متسخة.

لا أستطيع أن أقف لأدخل الحمام. أحسّ أنني أعوم فوق سائل لزج ودبق.

كلب يشتمّ وجهي، يلحس يديّ، يكشّر. أنيابه صفراء كبيرة. يغرزها في أنفي. العظمة تطقّ. أجاهد لأدفعه. يدي لا ترتفع سنتيمتراً واحداً. يقضم أذني، أرى طرفها خارج فمه. أريد أن أصرخ. فمي لا ينفتح. يربض فوق صدري. أفكّر أنّه ينظر إليّ.

أرفع رأسي. يتلاشى الكلب. أنظر إلى السقف. أرى عينين واسعتين تنظران إليّ.

Twitter: @alqareah

الفصل الرابع

جوزيف

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

أمزّق الكثير من الأوراق. على الأرض قرب سريري كومة مجعوكة. لا أدري كيف أكتب عن نفسي. وكيف أنسى في الوقت نفسه، أنّ هناك من سيقرأها. الدكتور فياض قال أن أحاول. أرسلني أستاذي إليه لأنني لست بحاجة إلى جراح مثله، قال. زرته مرّتين. لم يعجبه أن أتجاهل موضوع الكتابة. نصحني به في الزيارة الأولى.

اسمي جوزيف معوض. طالب في كلية الطب. عمري اثنان وعشرون عاماً. لديّ أختان وأخ. كلّهم أصغر مني.

أيمكن أن تُختصر حياتي في سطرين؟

أبدأ من جديد. اليوم هو الأحد. الساعة التاسعة إلاّ ربع صباحاً. أجلس في سريري مرتدياً بنطلون بيجامة وفانلة بيضاء. باستثناء شفيق لا أحد في الطابق. الطقس ماطر. الأمطار ليست قوية. وقعها كخطوات أقدام عارية فوق البلاط. أغمض عينيّ. أفكّر بمحاضرتين عليّ مراجعتهما. لكن عليّ الكتابة أوّلاً. أحبّ عطلة نهاية الأسبوع. النيومنز يصير شبه فارغ. طابق بكامله لي ولشفيق. لا يذهب شفيق عند أهله في الباروك إلاّ في العطل الطويلة. كان

Twitter: @alqareah

رفيقاً لي في السكن. الآن كلّ منا يسكن وحده في غرفة دون شريك. عدد الطلاب في الجامعة أقلّ من السابق. السبب توقّف المنح ربّما.

البارحة شربت الكثير من النبيذ. عدت إلى غرفتي معتقداً أنني سأغطس في نومة عميقة. لم أستطع. أدرتُ الراديو خفيضاً. قرّبته من أذني. استمعت إلى أغان قديمة، تبثّها إحدى الإذاعات في وقت متأخّر. لم أنم. أشعلت الضوء. أخذت القرص الأوّل من الدواء الجديد. لكن نبضات قلبي تسارعت رغم استلقائي. فكّرت أن لا شيء يمنع قراءتي للورقة. لن أبالغ في ردود فعلي. لن أهلع. قلت أنا هادئ. أستطيع أن أكون موضوعياً. الآثار الجانبية للدواء كثيرة. لن أكون ضمن تلك الحالات النادرة التي تشير إليها التحذيرات. أطويها. أعيدها للعلبة. أحسّ بؤبؤ عيني يكبر. بلى نظري يزوغ. كأنني داخل قنينة. أرى الأشياء مغبشة. تعلوها طبقة غبار. لست أتوهّم. ما الذي يمنع أن أكون ضمن الحالات النادرة؟

الحبة بدأت تسري في دمائي. ها هي تشدّ وتمغط بؤبؤ عيني في كل الاتجاهات. أشغل نفسي بشيء آخر. هي الخطوة الثانية. أصعد إلى الطابق الأعلى. لا ضوء في غرفة شفيق. أتردّد قبل أن أقرع بابه. مرّة واحدة كانت كافية لإيقاظه.

قال إنه لم يكن قد غفا بعد. أطفأ الضوء منذ قليل. يتفحّص عيني. يقول إن كل شيء فيهما طبيعي وإن كان بالي مشغولاً نذهب إلى طوارئ الجامعة. نجلس على الشرفة. لم نعرف أن البرد شديد هكذا. أرضها مبللة. المشاية تثقل في قدمي بعد أن تتشرّب الماء.

Twitter: @alqareah

الهواء سيفيدني يقول. ننظر إلى بحر الأنوار الكهربائية. لكننا لا نطيل المكوث خارجاً. يعدّ شاياً. يحرّك ملاعق السكر الثلاث التي يضيفها إلى كوبه. أنا لا أشرب. الشاي سيزيدني صحواً. كلما سهر شفيق للدرس، يعدّ إبريقاً كبيراً. يشرب منه على مدى عشر ساعات. قعر الكوب يصبح أسود غامقاً. أغفو جالساً على الكرسي قبالته. أفتح عيني. اللحظة التي نمتها، رأيت فيها حلماً جميلاً. أنا جالس على صخرة. الوقت ليل. ما حولي يغرق في لون فضي. أتساءل ما الذي أفرحني أهو الهدوء أم اللون الذي تسبح فيه الأشياء حولي؟ أضبط الإبرة على Radio Voyager. لا يحبّ شفيق هذه الأغاني. يفضّل القديم. كان يسمعني أغاني لـ Doors و Deep Purple و Rolling Stones والـ Beatles. أحبّ الآن الكثير من أغاني هذه الفِرق. هو عكسي لم يعتد الموسيقى التي أسمعها. أيام كان شريك سكني، فقدت الكثير من شرائطي. لم أعلم أنّه يخفيها. لا يرميها. يضعها في أغرب الأماكن. حيث لا يخطر لي أن أبحث عنها. في حقيبة ثياب فارغة مرمية في قعر الخزانة. على ظهر البراد. في جيب سترة معلقة، لم أعد أرتديها. مرّة وجدت شريطاً داخل علبة السكر.

الكتب موزعة حول سريره. بعضها مفتوح أو مقلوب. أو دُست كومة أوراق وسطه. يأتي بعلبة فيها مشمش مجفف.

عيناي تعودان إلى حالتهما الطبيعية. تصفو الأشياء.

في غرفتي أسمع وقع أقدام شفيق. صوت الماء يكرج من خزان المرحاض. للأمطار فوق الشجر صوتٌ نقي. كأنّه يقطر فوق قلبي. أنام أوّل الفجر. أستيقظ على رائحة التراب تملأ رئتي. أشرب

Twitter: @alqareah

نسكافيه وحليباً دون دسم. أقرأ يوميات يعود تاريخها إلى بداية القرن التاسع عشر. أتذكّر أن عليّ كتابة يومياتي أيضاً. اليوميات التي أقرأها تصف قُرى مجاورة لجزين. لا أدري إن كانت غاباتها وأديرتها القديمة لا تزال موجودة. باستثناء وصف القُرى والمأكولات القديمة يضجرني الكتاب. أفكّر بيومي. لا أرغب في قضائه داخل غرفتي. فكرة مراجعة المحاضرات تزعجني. أحلق ذقني. أمسحها بالسبيرتو.

أتذكّر سنتي الأولى في الجامعة. آتي إليها صباحاً. مساءً أعود إلى بيتنا. كأنني لا زلت في المدرسة.

عائلتي كلّها زعلت عندما اضطر أبي لبيع بيتنا قرب مستشفى رزق. البيت الذي وُلِدتُ وعشتُ فيه. أنا لم أزعل. إذ بدءاً من سنتي الجامعية الثانية، انتقلت إلى المسكن الجامعي، نيومنز.

أذكر طالباً من صيدا. كان عكسي تماماً. لا يطيق بقاءه في المسكن. يخابر أهله كلما انتهى من أحد صفوفه. أسمعه يخبر عن موضوع المحاضرة. متى نام. ماذا أكل. مع من خرج. لا أدري كيف لا يستمتع بعيشه وحده. لو بقي عمل أبي على حاله لما انتقلت للعيش في الجامعة. استثمر فيما بعد ثمن البيت، دعّم به رأس مال شركته لمواد البناء والنش. الشركات الكبرى المضاربة أضعفت عمله. نصحه عمي بالانتقال إلى زغرتا. وجود أقارب كثر ومعارف يسهّل الشغل. أجرى تصليحات طفيفة في بيت زغرتا حيث كنا نقضي الصيف. أخوتي انزعجوا كثيراً في البداية. كذلك أمي. افترقت عن جيرانها ومعارفها. الآن اعتادوا. يقول أبي إن إخوتي

Twitter: @alqareah

سيتسجّلون في جامعة البلمند. مستواها جيد. ولا تشكو من شيء. ثمّ إن أقساطها مقبولة. لا كالجامعة الأميركية. عمي يساعد أبي في دفع أقساطي.

كشفيق لا أزور أهلي إلاّ في العطل الطويلة. أفكّر أن أنهض وأرتدي ثيابي. متى أدرس؟ في المساء ربما. أو غداً.

Twitter: @alqareah

بعد الظهر، ألتقي رجا أمام البنروز. نتمشّى في ظلّ أشجار الشربين. الطقس بارد. لكنّها لم تمطر. أحسّ أنّ المطر دام طوال شهر. أعلم ذلك من المظلات الكثيرة في غرفتي. آخذ أي مظلّة أجدها إذا فاجأني المطر خارجاً من المكتبة أو الصف. لا يهمّ حتى لو كانت نسائية.

رجا يمشي مطرقاً. يرفس علبة ببسي بطرف حذائه. أفكّر أن المساعدة الجامعية لن تتجاوز العشرين بالمئة. علاماتي هذا الفصل عادية. أتذكّر وجه عمي، كلماته: كيف حال الدكتور؟ ما أخبار الدكتور؟ كيف الدرس دكتور؟ بدأتم تداومون في الطوارئ دكتور؟ يناديني دكتور حتى قبل قبولي في الكلية. لم أكن أنزعج منه هكذا قبل أن يساعد أبي في أقساطي. أقول لنفسي، مجرّد ديون سأردّها حتى آخر مليم. رغم ذلك لا يزول انزعاجي.

يصعد معي رجا. نخرج إلى الشرفة عندما نسمع أصواتاً من جهة الـ I.C. إنّها مباراة في كرة القدم. الفريق الثاني هو مدرسة الروضة. يعرفه رجا من مدربه. التلاميذ ينادون رفاقهم اللاعبين بأسمائهم. يرفسون الأرض بقدمهم احتجاجاً. يصفّقون أو يصفرون.

Twitter: @alqareah

يرفعون لافتات. أتأمّلهم. كم يبدون صغاراً. كأنّ أجيالاً تفصلني عنهم، لا بضع سنوات. عند طرف الملعب، يتدافع لاعبان. اللعب يستمرّ. تمريرات طويلة تخرج الكرة خمس مرّات متتالية. ينزلق أحدهم. يتأوّه شادّاً ركبته بيده. أرض الملعب رطبة.

مهاجم من فريق الـ I.C أمام المرمى مباشرة. يسدّد. يعلو الصراخ. الكرة تطير فوق العارضة.

أعاود النظر مرّات. أتأكّد أنّه طارق. يقف مع مشجعي الـ I.C. قربه فتاة. يمسك يدها أو يحيط خاصرتها بين الحين والآخر. ألكز رجا. أدلّه عليهما. يضحك كثيراً:

ـ الصغيرات أهون عليه. لا يوجعن رأسه.

ينتهي الشوط الأوّل بلا أهداف. ينحني طارق. يقبل الفتاة. شعرها الأحمر المجعد يخفي وجهه عنا.

ـ أتعلم هناك فيروس. ينتقل باللعاب. يقطع الشهية، يرهق الجسم، يرفع الحرارة، ثم يضرب الكبد و. . .

يقاطعني: «ما بك؟ أتريد أن تميتني فزعاً. بشرفك لا تزرع هذه السوسة برأسي». هدف تسلل لا يحتسب. يتبعه تصفيق ونقر طبلة وهتافات تشجيع.

نترك المباراة. نجلس في غرفتي. أقرّب من رجا قنينة ببسي فارغة لينفض فيها سيجارته. أُسمعه Le vent nous portera، الأغنية الجديدة لفرقة NOIR DÉSIR.

نعيدها خمس مرّات. تعجبه كثيراً لكنّ تسجيلها سيئ يقول.

ـ سجّلتها عن الراديو. أقول.

Twitter: @alqareah

أعيد لفّ الشريط. نسمع أغنية TOSTAKI.

يحرّك رجا رأسه، يوقّع اللحن بضربات فوق ركبته. صوته مقبول. أعجب من قدرته على حفظ الألحان.

ـ الفرقة ستغني في لبنان. في الأونيسكو. التذكرة بعشرة آلاف ليرة. غريب هذا الرخص. أليس كذلك؟

ـ من سيستمع إلى فرقة روك فرنسية؟ أقول.

يسألني مستغرباً: «ألا تحبّ موسيقاها؟».

ـ لست أحكي عني. أقول. تريد شاياً؟

ـ شاي؟ قم لنشرب شيئاً له طعم.

أتردّد قبل الذهاب. الدروس المؤجلة تتراكم يوماً بعد آخر. أفكّر أنني سريع. قراءة واحدة مركّزة وينتهي الأمر. لِـمَ لا أخرج إذن؟ على الأرجح إن بقيت في غرفتي لن أدرس. نذهب إلى بيت رجا.

أدخل معه إلى المطبخ. أعصر برتقالتين. يكسر رجا مكعّبات الثلج. نشرب ثلاث كؤوس جين مع العصير والثلج. أشاهد فيلم Matrix للمرّة الخامسة ربّما. يقوم رجا من مكانه مرّات. لا يتابع الفيلم معي.

أخبره عن عبقرية كاتب السيناريو، لا يسمعني. ينتهي الفيلم. أشرب الثلج الذائب في قعر كأسي.

عندما أنهض لأغادر. يسألني: «إلى أين».

ـ «لا أدري» أقول.

يقترح أن نفعل شيئاً ما.

Twitter: @alqareah

ـ ما رأيك بفيلم أسباني؟ أسأله.

ـ أين؟

ـ في النادي الثقافي الأسباني. البناية المجاورة لغاسبير أندغامبيني.

ـ ما اسم الفيلم؟

ـ SOLAS. قرأت أنه نال جوائز كثيرة.

ـ أتصدّق قصة الجوائز؟

ـ لا. لكن الموضوع نفسي. ما إن تعرف أنّه نال جائزة حتى تتشجّع لرؤيته.

ـ نذهب بشرط. إذا لم يعجبنا نخرج. لا تتركني أموت لساعتين.

لا نجد مدخل البناية. نلحق بالداخلين. يلكزني رجا بعد أقل من ربع ساعة. لا أردّ. خلال الفيلم، يخرج مرّات ليدخّن سيجارة.

ـ بشرفك. قُم لنخرج. سينفجر قلبي من الضجر.

تلتفت نحونا امرأة بانزعاج. «عفواً» يقول رجا. يسكت حتى آخر الفيلم.

غضبه مني ينقلب ضحكاً ما إن نخرج: «ما هذه القصة المفبركة. ما هذه الميلودراما العظيمة! قلت لي نال جوائز إذن؟

يريد أن يأكل في مطعم، يقول.

ـ أجلس معك وأشرب شيئاً ما. لست جائعاً.

يطلب طبقاً من البط والخضار المقلية ونصف قنينة نبيذ أبيض.

Twitter: @alqareah

الفيلم ذكّرني بشفيق أيّام كان شريكاً لي في السكن. كان مثلي يسهر حتى وقت متأخّر. يدرس، فيما أنا أقرأ معظم الوقت. يقول إنّه لا يفهم كيف أنال هذه العلامات. لا أخصّص لدرسي إلاّ وقتاً قصيراً.

أكثر ما يغيظه خروجي الدائم لمشاهدة الأفلام في معهد غوته الألماني أو في النادي الثقافي الفرنسي أو الإيطالي. أدعوه لمشاهدة فيلم معي. يقول إنه مع السهر لا يتمكّن من إنهاء دروسه. ما كنت أفهم سبباً لصرفه كلّ هذا الوقت في الدرس. أوّلاً لأنه يستوعب بسرعة. ثانياً لأنه يجيبني دون صعوبة عن أي سؤال معقد. كأنّ المعلومات مدوّنة أمام عينيه.

لذلك أعتدت بداية أن أخبره قصة الفيلم من أوّلها إلى آخرها. ما إن أدخل الغرفة حتى يترك كتبه. يسكب شاياً لكلينا. يسكت بانتظار أن أبدأ. أحياناً كثيرة تكون الأفلام مملة أو عبارة عن مشاهد لا رابط بينها. فأعدّل القصص. أحذف من الحبكة ما لا يعجبني. أدخل على القصة شخصيات. أغيّر الخاتمة.

لا يبقى منها أحياناً إلاّ عنوان الفيلم. يقول: «بعد أن انتهي من هذه السنوات الزفت لن أترك فيلماً إلاّ وأشاهده».

في ما بعد صار يطالبني بسرد فيلم كلّ يوم. ينسى أنني لا أشاهد هذا القدر من الأفلام. عندما راح يسألني عن الكتب. تعلّمت أن أجيبه: «لا شيء مهم» أختلق موضوعاً مبهماً «نشأة المتصرفية في لبنان» أو أي شيء من هذا القبيل.

ـ هذه البطة بلا طعم. كأنك تأكل مطاطاً. يقول رجا.

Twitter: @alqareah

ـ لا أحد يعلم كم مضى على تجليدها. ثمّ إنّ الكهرباء تنقطع عندنا باستمرار، يعني قد تكون...

ـ جوزيف، بشرفك، لماذا تريد أن تعذبّني. ألا يكفي أن طعمها كالإسفنج؟

نتمشّى في الشوارع. ننظر إلى المطاعم. أتساءل بم يتحادث الناس فيها؟ يشير رجا إلى مطعم جديد، يقول: لا أفهم لِمَ الناس فوق بعضها. كل ما يقدمه بضع حبات بطاطا وفليفلة وبندورة مشوية. أليس لديهم أفران في بيوتهم؟

ـ يعني بطتك أطيب؟ أقول.

يقود رجا باتجاه الخارجية. يطلع في مفرق صوب السوديكو. نمرّ قرب بيتي القديم. مع أغنية Glory Box لفرقة Portishead يخفّف من سرعته. رذاذ ينقط فوق الزجاج. فوق جسر سليم سلام يزيد رجا من سرعته. لا أحد غيرنا في الطريق. صوت الدواليب يئز فوق الإسفلت. تلتفّ السيّارة بقوة. أنفي يضرب بلوح القيادة. لا أفهم في البداية سبباً لدوسه المكابح بهذه الطريقة المباغتة. خصوصاً أن الشارع فارغ. أنظر إليه. أجده مبتسماً. يدلّني على هرة تكرج على مهل باتجاه النفق.

ـ يعني كنّا سنموت من أجل عينيّ هرة. هل أنت مجنون؟

أسأله بغضب، فأنفي لا يزال يؤلمني.

لا أنتبه إلى الدم فوق قميصي إلاّ حين أعود إلى غرفتي. في السرير، أستعيد صوت المكابح والدواليب، دورة السيارة السريعة... لا أنام.

Twitter: @alqareah

اليوم استاء الدكتور فيّاض. لم يعجبه أن أنسى يومياتي ثانية. المهدئ الخفيف الذي نصحني بتناوله لا يسبّب الأعراض الجانبية التي انتابتني. ما أحسسته لا علاقة له بالدواء. يقول إن لم أرد تناوله فلا بأس. المهمّ أن أحكي معه بانفتاح، دون تحفّظ. انتهت جلستي معه في ربع ساعة. أحسّ أنّ لا علاقة للأسئلة التي يطرحها عليّ بوساوسي ومخاوفي. أجيب عنها باختصار. أرتبك أحياناً أو أمتنع عن الجواب. فيذكّرني بأهمية قراءته لما بدأت أكتبه. شعور بالانزعاج يتبع زيارتي له. ربّما لأنني أسمعه يستقبل المريض بعدي بالعبارات والطريقة نفسها. كأنني لا أحد. أعود من ڤردان مشياً. أشتري خضاراً ومعلبات من التعاونية. تحضير طعامي في غرفتي يوفّر عليّ مالاً.

دخان المازوت الأسود يفسد استمتاعي بالمشي، وبنقاء الجو وصفوه بعد المطر. أحسّ به يتسلّل إلى داخلي، يعلق بعروقي ويبقّع رئتي. ساعات نومي الثلاث عشرة لم تحرّر جسمي من ثقله. أمام المطاعم ومحلات البوظة الكثير من الطلاب. أفتح باب الشرفة في غرفتي. الهواء البارد يطرد الأنفاس الراكدة منها. أنقع الخضار

Twitter: @alqareah

بالملح الخشن. أوضّبها في البراد بعد تجفيفها. طوال النهار لم أشعر بالجوع. أكتفي بشرب النسكافيه والشاي. قراري أن أدرس لا يصمد طويلاً. أفكّر بأن أمرّ بنديم. الليل لا يزال في أوّله. أستطيع في ما بعد أن أسهر حتى الصباح لأدرس. قبل أن أدخل إلى غرفته في البنروز، أقف على الشرفة. المنارة تشعل رؤوس الشربينات بضوئها. عمود النور يلتفّ فتغرق الشجرات ثانية في شبه عتمة. كأنّها تكبر في الليل. ظلالها تتراقص فوق الإسفلت. أصوات المسجّلات، الضحك والأحاديث والشتائم تختلط في رأسي بهدير سيارات الشارع.

عند نديم أجد رمزي، رفيقه في الهندسة. الشاي الذي يسكبه من الإبريق فاتر بعض الشيء. يتناول المجلة الموضوعة قربه. يتصفّحها. يقرّب رمزي كرسيه أكثر.

ـ اقترب. ماذا تفعل هناك؟ تعال، تفرّج على الجمال.

إمرأة خلاسية. لا ترتدي شيئاً. تنتعل جزمة جلد عالية بكعب. تمسك بيدها سوطاً. الأقراط الطويلة تتدلى من اذنيها. أحجار حمراء وماسية. حمرة فاقعة تلوّن شفتيها المنفرجتين. فوق أحد أسنانها الأمامية وشم. وكذلك فوق سرتها.

ـ يا عين. هكذا تكون النساء. يقول رمزي. أقف خلفهما. أحني رأسي باتجاه الصورة كلما أشارا إلى واحدة.

تكرّ صور نساء شقر وسمر بثياب مخرّمة، في وضعيات مثيرة. في غرف النوم أو في أماكن عامة. فوق درج متحف. فوق سيارة مركونة وسط أوتستراد.

Twitter: @alqareah

ـ معقول. ما هذا الصدر. صواريخ. بشرفك، ألا تطيّر العقل؟ يسأل رمزي.

ـ تشبه البروفسر عربيد. أقول ضاحكاً.

ـ اللّه يلعنك يا جوزيف. يا مفسد المتعة. معقول تشبّه هذه القنبلة بتلك السعدانة العجوز.

يستمرّان في تصفّح المجلة. ثم يختاران الصور الأجمل. عندما يختلفان يلجآن إليّ. أعود إلى جلوسي عند طرف السرير. الشاي يبرد تماماً. أسخّنه قليلاً. أسكب لهما. لا ينتبهان.

ـ اللّه! ألا تتخيّل أنّ صدر ندى أجمل بمئة مرّة من هذه الصورة. يسأل رمزي.

ـ لا يلزمها الكثير لتخلع ثيابها وتتأكّد بنفسك. لا ينقصك إلاّ همّة بسيطة وفكّ عقدة لسانك ويمشي الحال. لا تكن مثل أخينا جوزيف.

ينظران نحوي. يقول نديم:

ـ كانت ثريا ستقتل نفسها من أجلك. وحضرتك لا تفهم.

ـ تخيّلات صبيان مكبوتين. أقول معاكساً.

ـ أنظر من يتكلّم.. البنت دلقت حالها عليك وأنت كالأبله لا حسّ ولا خبر. ماذا تنتظر أن تقول لك صاحبني أرجوك. أرجوك يا فحل، يا سبع.

ينهض نديم من مكانه. يروح يمشي كثريا مقلّداً صوتها الممطوط، مقرّباً وجهه من وجهي.

Twitter: @alqareah

ـ واللّه أنت أجمل منها. أقول.

ـ يعني حضرتك قمر زمانك. علامَ تتكبّر وأنت كالراهب. إلاّ إذا صاحبت من خلف ظهرنا.

يسألني نديم أن أرافقهما عند سمير لحضور فيلم بورنو. أقول: لدي درس كثير.

أغلق سحّاب الجاكيت. تيارات هوائية باردة وأنا أعبر ساحة الحصى. تمرّ أيّام لا أغادر فيها غرفتي. أتغيّب عن بعض الصفوف. أتجنّب الجميع. أغلق بابي. لا أفتحه لأحد. أنام لعشر ساعات كأنني مخدّر. في أيّام أخرى لا أقوى على المكوث ولو لنصف ساعة وحدي. أتنقّل بين غرف أصحابي. أخرج معهم. أكثر من المشروب والسهر. لا أنام. قلّة مالي تمنعني من الشرب كما أريد. الإعلان الذي وضعته عن إعطاء دروس خصوصيّة لم ينفع. لم يتصل بي أحد.

البارحة حلمت في نومي أنني أسير في مكان صامت تماماً يشبه غابة. أمسك بيد لينا، زوجتي. بلى في الحلم كانت زوجتي. أقبّلها. أحسّ بنداوة شفتيها وطعم أنفاسها. أضمّها إليّ. تختفي. أراها بعيداً عني، تمشي بسرعة. لا ألمح إلاّ ظهرها وشعرها الكستنائي القصير. السير باتجاهها يطيل المسافة بيننا. أركض فيما أحسّ طعم شفتيها قوياً تحت لساني. أركض وأركض. المسافة تطول. الأرض تصبح وادياً معتماً. ظلال أشجاره ترتفع كالجبال. صباح كئيب آخر. أقهره بالهرب من غرفتي. كلامها الجازم في شأننا لم يقطع أملي في أن أستعيد علاقتي بها. أحلم بصدف تجمعني

Twitter: @alqareah

بها. كم يصعب عليّ أن أجد معنى لأي شيء في غيابها. منذ اثنين وعشرين يوماً لم أرها. لم أسمع صوتها.

من بلس، أتصل بأهلي. أغلّف السمّاعة بمحرمة. أتخيّل الأيدي الكثيرة التي أمسكت بها. الشفاه التي لامستها. لا أدري لماذا أتصل. يرنّ الهاتف. لا أحد يردّ في البداية. الرنين يتردّد في خواء الصالون هناك. أتخيّل كنباته الغارقة في العتمة. ترفع أمي السمّاعة. صوتها مبحوح كأنّها مريضة.

ـ حبيبي، هل أنت بخير. تسألني بلهفة ما إن تسمع صوتي.

ـ ليس بي شيء. ما الذي يخيفك هكذا؟

ـ لا ليس من عادتك أن تتصل في هذا الوقت. هل أنت أكيد أن ليس بك شيء.

ـ ما بك ماما. أتلفن لأحكي معكم. فلا أفعل سوى إخافتك. يأخذ أبي السماعة منها. يسألني عن دروسي، عن صحتي. يضيف في الأخير: لا تُخفِ عنا، هل حصل شيء ما؟ هل تحتاج مالاً؟

أغلق السماعة. أنتبه أنها العاشرة والربع. وقت متأخّر بالنسبة إليهما. أتخيّلهما مؤرقين. يحاولان أن يحزرا معاً دافعي للاتصال. يندمان أنهما نسيا تماماً دعوتي لزيارتهما في زغرتا. يقلق أحدهما مجدداً. يطمئنه الثاني إلى أنه مجرّد اتصال لا أكثر. سها عن بالي أنهما لا يطيلان السهر مثلي.

أتذكّر جسمها الأبيض. كأنّه يشعّ الآن تحت مصباح الشارع. أمدّ يدي. يحرقني ملمسها. يداها تخفيان بطنها وسرتها. أبعد يديها. ما الذي يخجلك؟ أنا حبيبك، أقول. أقترب أكثر. تختفي.

Twitter: @alqareah

أجلس عند الغرين أوڤل. المصابيح الكهربائية تغرقه بلون فضي. يتماوج العشب فيزرق. أحسّ أنني فوق بحيرة.

أصوات الطلاب المنبعثة من الـ Dorms بعيدة. أنا على متن مركب يحملني بعيداً، فيما الأصوات القادمة من اليابسة تخفت تدريجياً حتى تتلاشى. أضع يدي في جيب الجاكيت.

صقيع الماء يجمد أصابعي.

Twitter: @alqareah

الدراسات التي أقرأها عن الكوليسترول طويلة. تتضارب فيها النظريات حول طُرق الوقاية منه. بعض الباحثين يرى أنّ تدنّي مستواه يؤدي إلى الإصابة بالسرطان. أكثر ما يلفتني في هذا الموضوع هو قصة اكتشاف الكوليسترول. عام 1951 أرسلت وزارة الدفاع الأميركية فريق مختصين في الأوبئة إلى منطقة القتال في كوريا في مهمة تتلخص بتشريح جثث قتلى المعارك. الهدف: التعلّم واكتشاف شيء جديد. بالفعل قام الفريق على مدى ثلاث سنوات بتشريح جثث ألف جندي قتيل. كلّهم في عزّ الشباب. دهش الفريق لملاحظته علامات على إصابة الشرايين التاجية في قلوب الجنود القتلى. علماً أنّ متوسط أعمارهم هو اثنتان وعشرون سنة. بعدها قرّر الفريق تشريح قلب أوّل ثلاثمئة قتيل تُحمل جثثهم إلى المشرحة. كان علماء الأوبئة يتوقّعون أن يجدوا سطح بطانة الشرايين التاجية ناعمة زلقة. لكن بدلاً من ذلك وجدوا ترسبات صفراء ليفية مخطّطة مكوّنة من دهن وألياف في 35٪ من القتلى. 77٪ من جثث القتلى ظهر فيها دليل واضح على وجود مرض قلبي في الشرايين التاجية. كان هذا الكشف جديداً: معناه أنّ العملية الكامنة خلف

Twitter: @alqareah

الأمراض القلبية في هذه الشرايين تبدأ في وقت أبكر بكثير ممّا يظنّ الأطبّاء.

في موضع آخر من المجلّة الطبية أقرأ أنّ الذين يشربون أكثر من سبعة أكواب من البيرة أسبوعياً ـ بحسب جاك كوزيك ـ يزيد لديهم خطر الإصابة بسرطان البنكرياس. إذ تحتوي البيرة على مركّبات نيتروزامين التي لا توجد في معظم المشروبات الكحولية الأخرى.

أفكّر بكلّ أكواب البيرة التي أشربها. سبعة أكواب أسبوعياً؟ أحياناً أشرب أكثر من خمسة في أقلّ من ساعتين. سأبحث في مراجع أخرى. سأجد من يكذّب هذه المزاعم. أنظر إلى غلاف المجلّة. تاريخها قديم بعض الشيء: عام 1996. لا داعي للخوف. كثيراً ما أقرأ نظريات جديدة تناقض ما اعتمده الطبّ في أقلّ من سنتين ماضيتين.

أغسل يدي بالصابون. ثمّ أفركهما بالسبيرتو. اللّه يعلم وحده عدد الميكروبات المعشّشة في هذه المجلّدات والمجّلات.

التدفئة قوية. أبقى عاري الصدر. درسي طوال الليل يخفّف عني الضغط. من الباب الزجاجي تظهر أول خيوط للضوء. أنهض عن الكرسي. أحرّك قدمي ورأسي في كلّ الاتجاهات. الألم في كتفيّ سببه إنحنائي الطويل. تلزمني ليال من السهر كي أنهي ما فاتني. أضع إبريق الشاي فوق الغاز الصغير. عندما يغلي أطفئ النار. أفضّل السير في الجامعة. لا أحد يكون مستيقظاً في هذا الوقت.

أمشي متخيّلاً لينا نائمة. تحلم بي. تتقلّب. تفتح عينيها. تفكّر

Twitter: @alqareah

أن تراني. أنا لا أحتمل هذا البعد عنها. فَلِـمَ تحتمله هي؟ هذا غير منطقي. النسمات الباردة تتغلغل إلى جسمي من الجاكيت المفتوحة. لا أصدّق عينيّ عندما أرى رلى جالسة خلف الكولدج هول كأنّها منحوتة حجر. قدماها مطويتان ومرفوعتان فوق المقعد الخشب. لا تريد أن تنفذ إليها برودة الأرض. ماذا تفعل في هذا الوقت المبكّر؟ لا تقوى على فتح عينيها جيّداً عندما تنظر إليّ. كأنّها لم تنم منذ أسبوع. تعقد حاجبيها كمن تعميه شمس قوية. أتأمّل البحر قبل أن تطلع الشمس فوقه.

ـ مبكرة جداً. هل تحلمين بالجامعة؟ أسألها ملتقطاً سيجارتها التي وقعت منها.

لا تردّ. ترفع كتفيها في حركة طفولية. في كلّ مرة أراها تكون أشدّ نحولاً واصفراراً من المرّة السابقة. إنّها عوارض فقر الدم أفكّر. حتى شعرها يبدو بلا حياة، كأنّ اللون يختفي منه. أريد أن أخبرها إنّ قلّة النوم هي أحد مظاهر المرض أيضاً. لا أجرؤ. صمتها يشيّع في نفسي رهبة ما. في جلوسها المتعب هنا وأنا قربها شيء يحزنني. لا أستطيع تفسيره. أتناول الكتاب الذي وضعته فوق حقيبتها. أقرأ عنوانه. اسم الشاعر. لا أعرفه. أقلّب صفحاته. أنظر إلى الخطوط المتعرجة التي وضعتها تحت بعض الأبيات:

«لم أرد أبداً رؤية وجهك الحزين
وجنتيك الغائرتين وشعرك المتطاير في الريح
رحلتُ عبر الحقول
في الغابات الرطبة
ليلاً نهاراً

Twitter: @alqareah

تحت الشمس وتحت المطر

تحت أقدامي تطقطق الأوراق اليابسة

أحياناً يلمع القمر.».

سيجارتها تقع ثانية منها. فوق بنطالي هذه المرّة. ألتقطها قبل أن تحرقني جمرتها. أسألها إن كانت تريد أن تتمشّى قليلاً. تقول إنّها متعبة لا تستطيع الآن. ستقوم بعد قليل. لا أحسّ بمقدار تبدّلنا إلاّ عندما ألتقي رلى. منذ أقلّ من سنتين فقط، كانت مختلفة. مثلي يملأها الحماس. ثمّ كأنّها انطفأت. ما عدنا مؤخّراً نتحدّث عن الكتب التي نقرأها. حتى حين أسألها عن كتاب تحمله، تجيب باختصار أو لا تجيب كأنها محصورة داخل رأسها.

لا زالت تعليقاتها تضحكني عندما تكون في مزاج جيّد.

ـ أتعلمين أنّ فقر الدم يُشعر بالاكتئاب والأرق...

تقاطعني: ما دخلي أنا، أم أنك تراجع دروسك؟ تقول.

لا أدري لِـمَ تذكّرني بالبطل في فيلم ڤيم ڤاندز. كأنها هي من يركض بخفة فوق السطح. كمن يطير إلى مكان رائع. تركض. تهوي. تسبح في الفضاء. في الشارع بقعة دماء كبيرة.

ألكزها مشيراً ناحية عصفور. رأسه مغطّى بريش أحمر وأزرق. ينقر التراب. يرفع رأسه. ينظر إلينا. ثمّ يعود إلى نكش القش. بحثاً عمّا يأكله. النور يقوى حولنا، كذلك الأصوات من المباني والشارع. نخرج معاً من البوابة. نشتري كوباً من النسكافيه والحليب. نجلس فوق الدرج. البرودة تنسلّ إلينا منه. أراها تنفض

Twitter: @alqareah

سيجارتها في الكوب. ثمّ تشرب منه جرعة كبيرة كأنّها تنسى ما فعلته لتوّها.

أتذكّر ذهابي في الباص مع لينا إلى جبيل. لم ترد أن تقود سيّارتها. جلسنا على المقعد الخلفي. تبعدني عنها كلما أردت إحاطتها بذراعي. تحرّك عينيها باتجاه الناس. تنبّهني إلى خطورة ما أفعله. «لكنك لا تعرفين أحداً هنا» أقول. أتعب من الجلوس قربها دون أن أتمكّن من لمسها. تجحظ عيناها كلّما انفتح الباب. تتأمّل بثبات وجوه الركاب الصاعدين. ساعات من الترقّب والحذر. نختار مقهى قريباً من الميناء. رغم البرد نجلس في حديقته الخارجية، في ظلّ نبتة كبيرة. هناك فقط أراها تضحك متناسية ما حولها. في أحياء جبيل القديمة، تحرص على السير بعيداً عني. كل وجه تلتقيه تخاله أحداً تعرفه.

ـ أرغب في أكل شيء حلو أو شيء فيه سكر، تقول رلى.

نجلس عند «تاج الملوك». الطاولات فارغة كلّها. ليس في المحلّ إلاّ عاملان. تأكل رلى قطعة صغيرة ثم تنكش ما تبقى بطرف شوكتها. تواصل التحديق بالكنافة المبعثرة، تنفض فوقها رماد سجائرها.

لا تسمح لي بدفع الفاتورة. تقول إنها هي من دعاني. الحركة في الشارع تنشط. تمرّ أتوكارات المدارس. ليس فيها إلاّ تلميذ أو إثنان.

تلاميذ الـ I.C والـ A.C.S يسيرون فوق الأرصفة. يتوقّفون عند أفران المناقيش. أنظر إلى السراويل الواسعة التي تنزل إلى ما دون

Twitter: @alqareah

الخصر. أضحك من أشكالهم الطريفة. أتذكّر ما يجري بينهم أحياناً وبين طلاب النيومنز والبنروز. لا يكتفي الطلاّب في الجامعة بالفرجة على مباراة كرة القدم. بل يبلغ بهم الحماس أحياناً حدّ شتم اللاعبين ونعتهم بالحمير الذين لم يروا كرة في حياتهم. نخرج من المحل. تذهب رلى ناحية الحمرا. قبل أن أذهب إلى صفي، أشتري كوب نسكافيه آخر، كي لا يرهقني النعاس فأغفو أثناء المحاضرة.

Twitter: @alqareah

أسمع محاضرة الدكتور حلبي عن جينٍ اسمه إس أر سي المسؤول عن انتشار السرطان في الجسم، بالأخصّ سرطان القولون. صور مكبّرة للأنسجة القريبة من موقع السرطان. يشرح كيف تتفكّك، وبعدها ينتشر السرطان. يتشتّت انتباهي. لا أسمع حديثه عن دور الأعمدة، عن مكوّناتها البيولوجية، عن انهيارها خلال انتشار السرطان. قرأت عنها منذ فترة قصيرة. الرتابة في صوته تشعرني بالنعاس. في كلّ محاضراته أقمع نفسي كي لا أغمض عينيّ وأغفو. عبثاً أحاول الانتباه. أرسم على الورقة أمامي. أكتب مقاطع من أغانٍ أحبّها. يخطر لي كتابة يومياتي. بمجرّد أن أكتب أوّل كلمة ينتابني إحساس أنّ الجميع يحدّق بي. يريدون أن يحزروا ما أكتب. لا زال هناك ساعة ونصف تقريباً كي تنتهي المحاضرة. أتذكّر مخاوفي. الفحوصات التي أجريتها. الأرق الذي هدّ جسمي. كل عوارض السرطان توهّمتها لديّ. الإحساس بصعوبة في البلع وبشيء كالحسك في الحنجرة. إلى انتفاخ البطن والحموضة وفقدان الشهية وانخفاض الوزن. أورام تحت إبطي لا يراها أحد غيري. يخبرني شفيق أنّ معظم الطلاب يحسّون بداية عوارض الأمراض التي

Twitter: @alqareah

يدرسون عنها. ليس عليّ أن أهلع. سيزول ذلك. لكنه لم يكن محقّاً. تكرّ سبحة الأمراض ومعها عوارض لا حصر لها. لينا لم تعرف شيئاً عن أمراضي الوهمية. تظنّ أن حرصي نابع من معرفتي بخطر الميكروبات والڤيروسات. هذا طبيعي، تقول. هي نفسها تخاف. كل شيء ملوّث. أكثر ما يخيفها في اختصاصي رؤية الدم والتشريح. تعجب من كوني لا أخاف أشياء كهذه.

أسمع صوت الأمطار بعد الظهر. أيام الصحو قليلة هذا الشهر. ينسحب الضوء من الصف. يشعّ نور الكهرباء أقوى. كأن الليل حلّ في الخارج. تقرقع معدتي. بإمكان الجالسين حولي سماع أصواتها. أفكّر بالعشاء الذي سأحضّره. ينظر الدكتور إليّ. يكمل كأنّه يوجّه لي الكلام وحدي. أتظاهر بالانتباه: المخ يعطينا صورة عن العالم الخارجي كما ترتسم على شبكتي العينين. في بعض الأحيان يضلّل المخ فيفسّر المعلومات بشكل خاطئ، ويُعرف هذا بخداع البصر. قد تبدو الخطوط المستقيمة مقوّسة والخطان المتساويان مختلفي الطول لأنّ الخطوط المحيطة تضلّل العين وتخدع النظر. كثيراً ما يوهمنا البصر بإحساس الحركة...» بإمكاني أن أفكّر أنّ كلّ ما أراه حولي مجرّد وهم. ينسجه دماغي. العالم حولي محض خيال بصري. حتى الألوان غير حقيقيّة. لا أدري لِـمَ عليه أن يعيد ما درسناه في الفيزياء منذ سنتين، وبالتفصيل الدقيق أيضاً. لا أنتبه إلى أنّه يذكره عرضاً بعد شرح دقيق لعمل العين، وارتباط بعض ما يصيبها بأمراض أخرى في الجسم كالسكري مثلاً. أدرك ذلك عندما يقول «وبالعودة إلى السكّري».

أمشي فيما المطر يستمرّ بالنزول خفيفاً. أعطس مرّات بسبب

Twitter: @alqareah

الرطوبة العالية. كأنني سأصاب بالزكام. سأعدّ وجبة غنية بالڤيتامين «ث» أفكّر. لديّ في البرّاد ما أحتاجه. ألتقي بشفيق أمام المصعد. أدعوه ليأكل معي. يقول إنه ذاهب إلى المكتبة، سيعود بعد قليل.

أفرم الحرّ والبصل شرائح. أنقعه بعصير الحامض وبرش قشرته. أقطع خمس حبّات بندورة أقلبها على النار مع الحامض والبصل دقائق قليلة. أسكب نصف المزيج في الصحن. أضيف فوقه طبقة من القرنبيط المسلوق، ثمّ طبقة أخرى من البندورة والبصل والحامض، أرشّ بضع وريقات بقدونس وجبنة فيتا ألمانية.

لم يعد شفيق بعد. الرائحة تزيد جوعي. أفكّر بتزيين الصحن بالزيتون، لكن ليس لديّ. يخيّل لي نظراً لجوعي أنّ الكمية لن تكفينا كلينا.

لذلك أنقع ما تبقّى من جبنة الفيتا بالماء. أقطعها بعد أن يزول الملح عنها. أفرش فوقها طبقة من البصل المفروم ناعماً، ثمّ أخرى من البندورة. أسكب فوقها ملعقة من زيت الزيتون. يعود وليد يحمل مرطباناً من لبنة الماعز المكبوسة بالزيت.

ـ ألا تخاف لبنة الماعز؟ أسأله.

ـ لِـمَ؟

ـ الحمى المالطية.

ـ لا. ما بك. جدتي تصنعها بنفسها. تغلي الحليب حوالي الساعة. ليس هناك لا حمى مالطية ولا من يحزنون. إذا فكّرت بهذه الطريقة، فعليك أن تخشى البقدونس، القرنبيط، كلّ شيء. هل

Twitter: @alqareah

تعرف الأسمدة التي توضع لها؟ أو التربة التي تنبت فيها؟ ربّما كانت ملوّثة.

كلامه يقطع شهيتي. تعجبه السلطة التي حضّرتها. يخرج ثانية. يعود مع مرطبان زيتون. فوق حباته السود يلمع الزيت. يقول:

ـ الزيتون ليس فيه لا تلوّث ولا حمى مالطية. عليك أن تجد حلاً لهوسك. ما بك؟ إذا شغلت رأسك بالصغيرة والكبيرة ستعيش صائماً.

نشرب شاياً بعد الأكل. يتربّع شفيق فوق السرير. يضبط الراديو على إذاعة لندن. يستمع إلى برامجها منذ كان شريكي في الغرفة. لا يزال على حاله. يتجوّل مرتدياً بيجامته. حتى إنّه يقطع شارع بلس ويشتري من المحلاّت وهو بالبيجامة. عندما يخرج يرتدي فوقها الجاكيت.

يأكل أضعاف ما آكله، لكنّه يبقى هزيلاً. من بعيد يبدو في الثانية عشرة من عمره على الأكثر. في أوقات فراغه يستعير من المكتبة كلّ ما يجده عن حياة العلماء والمخترعين. لا تهمّه الكتب الأخرى. لا يريد شفيق أن يمارس الطب. عندما يتخرّج من الجامعة، سيسافر إلى أميركا، يقول. سوف يصبح باحثاً. منذ حوادث 11 أيلول، يتابع قصص التحقيقات، الاعتقالات، الاعتداءات ضدّ العرب. تقلقه هذه الأخبار. ستؤثّر على إمكانيّة قبوله، يفكّر. أطمئنه إلى أنّ الحال سيتبدّل. هناك ثلاث سنوات بعد.

في عطلة الصيف الماضي، أقضي ثلاثة أيام عنده في الباروك. التعرّف بأبيه يصدمني. كيف ينجب شخص ضخم وطويل إلى هذا

Twitter: @alqareah

الحدّ، ولداً كشفيق؟ لا يتجاوزه طوله الـ 162سم. خلال وجودي عنده، يبقيني في غرفته. يوصد بابها دائماً. لا تلفزيون في الغرفة. مسجل وراديو فقط. في الأماسي نجلس متقابلين عند شباك العقد. تقرع أمه أو إحدى أخواته الباب ظهراً ومساء. يتناول منها صواناً نحاسياً صُفّت عليه أطباق الطعام. عندما ننتهي من الأكل يضع الصوان خارج الباب، ثم يغلقه. لولا خروجنا أحياناً للمشي لاعتقدت أننا لا زلنا في الـ Dorms. المشي في غابة الأرز يشعرني أنني في مكان خارج العالم. أتمنّى أن أضيع هناك دون أن يعثر عليّ أحد. طوال فترة بقائي عنده، لم أسمعه يتبادل مع عائلته أكثر من بضع كلمات. كأنّه يسكن في فندق. ليس بإمكاني أن أفعل مثله عندما أزور أهلي في زغرتا، أُرغم على زيارة بعض الأقارب برفقتهم خصوصاً عمي. لا أعترض رغم ضيقي من الأحاديث والأسئلة التي يطرحونها عليّ.

يقذف علبة الكبريت إلى يد، يتلقّفها بالأخرى. في كلّ مرّة يباعد المسافة بين يديه لتكبر أكثر. كأنّه يلعب بالكرة.

أتأمّل اللوحة القديمة فوق الجدار. لا أذكر من علّقها فينا. الورق أصفر عند الجوانب. أزرق البحر بهت أيضاً. اللوحة لرسام إسباني.

أحياناً أفتقد حياتي الخفيفة. أحسني قادراً على نسيان لينا واسترجاع وتيرة عيش واضحة، لا ألم فيها.

Twitter: @alqareah

يمرّ بي نديم. يقول إنّ أمه أرسلت له مناقيش زعتر وفطائر. يدعوني لمشاركته العشاء. هناك أيضاً سمير ورمزي يقول. أترك الكتب مفتوحة. بإمكان اللقاحات أن تنتظر ليلة أخرى. أفتح البراد. أحتار ماذا أعدّ ولا شيء عندي تقريباً. أفتح علبة تونة. أضيف لها الحامض والبصل والبندورة المفرومة. هذا أفضل من لا شيء أفكّر. أهمّ بالخروج. يجيء رجا. لا يريد أن يرافقني إلاّ إذا اشترى شيئاً. يعود معه قناني عصير ومناقيش كشك وجبنة وقالب حلاوة بالطحينة. أقول الأغراض كثيرة. يترك الحلاوة في برّادي. أتذكّر عشاءاتنا الكثيرة خلال السنة الأولى. فيها الشنكليش والمناقيش، والمخلّلات، مربيات التين والسفرجل، اللبنة المكبوسة بالزيت، الزيتون، أنواع كثيرة من الطبخ المنزلي. بعضها لم أكن قد ذقته ككبة اللقطين والسردين المكبوس بالحرّ والزيت. بعد العطل الأسبوعية تكون الموائد عامرة وغنية. في آخر الأسبوع، لا يبقى إلاّ الفضلات والمعلبات. تتباعد عشاءاتنا في السنوات التالية. ربّما هي المرّة الأولى التي أشارك فيها بعشاء هذه السنة. الغرفة تعبق بأبخرة الطعام. رائحة السمّاق والسمسم فوق سخّان الكهرباء. إبريق الشاي

Twitter: @alqareah

نضعه وسط الطاولة. لا يأكل رجا. يشرب الشاي ويدخّن. المنقوشة التي أضعها أمامه تبرد دون أن يمسّها. لا يبدأ الحديث إلاّ بعد الشبع. يسرد سمير نكاتاً إباحية، قرأها على الإنترنت. يتبادلون المعلومات عن مواقع جديدة. يستمرّ رجا في هزّ رجله ورشف الشاي. لا ينتبه لعدد الأكواب التي يشربها. بعد ساعة أو أقلّ أخرج معه.

يقول إنّ الطقس كان ربيعياً في مثل هذا الوقت من السنة الماضية. نضع أيدينا في جيوبنا. نخفي وجوهنا بقبّة الجاكيت المرفوعة. أتخيّل لينا في بيجامة قطن واسعة. تجلس قبالة التلفزيون. جوّ الغرفة الدافئ يثقل جفنيها بالنعاس. لا تذكر الآن أنني موجود في العالم. شوقي إليها ينقلب غضباً وعتاباً قاسياً. في أحيان، أحسّ بتعب شديد. أقول اختفت من حياتي، حتى صدفة لن ألتقي بها. يتبدّل العالم من حولي. السيارات تسير بلا هدف. الأحاديث والنقاشات فارغة. أتأمّل الناس واقفين إلى واجهات المحلات. سائرين يتكلّمون على الخليوي. العمال يكنسون الأرصفة. بائعو اليانصيب والعلكة يلاحقون المارة. مقاهي الأرصفة، طقطقة الفناجين والصحون فيها. الصحف والمجلات يعبث بها الهواء في الكشك. كأنني خارج كلّ ما يحيط بي. هكذا وحدي ولا أحد.

ـ في أية سنة رلى؟ يسألني رجا.

ـ في الثالثة. أقول.

نجلس على مقعد في باحة الحصى قرب الـ Book Store. المصابيح تعكس لوناً كالذهب السائل. كأننا في قعر كوب بيرة بارد.

Twitter: @alqareah

يخبرني عن عامر الذي اصطدم بسيّارة أخرى منذ يومين. كان عائداً من سهرة، معه مونيك. أسأله إن حصل لأحد شيء ما. يقول ارتجاج بسيط في رأس عامر. لكن سائق السيّارة الأخرى تأذّى. كُسرت قدمه. والقدم الثانية أجريت لها عملية معقّدة. أسأله من المسؤول عن الحادث.

ـ عامر كان يسير مسرعاً عكس اتجاه السير. لا يعرف الطرقات هناك جيّداً. لم يتوقّع مرور سيارات عند الرابعة فجراً.

أتأمّل نظرة رجا. غريبة دائماً. كأنها لا ترى الخارج. تعتم وترتدّ إلى الداخل. رغم تحفظه أحسّ منذ تعرّفت إليه بأنه قريب. أجهل السبب. مع أنّ لا اهتمامات مشتركة تجمعنا.

عندما قضى أيّاماً عندنا في زغرتا، لم تتطلّب تسليته جهداً خاصّاً. الموسيقى، السهر مع بعض الشبان، المشروب. ارتبك أهلي من وجوده بداية. يختلف عنا في الأكل، في الكلام، في كلّ شيء. سألته أمي مرّة إن كانت والدته تعمل، أم إنّها مثلها ربة منزل. علمت حينها أنّه يتيم الأبوين. انقلبت تماماً. تخفّفت من حذرها هي وأبي وإخوتي. لم تعد تحضّر طعاماً إلاّ بعد سؤاله. وإن خرجنا، هناك شيء ينتظره بعد عودته، أعدّته خصيصاً له، عاتبتني، قالت إنّه لا يجوز أن لا أخبرها إن والديه ميّتان.

هكذا، خلال أيّام صارت لديه أحاديث مع إخوتي، مع أمي، أجده جالساً معها في المطبخ يشرب القهوة أو البيرة. يستمع إليها تشرح عن طريقة تحضير الدجاج بالكاري والأناناس، الأكلة التي أحبّها. عندما أقول: «دعيه وشأنه، ما همّه كيف تحضرينها».

Twitter: @alqareah

يراضيها هو مطيلاً مكوثه معها في المطبخ. يساعد في رفع الصحون عن الطاولة. يتطوّع لشراء الأغراض. حتى أنني رأيته يلحق بأختي جانو لأنّها هزئت بشعره. كان مقصوصاً على طريقة الهبيين. أبي أيضاً يخبره عن شركته، مشاكله مع الدائنين. يسمي له مسبحاً معروفاً يعجز عن دفع ما استحق عليه. يسأله رأيه. عرضت عليه إدارة المنتجع إمتلاك شاليه بدلاً من مستحقاته. لا سيولة عندها. في اليوم التالي يصطحبه بالسيارة ليعاينا الشاليه. يستمع إلى أخي مجدي أصغرنا. يشكو له أستاذ الغيتار. يريد أن يتوقّف عن أخذ دروس عنده. عجوز لا يمرّنه إلاّ على أغانٍ قديمة.

يعزف له رجا ألحاناً يحبّها. يقول له ستصبح أفضل مني. فقط داوم على الدروس. يكتب له موسيقى بعض الأغاني. يشجعه على أن يعزفها أمامنا. فجأة صرتُ الضيف في بيتي. ضمّته أمي كما تفعل معي وهي تودّعه. رجته أن يعود ثانية. حتى الآن تسألني «كيف صاحبك اليتيم؟» أجيبها «اسمه رجا وليس يتيم» قبل عطلتنا معاً في زغرتا لم أكن أعرف عنه شيئاً. صحيح أنّه يقول: «جدي.. جدتي» دون ذكر والديه. لكن لم يخطر ببالي أنّه بلا أب وبلا أم.

الآن عندما أنظر إلى وجهه، بلى، أعلم أنه مختلف.

يعود معي إلى غرفتي. نضع شريطاً في المسجلة. نرفع الصوت. نجلس على الشرفة. الهواء يقلّب صفحات كتبي فوق الطاولة كأنّه يصفعها.

يقول إنه سيسجّل لي شريطاً لفرقة guano APES. الهواء يطيّر شعر رجا. يبعد خصلاته عن عينيه. يريد أن يستعير كتاباً مني يقول.

Twitter: @alqareah

يفاجئني طلبه. لم يسبق لي أن سمعته يحكي عن كتاب. لا أذكر أنني رأيت كتاباً في شقته. ربّما يريده لبحث ما في أحد صفوفه.

ـ أي كتاب تريد؟

ـ الكتب التي تقرأها.

ـ حالياً أقرأ عن اللقاحات.

ـ لا، أقصد تلك التي تقرأها أنت و.. رلى.

ـ يعني تريد رواية؟ كتاب شعر؟ ماذا تريد بالضبط؟

ـ أي شيء حلو.

ـ سأعيرك كتاباً قصيراً. أقول.

ـ هل تأتي معي؟ بإمكانك النوم عندي إذا أردت. نشرب شيئاً. الشاي دبّق فمي. يقول.

شقّته تبدّلت. لم أعتد عليها إلاّ نظيفة ومرتّبة. إسطواناته منثورة فوق الكنبة. معطفه فوق ظهر الكرسي. كؤوس فوق الطاولة. قنينة ماء فوق البلاط. نفكّر طويلاً قبل أن يقرّ رأينا على الويسكي. معدته قال، لا تحتمل اليوم حموضة النبيذ أو مشروبات أخرى.

يرفع صوت الموسيقى. يغمس إصبعه في كأس الويسكي. يلحسه. يحرّكه. ترنّ مكعبات الثلج. يسألني لِـمَ لا آكل الشيبس مع الويسكي؟ لا أخبره عن المادة الخطيرة التي تتكوّن وتتفاعل بعد قلي النشويات.

ـ نسيت أن تعيرني كتاباً. يقول.

أعده أن آتيه به غداً. أسأله عن كارولين رغم معرفتي أنّهما ما عادا مقرّبين. لا يجيب. يرفع كتفيه. يخلع حذاءه. ينزل عن الكنبة.

Twitter: @alqareah

يجلس أرضاً فوق السجادة. يحدّق فيها طويلاً كأنّه يبحث عن شيء صغير أضاعه.

يلامس وبرها بيده كأنّه يداعب رأس هرّ. لا أشعر بالراحة إلاّ حين أجلس مثله. سانداً ظهري بالكنبة.

لا أدري كم شربنا. ما أعرفه أننا غنينا. واستيقظت بصوت مبحوح. صباحاً، لا أجده في الشقة. أرتدي ثيابي على عجل. أصفق الباب خلفي. أتلفّت في الشارع حولي، علّني ألتقي به. لا يمكن أن يكون لديه صفوف في مثل هذا الوقت. ربّما. ما أدراني.

كأنني تغيّبت عن غرفتي أيّاماً لا ليلة واحدة. قلبي يخفق بقوة. لم أنم إلاّ ثلاث ساعات. أفكّر بمحاضرات اليوم الكثيرة. أتذكّر موعدي مع الدكتور فيّاض عند الخامسة. بإمكاني أن أتصل بالسكرتيرة وأؤجلّه ليوم آخر. يريدني الآن أن أكتب عن أمي وأبي. قلت له إنني كأي شخص عادي. أحبّهما. ليس لديّ مشكلة مع أيّ منهما. يتجاهل ما أقول. يطلب أن أحكي عن طفولتي.

لا أجد خبزاً في البراد. أقطع قالب الحلاوة. آكل منه قطعة. طعم قديم استرجعه. يذكّرني بليلة شتاء، أمشي فيها حافي القدمين إلى المطبخ. الكل نيام. في الخارج قصف مسموع، وانفجارات تحرّك الستائر. أنا جائع جداً. أتناول قالباً من الحلاوة بالطحينة من البراد. أضعه فوق طاولة المطبخ. أخشى أن توقظ خشخشة الورقة أهلي. القطعة تذوب تحت لساني على مهل.

أهو طعمها؟ أم لذّة العودة إلى البيت بعد أسابيع في الملجأ؟

Twitter: @alqareah

أفلت من الغدد اللعابية، النكفية، الدمعية، الدرقية. أنظر من الشباك. أفكّر بمقدار ضجري. ثلاث سنوات أخرى تنتظرني. أتساءل إن كنت سأصير نسخة مصغّرة عن أساتذتي، ذات يوم. لماذا دخلت كلية الطبّ؟ ألأني أقرأ مجلاّت علمية؟ ليس هذا بسبب. فأنا أحبّ التاريخ والأدب. رغم ذلك لم أفكّر بأي من هذين الاختصاصين. المشكلة هي التفوّق. إذ يعتبر الجميع منذ صغري أنّ الطب هو مستقبلي. ألستُ الأوّل في صفي؟ إذن يجدر أن أختار اختصاصاً فيه تحدٍ كبير لذكائي. عملتُ بجهد لأنجح. خصوصاً في السنوات الأولى. إن تفوتني محاضرة، لا أحد يعيرني ما دوّنه. أسأل أحدهم من أين اشترى كتاباً ما. لا يقول. عالم محفوف بالمنافسة والأسرار.

الآن، أضجر من المواد كلّها، دون أن أرغب في التخصّص في مجال آخر. أحسّ أنّ الأمراض تغادر الكتب وتتغلغل في جسمي. هذه التقرّحات التي تغطي قدميّ المريض. أراها مكبّرة. أحكّ ساقيّ، وكاحلي، أرفع بنطلوني. إحمرار يبقّع جلدي. حتى بعد أن أغلق الكتاب. أراها نصب عيني. القيح ينزّ منها. الرائحة تلوّث الهواء النديّ حولي.

Twitter: @alqareah

أمرّ بالبنروز. لا أجد نديم. أداوم على زيارته، رغم ضيقي منه ومن أحاديثه. بإمكاني المكوث معه إذا كان ضمن مجموعة. أمّا أن أكون معه وحدنا، لن أجد ما أقوله. لكنني أراه آملاً سماع أيّة كلمة عن لينا. أليس هو من تدبّر لي الدروس الخصوصية؟ لولاها ما كنت تعرّفتُ بلينا، جارته في البناية.

حين تتذكّرني ماذا تفعل؟ هل تحزن؟ هل تظنّني ناسياً، منغمساً في حياتي الصاخبة؟ هل ألومها؟ ألستُ أنا من ألّف كلّ تلك القصص؟ خفت أن أقول لها إنّها أوّل امرأة في حياتي.

في البداية، كنت ألتقي بها متمنيّاً أن تكون المرة الأخيرة. أخاف الانقلاب الذي بدّل حياتي. جعلني لا أملك نفسي. نهاري تتحكّم به. صورها تملأ مناماتي. ما عدت حرّاً. يكون مزاجي سعيداً بسببها. فأساعد رفاقي. أدرس طوال الليل. آكل كثور جائع. أحبّ الناس في الشارع. كلّ من اعتدت أن أغتاظ منه يصبح طريفاً. أسهر مع رفاقي، أشرب، أسرد نكاتاً. وجهي يتغيّر. يصفو وترقّ ملامحه.

في أيام أخرى أمشي في الشارع. أحسّ أنّ كلّ الأشياء، المارة السيارات، المحلات، الزمامير تمرّ بسرعة خاطفة كأنني في قطار سريع. من شباكه، تكر صور العالم وتختلط دون أن أتبيّنها. لا أسمع إلاّ صوت عجلات القطار. أهمل درسي. لا آكل. لا أنام. أسكر بعد الكأس الثانية. يؤلمني فكي إن حركته. أخرس كأنّ الكلمات ستوجعني إن حرّكت لساني في فمي. كأن نثرة زجاج عالقة في كعب قدمي. تزعجني لكنني لا أستطيع إيجادها ونزعها.

Twitter: @alqareah

قلت لها عرفت ثلاث نساء قبلها. الأولى صديقة أمّي. الثانية طالبة في الجامعة معي. الثالثة أخت أحد أصحابي. لم أعرف أنّها في كلّ مرة، ستطرح عليّ أسئلة لا تخطر ببال، صرت أخلط القصص ببعضها. تصحّح لي تذكّرني بما قلته عن فلانة أو فلانة أخرى في المرّة السابقة. أدعي أنّ ذاكرتي تخونني أو أنني لا أريد أن احتفظ في ذاكرتي إلاّ بصور لها. لا تصدّق. تجعلني أعيد القصص حتى أندم على الساعة التي اختلقت فيها كلّ ذلك.

صديقة أمي امرأة في أواخر الثلاثين بيضاء البشرة. زوجها قُتل في الحرب. ليس لديها أولاد. في صوتها بحة بسبب كثرة التدخين. كيف بدأت علاقتي بها؟ كنت في السنة الثانوية الثالثة. دروسي صارت صعبة. إضافة إلى ذلك، كان عليّ التحضّر لامتحانات الدخول إلى الجامعة الأميركية. بيتنا فيه ضجيج ليلاً نهاراً بسبب إخوتي. عندما تسمعني أتذمّر من تعذّر الدرس، تدعوني للاستفادة من جوّ بيتها الهادئ. تشجّعني أمّي. هكذا أداوم على الذهاب إلى بيتها كل يوم. لكن لينا لا تكتفي بالعموميات. تريد التفاصيل. كيف تمّ التقارب بيننا. من قام بالخطوة الأولى؟ هل أحببتها؟ كيف كان جسمها؟

الثانية علاقة رومنسية. تقتصر على لقاءات في الجامعة أو المقاهي. لِـمَ تخلّيتُ عنها؟ لا لم أكن أنا المسؤول. خطبت مهندساً يعمل في السعودية. بالطبع تألّمت لفقدانها. لكنها كانت مختلفة عني، وساذجة. أهكذا ستقول عني؟ تسألني. أعلم أنني أوقعت نفسي بين خيطان العنكبوت. لا مجال لأفلت.

الثالثة أخت صاحبي. مطلقة منذ سنتين. سمينة بعض الشيء،

Twitter: @alqareah

لكنها خفيفة ومرنة الجسم بسبب تمارين اليوغا. تمارسها منذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها. منذ البداية تُفهمني أنّها لا تحبّني. علاقتها بي واضحة. لا شيء إلاّ الجنس. عليّ وصف ما نفعله. أستعين بكلّ المشاهد التي قرأتها. أضيف عليها أخرى سينمائية أو من نسيج خيالي.

تقول إنّ هذه التجارب ليست جيّدة. أي امرأة ستحبّني ستصاب بالرعب. فماذا ستقدّم لي زيادة عمّا عشته. أفهمها أنّها ليست بالنسبة إليّ علاقة جنسية. إنّها حبّ حياتي. تقول وماذا كنّ من سبقنني؟ تمارين على الحب؟ إن قلت لها إنني أعشق استدارة ردفيها، تقول إنني لا أجد جديراً بالغزل فيها غيرهما. أليس لحم بطنها مترهلاً؟

في لقاءاتنا الأخيرة لا تفعل سوى البكاء. تقبّلني باكية. تنام معي فيما دموعها تغسل جسمي. صرت أمتنع عن النوم معها. أجلس قربها. أحضنها بين ذراعي. أكان عليّ أن أخبرها إنّها أوّل امرأة أرى صورتي في عينيها. أحلم أن أهرب معها، لنعيش في بقعة نائية ومعزولة. وحدنا دون أحد.

أوّل مرة رأيتها. كنت جالساً إلى طاولة السفرة. قربي ابنها وائل. يحلّ مسألة في الرياضيات. كان الطقس حاراً. فتحت الباب بمفتاحها. علّقت حقيبتها بطرف الكرسي. اعتذرت عن تأخّرها. أعرّفها بنفسي. تقول إنّها ستدفع عشرة دولارات لقاء كل ساعة. ترسل وائل إلى غرفته.

تريدني أن أدرّسه أيضاً الإنكليزية. هي تفقد أعصابها معه. الاختصاصية في المدرسة نصحتها أن تخفّف من تسلّطها عليه. تقول

Twitter: @alqareah

إنّه إذا لم يحسّن معدّلاته في الامتحان سيرسب. تطلب مني تدريسه كل يوم. الامتحانات قريبة جداً. أقول إن هناك شهراً تقريباً كما فهمت من وائل.

ـ ماذا يفعل شهرٌ معه؟ تسألني بحزن.

لم أرَ زوجها أحمد إلاّ مرتين. يعمل حتى السابعة مساء. أحياناً إلى ما بعد ذلك. صافحني في المرتين ذاكراً اسمه. يبدو أصغر من عمره. أعلم من لينا إنّه يركض ساعة كلّ صباح. ويلعب كرة المضرب مرتين على الأقلّ كل أسبوع. بعد أن انتهي من تدريسه، تدعوني دائماً لآكل نوعاً من الكاتوه أو البوظة التي تحضّرها بنفسها. نحكي في هذه الدقائق القليلة عن جامعتي ودروسي. عن عملها القديم الذي تتركه مضطرة بعد إنجابها سناء ابنتها الصغيرة. لا أدري متى بدأتُ أغرم بها؟ ما أعرفه أنني صرت أطيل البقاء معها بعد الدروس. ألاعب سناء. أو أعطي وائل تمارين إضافية ليحلّها. أنتظره حتى أصحّحها له. أختلس النظر إليها. ترتبك كأنّها من عمر ابنتها تحمّر كلما اصطدمت بي عرضاً.

كانت تجلس قربي. تريني صور تخرّجها من الـ B.U.C الكلام معي، تقول، ملأها حنيناً إلى تلك الفترة من حياتها. أقول، متأمّلاً الصورة إنّها الآن أجمل بألف مرّة. ترتجف ركبتها الملتصقة بساقي. أمسك بيدها. لا تسحبها. كل شيء يتوقّف حولي إلاّ قلبي. كأنّه ينبض في صدري، في رأسي، في عينيّ. أستطيع أن أبقى هكذا إلى الأبد. ترفع يدي إلى محاذاة فمها. تقبّل أصابعي. مجيء سناء يقطع عليّ تلك اللحظات. أغضب من نفسي الليل بطوله. لم أخبرها كم أحبّها. ألم تنتظر منّي ذلك؟ ماذا فعلتُ؟ سكتّ.

Twitter: @alqareah

في اليوم التالي تتجنّب الجلوس. تقدّم لي كوب ليموناضة وتختفي في الداخل. أقول لوائل أن ينادي أمّه بعد انتهاء الدرس. لا تنظر إليّ. تسأل عن سير دروس وائل. أريد مكالمتها. أفضّل خارج البيت، أقول.

لا تجيب. عند العاشرة صباحاً. أراها قادمة. نظارتان شمسيتان تخفيان معظم وجهها. ترتدي ثوباً أبيض بلا أكمام. يصل إلى الركبتين. تقول ما إن أبعد لها الكرسي، إنّها تفضّل الجلوس في الداخل. لا تنتزع نظاريتها عن عينيها. تجفل ما إن يدخل أحد، أو يقترب نادل. حديثنا يتعثّر، تقاطعه أدنى حركة تحصل حولنا.

نستأجر غرفة فيما بعد في بناية للشقق المفروشة في الحمرا. ندفع إيجارها مناصفة. الدروس الخصوصية تؤمّن لي المصاريف. لقاءات قليلة نجهد كلانا لتتحقّق. تخاف حتى ونحن وحدنا. أحاول طمأنتها. تقول: «تظنّني مثلك معتادة على هذه المغامرات؟».

بداية نلتقي مرة واحدة كل أسبوع. ثم مرتين كلّ شهر. المال الذي حصّلته من الدروس الخصوصية ينفد. أمنع عن نفسي أشياء كثيرة. أوفّر في طعامي، في لباسي، في كتبي. فأستعير بعضها، وأصوّر بعضها الآخر. شهور لا أشاهد فيها إلاّ الأفلام التي تعرض على التلفزيون. يتعبني انتظارها. لولا المكالمات الهاتفية لكنت غرقت في حزني.

كلّ ما أفعله أو أقوله يصبّ في النهاية ضدي. إن قلت «حبيبتي لا أريد إلاّ أن أكون معك». تجيبني: «لا ينقصني ضغط إضافي».

زوجها لطيف ومحبّ معها ومع أولادها فأيّ عذر لعلاقتها بي تسألني.

Twitter: @alqareah

ـ العذر أنني أموت فيك.

ـ كما متَّ بمن سبقني؟

يتبدّل شكلها في الشهرين الأخيرين. تبدو مريضة. أية كلمة تجرحها.

لا يخطر ببالي إلاّ ذكريات مؤلمة. كأننا لم نعش أبداً لحظات حلوة.

في الكافيتريا أسرع إلى طاولة رجا ما إن أراه. أعجب من شربه للشاي رغم كرهه له. يسألني عن الكتاب. أقول سنأتي به من غرفتي.

ـ عمّ يحكي؟

ـ قصّة رجل يعيش وحده. ثمّ تأتي حمامة لتفسد حياته وتبدّلها.

تبهرني أشعة الشمس. بعض الفتيات في قمصان بلا أكمام. يتأمّلن أذرعتهن التي لوحتها شمس الربيع. لِـمَ لا أشعر بالدفء مثلهن؟

Twitter: @alqareah

كنت ذاهباً لأدرس في إحدى قاعات المستشفى. تذكّرت كم تكون مكتظة بطلاب الطب، خصوصاً إنّ الامتحانات تقترب. أعود إلى غرفتي. أكوّم أوراقي ودفاتري فوق الطاولة. أقف إلى الشرفة. مدرسة الـ I.C غارقة في العتمة. كأنّها لم تكن تعجّ بصراخ التلاميذ قبل ساعات فقط. صوت طائرة تعبر السماء. أنظر نحوها. أرى نوراً يسبح في الفضاء، وآخر يومض في مقدّمتها. صوتها يبعث فيّ رغبة بالسفر إلى مكان بعيد. أحياناً أرى الطائرة قادمة من جهة البحر دون أن أسمع صوتها. تبدو كالسابحة فوق سطح الماء. البحر أسود. قناديل الصيادين في المراكب تلمع فوق صفحته. الجوّ دافئ. سيّارة تعبر الشارع على مهل. صوت راديو يأتي من بناية بعيدة.

في هذه الساعة، ماذا تفعل لينا؟ أتجلس مثلي متكئة إلى درابزين شرفتها؟ أتنسى وائل وأحمد وسناء للحظة؟ تذكرني. بلى أحسّ بقوّة أنّها في هذه اللحظة بالذات، تتذكّر كيف أضمّها، وأشمّ شعرها. كيف أنطفئ وأنا أراها تعلّق حقيبتها بكتفها. تمشي على رؤوس أصابعها، تفتح الباب. لا تغلقه خلفها. لا تريد أن ينتبه لها أحد. لا تستقلّ المصعد كي لا تلتقي بالساكنين. أُبقي الباب

Twitter: @alqareah

مفتوحاً. أتسمّع على دعساتها تنزل الدرج على مهل. أركض باتجاه الشرفة. أتأمّل مشيتها السريعة. وقوفها عند المفرق. كأنها ترتاح من جري طويل. تخبرني إنّ جسمها يتبدّل ما إن تقترب من البناية والشقة. تحسّ أنّها تمرض. ترتفع حرارتها. يسيل منها العرق في عزّ البرد.

أذكر جسمها ينتفض بين ذراعي. بداية كنت أخاف عليها من هذا الانفعال الشديد. ثمّ صار جزءاً منها. الارتجاف والبرد الذي لا يبدّده شيء. كلما غمرتها زاد.

أعود إلى كتبي. أتصفّحها بسرعة. أتثاءب مرّات. أشرب كوبين من الشاي علّني أصحو قليلاً. لا يعلق في ذهني إلاّ كلمات لا رابط بينها: دراسة فرامنجهام، برنامج (CPPT) نظرية جون لاروزا.

أنزل إلى الردهة على غير عادة، لا أحد يشاهد التلفزيون. صور دبابات أسرائيلية تدمّر بيوتاً في الضفة. شبان فلسطينيون معصوبة أعينهم. مظاهرة في الوسط التجاري ضدّ المازوت. المتظاهرون وضعوا كمامات فوق أفواههم. نائب غاضب يتلو بياناً. مشاهد من التحضيرات في كوريا واليابان استعداداً لكأس العالم في كرة القدم. مقابلة مع المهندس الإنكليزي الذي بنى مطار كوريا المتميّز. مقابلة أخرى مع رئيس الفيفا، يثني على جهود الدولتين المضيفتين. أضجر. لا شيء على التلفزيون. أخرج لأمشي.

أسمع صوت دعساتي فوق إبر الصنوبر. في مكان معتم، شاب وفتاة متعانقان فوق المقعد. أبتعد عنهما. أجلس في مكاني المفضّل، الغرين أوڤل. أرفع رأسي نحو السماء. أرى رؤوس

Twitter: @alqareah

النخلات. كأنّ النجوم في السماء معلّقة في أعلى سعفها. عن يساري، قاعات النايسلي مضاءة. طلاب يدرسون، وجوههم بيضاء تحت أضواء النيون. كتب ودفاتر مرصوفة على الطاولات أمامهم. بعضهم يغطّ فوقها في نوم عميق. أفكّر أنّ النظارتين ستتركان أثراً عميقاً عند عظمة الأنف. وجوه متعبة تتكرّر كمشهد واحد عبر النوافذ المضاءة.

رائحة دجاج مشوي يحملها الهواء من بلس. لم آكل اليوم سوى سندويش لبنة وكبيس خيار. أشمّ الرائحة بقوّة أكبر. أتذكّر الحمرا. ماتت لينا ضحكاً عندما أخبرتها عن الكوكتيلات التي أحضرها. وكيف أصنّف الجمعيات وفقاً لكرمها في تقديم المأكولات. في جمعية الشابات المسيحيات في المكحول ما كنت أفوّت كوكتيلاً. حتى لو اقتضى الأمر أحياناً حضور محاضرة أو جزءٍ منها. حلويات وبيتي فور ومعجنات وفاكهة. لم يكن أحد يستغرب وجودي. كأنني عضو ناشط في الجمعية. لا بل كان هناك فتاة تتقدّم نحوي ما إن تراني. نتبادل كلاماً عن أهمية المحاضر. عن نشاطات الجمعية ودورها في محو الأمية ومساعدة الفقراء والمعوقين. في ما بعد صارت تحكي عن أمور شخصية. مشاكلها مع المديرة في عملها. تعمل محاسبة منذ سبع سنوات في مؤسسة للتصوير وبيع ماركات عالمية لآلات التصوير. تقول إنّها معها لا ترسو على برّ. في يومٍ قد تكون في الجنة. وفي يوم آخر، تعكّر مزاج كلّ الموظفين بعصبيتها وطلباتها غير المنطقية. تسألني رأيي في الاستقالة. لم تعد قادرة على تحمّلها. تحسّ أنّ كرامتها في الأرض. يلعن المال وساعته، تقول. كانت كمعظم فتيات الجمعية تميل إلى البدانة. أنتبه

Twitter: @alqareah

إلى الشبه العجيب بينهن، في اللباس والكلام. نفس الحركات باليدين أثناء الحديث. اللهجة ذاتها كأنّهن جميعاً من عائلة واحدة. تحمّسها هذه الأخبار تقول إنّ بودها أن ترافقني إلى أحد هذه الكوكتيلات. تحبّ أن تفعل مثلي. تعبت من الحذر ومن الحسابات تقول. لكنّها لم تفعل.

أعود إلى غرفتي. يبرد الهواء القادم من الشرفة. أفكّر بموعدي الذي أجّلته ليوم غد. ماذا يحصل إن لم أذهب إلى عيادة الدكتور فيّاض ثانية؟ سأُغضب أستاذي؟ ربّما نسي الأمر برمته، لستُ أوّل من يخبره عن إحساسه المتواصل بالمرض. سيرتاح الدكتور فيّاض من مريض لا يكسب منه أيّ قرش. إكراماً لأستاذي لا يأخذ مني شيئاً. ما فائدة هذه الزيارات؟ كلامه عن شخصية الابن البكر، معاييره الطبيّة لا تنطبق عليّ. ثمّ لست حالاً ميؤوساً منها. قرأتُ عن شخص في إنكلترا مهووس بالنظافة والخوف من الجراثيم، قضى ستاً وأربعين ساعة تحت دش الماء. اضطر المسعفون إلى خلع بابه وإخراجه بالقوّة. هذا مريض. بلى لكن ليس أنا.

أحلم أنني في شقة الحمرا المفروشة أنام. قربي لينا. أضمّها من خلف. أشمّ رائحة التفاح في شعرها. أشدّها إليّ. ظهرها يلتصق بصدري. تحشر قدميها بين ساقيّ. السرير يضيق. تنحشر بي أكثر. أقبّل رقبتها. تستدير ليواجهني وجهها. أفتح عينيّ. وجه امرأة لم أرها في حياتي. أعلم أنّه وجه أخت صاحبي المطلّقة. أفزع. يصيبني القرف من جسمي. أفقد رغبتي. أقول: أنا ألّفتها، هي غير موجودة بالفعل. لا يزول الكابوس. وجهها المبتسم، أراه بوضوح رغم العتمة. لِـمَ ابتسامتها مخيفة إلى هذا الحدّ؟

Twitter: @alqareah

أستيقظ. الضوء لم يطلع بعد. الهواء صار بارداً جداً. أغلق باب الشرفة. أجلس على كرسي في مواجهته. أتأمّل السماء. عتمتها تزول تدريجيّاً.

صباحاً، يطلب مني مسؤول الـ Dorms أن أقابل العميد. يريد رؤيتي حالاً. في طريقي إليه أفكّر بأسباب هذا الاستدعاء. أهو غيابي عن بعض الصفوف؟ لم أتجاوز حدودي على حدّ علمي. ماذا لو علم بعلاجي عند محلّل نفساني؟ هل يعني ذلك اضطراري لمواصلة العلاج؟ هل يودّ الاطلاع على سير أموري النفسية؟ لا أظنّ. وإلاّ ما معنى سريّة العلاقة بين الطبيب والمريض؟ لم يحصل أيّ خلاف بيني وبين أحد الأساتذة، أو الطلاب.

أنتظر أكثر من نصف ساعة وصول العميد إلى مكتبه. أحاول تهدئة نفسي. ليس هناك ما يوجب توتري. أقول.

أجلس قبالته. يمدّ نحوي ورقة. يطلب مني أن أتصل بهذا الضابط. ليس تحقيقاً. بضعة أسئلة روتينية. أحدّق بالورقة أقرأ اسم الضابط، تحته رقم هاتف.

يسألني: «رلى نصر صديقة لك؟» أهزّ رأسي بالإيجاب غير فاهم علاقة الضابط برلى.

يخفض العميد صوته كأنّه يخشى أن يسمع أحد غيرنا الحديث.

ـ توفيت رلى. جرعة مخدّرات زائدة... تعلم إجراءات التحقيق. الأسئلة في مثل هذه الظروف تكون...

لا أسمع بقية كلامه. أمشي ناسياً الورقة مفتوحة في يدي. فمي يجفّ. لا أدري كم وقتاً مشيت. أضرب باب رجا بقبضة يدي. لا يفتح أحد. يدي تؤلمني كأنني خبطتها بجدار.

Twitter: @alqareah

بعد الظهر أدخل إلى سينما السوديكو. أشتري تذكرة غير آبه بالفيلم الذي يُعرض. أهرب من ضوء النهار. أحسّه يعمي عيني. في عتمة الصالة، أغمض عيني. عندما أخرج، يكون الضوء على آخره، لا أعرف أين أذهب. قدماي تؤلمانني.

عند تقاطع مار إلياس، تغادرني بقايا قوّتي. أتكئ إلى عمود مصباح الكهرباء. كأنني جذع نبتة نخرتها الديدان. مصابيح السيارات توجّ في عيني. قنينة الماء التي أشربها لا تزيل يباس فمي وجفافه. حنجرتي تؤلمني كأنني صرخت ساعات طويلة.

لا أدري لِـمَ أعود إلى بيت رجا. أضرب بابه كأنني سأحطّمه. لا أحد. لا ضوء ينفذ من تحت الباب.

لا أقوى على البقاء وحدي. شفيق يدرس. أجلس على كرسي قبالته، أشرب شاياً. يسألني لِـمَ لا آتي بكتبي أيضاً؟ لا أردّ.

الجامعة صامتة. لا أسمع إلاّ سيّارات الأمن تجول في الدروب كل ساعة. الجميع نيام حولي تقريباً. أجلس على مقعد الخشب. المصابيح تنعكس على أرض ملعب التنس. اللون الأخضر يصبح بنيّاً في الليل. أتذكّر جلوس رلى على الطرف الثاني من هذا المقعد.

ـ لم يكن فقر دم إذن.. لماذا لم تقولي شيئاً؟

أجفل من صوتي. يبدو قوياً في سكون الليل.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفصل الأخير

رجـا

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

أذهب إلى مونو. أركن السيارة في كاراج البناية. جدي ليس في البيت. لا يزال في ضهور الشوير. أجد مفاتيح بيت أهلي في الجارور الثاني من الخزانة، في مكانها القديم. أغراض جدّتي اختفت من الأدراج والخزانة. لا شيء سوى تايور واحد مغلّف بالنيلون. الستائر السميكة تمنع نفاذ الضوء. كأنّه آخر العتمة لا عزّ النهار.

عند العتبة تسألني أم السعد إن كنت سأعود للغداء. أقول: لا.

أمشي في الأحياء القديمة نفسها. آتي وحدي، لأوّل مرة، دون أن يرغمني أحد. أمسح العرق عن جبيني بمحرمة ورق. الناس في قمصان خفيفة. الطقس دافئ لكن الغيوم تحجب السماء والشمس. لون رمادي أغبر يمتدّ فوقي. لا ألتفت إلى بيت العجوز قبالة بيت أهلي. أعلم أنّها لم تبرح مكانها خلف زجاج النافذة. كأن التحديق وسّع عينيها المخيفتين. المطعم تحتنا علّق لافتة عليها مصباح شبيه بتلك الموزّعة في حديقته الخارجية. قربه اسم المطعم بأحرف صينية أو يابانية. رائحة سمك وخضار مقلية وبهارات أشتمّها ما إن أقترب. الكراسي لا تزال مرفوعة فوق الطاولات. البلاطات الصغيرة لم

Twitter: @alqareah

يجفّ الماء عنها بعد. عامل يسقي النباتات، وأشجار البونساي بخرطوم ماء.

السلالم نظيفة. أنظر إلى لوحة الفسيفساء أمام مدخل البيت. أنتبه أن عدد الأحجار الناقصة قد زاد. في صغري كان هناك ثقب في ذيل الحصان. الحصان اليوم بعين واحدة. الفارس فقد السوط. لم يبقَ منه إلاّ القبضة، كأنّه يحمل مدية أو خنجراً دون شفرته. الحجارة الناقصة في لحيته، تظهره كالمصاب بمرض جلدي.

أحسّ أنّ المفتاح في قفل باب الحديد يتكّ بقوة ويطمس خرير ماء الخرطوم.

الهواء في الشقة مليء بالغبار. أعطس عدّة مرّات. رائحة الأغلاق تدغدغ أنفي. أشتمّ عفونة خفيفة. ماذا يمكن أن يتعفّن هنا أفكّر. لا أطعمة. لا شيء. الكنبات المغطاة بالأبيض، تشبه جثثاً في مشرحة. أفتح الستائر. بعضها لا ينفتح. الصدأ يعيق سكتها. الأمطار خلّفت وحولاً فوق الواجهات الزجاجية. أعجب من مقدار الغبار المترسّب فوق الطاولات. من أين يأتي وكل شيء محكم الإغلاق؟ مسكة باب المطبخ تسقط أرضاً ما إن أحرّكها نزولاً. أحاول إعادتها مكانها. لا أنجح. سأجرّب تصليحها بعد قليل أفكّر. البيت كما حفظته في ذاكرتي مختلف جداً. حتى توزيع غرفه اختلط على مرّ السنوات ببيوت أخرى سكنتها أو أقمت فيها لفترة.

الشرفة أتذكّرها أوسع والسقف أعلى. أعشاب تنبت الآن عند جانبي مصرف المياه وبين شقوق البلاط. الطلاء تقشّر عن جدرانها. أكياس نيلون وعيدان يطيّرها الهواء من جهة لأخرى.

Twitter: @alqareah

أفكّر أنّ اهتمام جدّتي بالبيت لم يبعث فيه حياة. كأنه مهجور منذ قرن لا من بضعة أشهر. أرفع الملاءة عن الكنبة. غيمة غبار تعبق في جوّ الصالون. أجلس ماداً قدمي فوقها. أتأمّل الحفر الدقيق في خشب ظهرها. يتقوّس كالقبة. أعشاش العناكب عند زوايا السقف وأقدام الكنبات وأسفل طاولة السفرة. وبر المخمل تساقط. ملمس القماش خشن. أحدّق بغرفة السفرة قبالتي. في واجهتها الزجاجية تماثيل وأواني كريستال، فضيات معتمة، زال بريقها، يتوسّطها شمعدان كبير، تبدو من بعيد كأنّها من قصدير. الصور في وسط الواجهة داخل إطارات من فضة وخشب ونحاس. لا أتبيّن الوجوه من بعيد.

ينزل الماء من الحنفية موحلاً صدئاً. أتركها مفتوحة قليلاً. يزول اعتكارها فأغسل وجهي. أجفّفه بمحرمة ورق. أسمع صوت الثاقب، طرطقة الأخشاب وحجارة الباطون، هدير خلاّطة الإسمنت وصراخات العمال قادمة من ورشة ترميم الكنيسة. تجري أعمال الترميم فيها من قبل دخولي الجامعة. مرّة كنت أمرّ في الزاروب. أوقفني العمال. قالوا لي أن أعود أدراجي. الطريق مقطوعة. رفضت لأنني مستعجل. أشار أحدهم إلى البورة أمام الكنيسة. عامل راقد في وسطها. يئن فيما الدماء تكرج من رأسه ووجهه وقدميه. قالوا سقط عن السقالة، ينتظرون الإسعاف. أحزنني مشهده. فكّرت أنّه هو ربّما من أسمعه يغنّي كلّما مررت بالحي.

لا أصدّق أن جدّتي أبقت كلّ شيء على حاله هكذا. في خزانة المطبخ، أجد فوطاً. آخذ واحدة لأجفّف بها وجهي ويدي. أغسلهما مراراً. علّني أبرّد جبيني الملتهب. ألوان الفوط مطابقة

Twitter: @alqareah

لألوان الستائر. لكنها حافظت على رونقها عكس الستائر. صار أبيضها رمادياً وأخضرها فاتحاً جداً. الخطوط فيها كأنّها محيت. في الجارور الآخر مآزر كثيرة، مطوية بعناية. هل كانت أمي تربطها حول خصرها؟ أكانت هي من يجلي ويعد الطعام، أم هناك خادمة تقوم بدلاً منها بذلك؟

في الخزائن السفلية لواجهة الزجاج أجد قناني ويسكي وسينزانو وجين وعرق كفريا ونبيذاً إسبانياً وفرنسياً وبيرة كروننبورغ. كلّها مغطاة بالغبار. هناك قناني مفتوحة. بعضها فارغ. تبخّر ما في داخلها. في كعب قنينة ويسكي مقدار كأسين. أكرع منها جرعة. أقرأ عليها Dewars. آخذ كأساً. أغسله بالماء. أفتح قنينة ويسكي Black Label. أسكب كأساً. أحمله متنقّلاً ما بين الشرفة والصالون. أقف عند يمين الشرفة. أستند إلى الجدار. أضع كأسي فوق الدرابزين. أتأمّل حديقة المطعم. من ناحيتها أسمع موسيقى لشوبان. رجل خمسيني تجلس قبالته امرأة تبدو زوجته. إناء ورود بيضاء وصفراء يتوسّط الطاولة. حولهما الطاولات فارغة. تنعكس أشعة الشمس فوق السكاكين والشوك فتلمع بقوة.

كأنّ شيئاً لم يحدث، أفكّر. التلاميذ يذهبون إلى مدارسهم. الموظفون إلى أعمالهم. الأساتذة يلقون محاضراتهم. شاحنات سوكلين تجمع النفايات.

خبر موجز في صفحة الحوادث المتفرّقة:

«وُجدت بعد ظهر أمس جثة رلى ن. (21 عاماً) في شقة وليد ب. (22 عاماً) في منطقة القنطاري ـ الحمرا. تبيّن بعد معاينة

Twitter: @alqareah

الطبيب الشرعي أنّ الوفاة ناتجة عن جرعة مخدرات زائدة. والتحقيقات جارية لكشف ملابسات الحادث».

أنظر إلى قصاصة الورق، أطويها. أعيدها ثانية إلى جيب بنطالي. أستلقي على الفراش المغلّف بالنيلون. أفكّر أن جسم أحدهما كان يستقرّ في هذا الانخساف. من كان ينام على هذه الجهة، أمي أم أبي؟

Twitter: @alqareah

العرق يتصبّب من جسمي. نيلون الفراش يترك علامات حمراء عند جانبي وجهي ويدي. أضيء المصباح قرب السرير. ضوء شفّاف تعكسه القماشة الحمراء. عطش شديد أحسّ به. لا ماء هنا للشرب. أدخّن السيجارة الأخيرة. أسمع رنين الخليوي يتردّد كأنّه لن يتوقّف أبداً. يسكت لدقيقة ثمّ يعود ثانية.

ثيابي مجعوكة. أفتح الخزانة. الدرف السفلية مليئة بقمصان وبنطلونات صيفية. آخذ بنطلوناً رمادياً. رائحة النفتالين تعبق في أنفي. أرتديه. يبدو قصيراً وواسعاً عند الخصر. أختار حزام جلد كلاسيكياً. معظم الأحزمة الأخرى عريضة. في الدرف العالية ثياب شتوية وجاكيتات جلد ومعاطف وبذلات رسمية. الكنزات مرصوفة فوق بعضها. أكياس صغيرة من الخزامى موزّعة بين الرفوف. في الأدراج، ثياب داخلية وجوارب. في الدرج الأخير أجد علاقات مفاتيح، قدّاحات رونسون ودوبون، محافظ جلدية. ساعة بسلسلة، نقود معدنية، خمسة قروش، ربع ليرة، نصف ليرة فرنكات فرنسية. زنجار أخضر عند أطرافها.

المصابيح في المطعم تنير السلالم التي أنزلها على مهل. أضع

Twitter: @alqareah

يداً فوق معدتي. أضغطها لأخفّف من التقلّصات. المطعم فارغ الآن. العامل يمسح الطاولات. يلمّع الكؤوس بمنشفة جافة.

الورشة ساكنة. تبدو مهجورة منذ زمن. أخشاب مرمية كيفما كان. أكياس الترابة المفتوحة مبعثرة فوق ساحة الرمل. كأنّهم ساعة الانصراف يتركون كل شيء في فوضاه. لا أحد أمام النوادي الليلية. أبوابها مغلقة.

الوقت باكر على السهر. كلب كبير يعوي باتجاهي، تشدّ صاحبته حبله، تسكته. لا يفعل. ينبح متفرّساً في وجهي. أعبر إلى الناحية الأخرى. أمام المطعم ثلاث سيارات مرسيدس سوداء. يقف عند أبوابها حرّاس في بدلات كحلية وقمصان بيضاء. نظارات شمسية تخفي أعينهم.

لا أجد دكاناً مفتوحاً إلاّ في شارع عبد الوهاب الإنكليزي. أشتري ماء، ربطة خبز، سجائر، قالب جبن، وشومبواناً، إسفنجة وسائلاً للجلي. الكيس ثقيل. طوال سيري أنقله من يدٍ إلى أخرى.

ما إن أصل حتى يقرع بابي نادل من المطعم. قالب من الكاتوه والبوظة هدية ترحيب من صاحب المطعم. يأمل ألا تزعجني الموسيقى والأصوات. أضعه في الثلاّجة. الكهرباء موصولة إلى البراد رغم خلوه من الأغراض. يذكّرني الضوء فوق الرفوف الفارغة بالمستشفى. أضع الخبز والجبن والماء فيه.

ألبس بيجامة زرقاء. أعتاد على رائحة النفتالين. أقعد على كرسي صغير مبطن بالساتان أمام المزينة. أرى وجهي مشوّهاً في المرآة البيضاوية. رصاصة حوّلت زجاجها إلى قطع صغيرة. لا أدري لِـمَ لم تبدّل جدّتي المرآة. هذا ليس من عاداتها. على المنضدة

Twitter: @alqareah

أمامي: كريم لليدين، للجسم، منظّف للوجه، قنينتا عطرٍ: كريستيان ديور وإيستيه لودِر، فرشاة للشعر، مزيل للرائحة ماركة مانيوليا. في الأدراج أمشاط وربط للشعر، دبابيس لماعة للسهرة، أخرى ملونة أو سوداء، أقراط، أساور أفريقية عريضة من فضة وجلد وخرز ملوّن. في الجارور الثاني، دفتر تذكارات أتصفّحه. بعضهم يلصق خصلة شعر قريباً من عباراته. ألبومان للصور. أمي صغيرة بين والديها. أتأمّل هذه الوجوه. لم أعرفها. نمش ينقّط أعلى وجنتي جدّتي. لا تنظر إلى عدسة المصوّر. تحني رأسها، تبتسم لأمي فيما يدها فوق رأسها. جدي يقف ثابتاً، تجاعيد كثيرة عند طرف عينيه. أقلّب الصور. أمي تكبر. صديقاتها أيضاً. سلاسل غليظة تتدلى من الأعناق، أقراط تكاد تلامس الأكتاف، تسريحات عالية، تنانير قصيرة بنطلونات واسعة، أحذية ذات كعوب عريضة وعالية. صور تخرّج وحفلات. رسائل، بطاقات. أقرأ رسالة من صديقة اسمها رباب. تحكي عن غرفتها داخل المبنى الجامعي. الصعوبة التي تواجهها في الدرس. الحرية التي يتصرّف بها الطلاب. عن أوّل سيجارة دخّنتها في حفلة تعارف أوّل السنة. غلاء المعيشة. شوقها إلى حرّ أفريقيا. في grenoble لا تشعر بالدفء أبداً.

أجد ماكينة حلاقة كهربائية ماركة براون. جلود الأحذية متيبسة قاسية في الخزانة.

في خزائن الرواق ملاءات وشراشف للأسرّة، أغطية للوسائد مناشف من كل الأحجام. رائحة النفتالين نفسها.

أفرد شرشفاً أصفر فوق الفراش. أرشّ فوقه نقطاً من الويسكي لتتبدّل رائحته.

Twitter: @alqareah

في غرفتي لا أجد إلا السرير الأبيض الصغير ذا الجوانب العالية. على الستائر رسوم لأولاد يلعبون بالطابة، يقفزون فوق الحبل. الخزانة فارغة. في أحد أدراجها، أجد مريلة عليها تطريز لدبّ صغير. كم كان عمري عندما كانوا يربطونها حول رقبتي. شهران، ثلاثة؟ أغان لمطربين قدامى اسمعها الآن من جهة المطعم.

اللمبة محروقة في غرفة الجلوس. أفتح التلفزيون، أقلّب المحطات. لا شيء. ثمّ صورة مغبشة بالأبيض والأسود لمذيعة على تلفزيون لبنان.

آكل جبناً. أشرب الويسكي. أخلطه بماء بارد..

صاحبة الدكان تعتاد رؤيتي. تبتسم ما إن تراني في الباب.

أنقع الثياب الوسخة. أفركها قليلاً ثمّ أنشرها فوق الحبل جهة المطبخ. الغسالة لا أجيد تشغيلها. من يضمن أنّها لا تزال صالحة بعد عشرين سنة. في المساءات أسمع على الفونوغراف إسطوانات أبي Bee Gees و Elvis Presly و Pink Floyd و Rolling Stones.

أغاني فيروز وأم كلثوم. أضبط الراديو على موجات الـ F.M. أتصفّح كتب الهندسة في مكتبة أبي، كتب الطبخ الأفريقي، الإيطالي، الصيني، التايلاندي، موسوعة ينيفرساليس، مجلاّت الديكور. كتباً عن تربية الأطفال. أمشي طويلاً. أحياناً إلى حديقة السيوفي أو بالاتجاه الآخر ناحية المرفأ.

على شرفات البيوت أرى أعلاماً كبيرة لإيطاليا وإنكلترا والبرازيل وألمانيا. أمام الدكاكين أعلام صغيرة يلوّحها الهواء. أصوات المعلّقين الرياضيين تتردّد في الليل. تطغى على موسيقى

Twitter: @alqareah

المطعم. من الشرفة حيث أجلس ليلاً، لا أرى إلاّ بنايات بعيدة.

النبيذ الفاسد في القناني، يتسبّب لي بتقيؤ ليومين. الصيدلي يعطيني دواءين. يقول إنه تسمم. تتحسّن حالتي بعد الجرعة الثانية.

الآن أشتري مشروبي من الدكان. يرمقني الناس في الشارع بنظرات مستغربة. السبب ثياب أبي التي أرتديها. الحرارة ترتفع كثيراً مؤخراً. أبقي الشباك مفتوحاً أثناء نومي. يوقظني أحياناً المعلّق يصرخ «Goal.. Goal».

يرنّ الهاتف. أحسبني أحلم. يستمرّ الرنين. أفتح عيني. أمدّ يدي لأطفئه. أنتبه للعتمة. من يتصل في وقتٍ كهذا؟

ـ آلو.

ـ أنا هيلدا. زوجة سليم. أتذكرني حبيبي؟

لا أجيب.

ـ اتصلنا بك طوال المساء. لم يردّ أحد. جدّك فيليب في المستشفى..

Twitter: @alqareah

ينتهي الصيف. تبدأ الدروس في تشرين الأوّل. القيادة لوقت طويل تزعجني. الزحمة تزيد الآن مع بدء المدارس. في ضهور الشوير الطقس يبرد تدريجياً. لا يريد جدي أن يعود إلى بيروت قبل نهاية تشرين الثاني.

يقول الطبيب إنّ التحسّن في جانبه المشلول غير متوقّع في سنّه وفي حالته الصحية. مساءً أجرّ كرسيه النقّال. نجلس على الشرفة. أغطي قدميه ببطانية صوف وكتفيه بشال سميك. أطعمه أكله المهروس فيما يتفرّج على سراب الليل. صرتُ أفهم ما يقوله غمغمةً. أشرح للممرضة ما يريد. أحلق ذقنه كلّ صباح. تساعدني أم السعد في تحميمه. بات الآن يحرّك أصابع يده اليسرى، فمه أقلّ ارتخاءً.

أقصّ شعري الطويل. يقول جوزيف إنني أبدو فيه كصبي صغير. هو أيضاً تبدّل. كأنه في شهور كبر بضع سنوات.

بداية صلع في مقدّمة رأسه. شعرات بيضاء عند فوديه. لا يزال مهووساً بنظافة يديه.

Twitter: @alqareah

في أواسط تشرين الثاني يدعوني إلى شرب البيرة. حفلة توديعية للصيف، يقول.

لا نجد في باحة المطعم البحري إلاّ رجلاً خمسينياً يكتب فيما الهواء يتلاعب بصفحات الجريدة أمامه. لا أحد يأتي في مثل هذا الوقت، يقول جوزيف. نشرب بيرة ونأكل جزراً وفستقاً مملّحاً.

الموج يلطم الجدار المطلي بالأزرق. أتساءل من رسم فوقه هذه المراكب الشراعية.

نشرب الكثير من البيرة. أحسّ ثقلاً في قدميّ ولساني. قشعريرة برد تسري في جسمي.

هنا جلسنا. بلى. أذكر. بردتْ. أعطيتها معطفي.

أتأمّل دخان السيجارة، يبدّده الهواء قبل أن يرتفع عموداً أمامي. رفّ من النوارس يغطّ فوق البحر قريباً من الشاطئ..

موجة كبيرة ترشّنا برذاذها.

تـمّــت

Twitter: @alqareah

المحتويات

الفصل الأول: رجـا 7

الفصل الثاني: فيليب 61

الفصل الثالث: رلى 115

الفصل الرابع: جوزيف 173

الفصل الأخير: رجا 223

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

صدر للمؤلفة

1 ـ **بورتريه للنسيان**، المركز الثقافي العربي، 1994.

2 ـ **شتاء مهجور**، المركز الثقافي العربي، 1996.

3 ـ **بيوت المساء**، دار الجمل، 1997.

4 ـ **البئر والسماء**، المركز الثقافي العربي، 1997.

5 ـ **العابر**، المركز الثقافي العربي، 1999.

6 ـ **بلاد الثلوج**، المركز الثقافي العربي، 2001.

Twitter: @alqareah

رينيه الحايك

بيروت 2002

يتبدّل وجهه. كأنه يقلق فعلاً. أراه يستمرّ في التحديق بي. أشير له أن يجلس. يتناول جريدة عن الطاولة. يقلّب صفحاتها. أحسّ دبيب نملٍ داخل جمجمتي. يواصل زحفه إلى رقبتي، إلى أصابعي.

حتى الآن أجهل سبب انجذابي السريع إليه. أثناء حديثه، يضع يده فوق كتفي أو فوق ذراعي بطريقة عفوية. لا يدري كم يربكني. يأخذ سيجارتي، يمجّ منها مجّة، يعيدها إليّ. لم أرد أن أبدو كفتاة خجولة، بلا أية تجربة. لذلك لم أتصل بأمي لأُعلمها بتأخري. آنذاك، كانت معتادة أن تعرف مواعيد ذهابي وعودتي بدقة. لكن كيف سأفعل ذلك؟ أتجنّب أن أرفع رأسي. أخشى أن يفضحني إحمرار وجهي حتى الاختناق. أستمرّ في السير محدّقة بحذائي. أعلم أنّه طالب في الـ L.A.U في إدارة الأعمال. يقول: دروس مملة بالإجمال. يفكّر بتغيير الاختصاص. لا يحبّ معرفة الحياة من الكتب. يفضّل أن يختبرها بنفسه. يقول ليلتها أفكاراً كثيرة تسحرني. لن أعرف إلاّ في ما بعد أنه يكرّرها. كأنه لا يعرف غيرها. حفظها ربّما من أحد المسلسلات.

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء-المغرب

جميع كتبنا متوفرة أيضاً على الانترنت في
مكتبة النيل والفرات
www.neelwafurat.com